

أهل البيت الإمام علي بن أبي طالب

للأستاذ
توفيق أبو عاصم

رئيس مجلس إدارة مسجد السيدة نفيسة
والوكيل الأول لوزارة العدل

الطبعة الثانية



دار المعارف

أهل البيت

الامام علي بن أبي طالب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ
وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ .

[سورة الأحزاب]

﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ .

[سورة الشورى]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين والصفوة من صحبه وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد فخير مقدمة لكتابى (على بن أبى طالب) أن أبدأ بهذا الدعاء من أدعية الإمام رضى الله عنه :

[اللهم إنك آنس الآنين لأولياك ، وأحضرهم بالكفاية للمتوكلين عليك ، تشاهدهم فى سرائرهم ، وتطلع عليهم فى ضمايرهم ، وتعلم مبلغ بصائرهم ، فأسرارهم لك مكشوفة ، وقلوبهم إليك ملهوفة ، إن أوحشتهم الغربة آنسهم ذكرك ، وإن ضببت عليهم المصيبة لجأوا إلى الاستجارة بك ، علماً بأن أزمة الأمور بيدك ، ومصادرها من قضائك .

اللهم إن فهيت عن مسألتى ، أو عميت عن طلبتى ، فدلنى على مصالحى ، وخذ بقلبى إلى مرشدى ، فليس ذلك بنكر من هداياتك ولا ببدع من كفاياتك .

اللهم احملنى على عفوك ، ولا تحملنى على عدلك .

اللهم إني أعوذ بك أن أفترق في غناك ، أو أضلّ في هداك ، أو أضام في سلطانك ، أو أضطهد والأمر لك . اللهم إنا نعوذ بك أن نذهب عن قولك ، أو نفتن عن دينك أو تتابع بنا أهواؤنا دون الهدى الذى جاء من عندك [.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الإمام عليّ بن أبي طالب

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال للإمام علي :

« حباك إيمان ، وبغضك نفاق ؛ وأول من يدخل

الجنة محبك ، وأول من يدخل النار مبغضك »

[حديث شريف]

هو عليّ بن أبي طالب (واسمه عبد مناف) بن عبد المطلب (واسمه

شعبة الحمد) بن هاشم (واسمه عمرو) بن عبد مناف (واسمه المغيرة)

ابن قصي بن كلاب بن مرة بن أوى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر

ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد

ابن عدنان .

مولده :

ولد رضى الله عنه بمكة داخل البيت الحرام ، في يوم الجمعة لثلاث

عشرة ليلة خلت من رجب سنة ثلاثين من عام الفيل ، قبل الهجرة

بثلاث وعشرين سنة — ولم يولد قبله ولا بعده مولود في بيت الله سواء — وفي

ذلك يقول السيد الحميرى :

ولدته فى حرم الإله وأمنه والبيت حيث فناؤه والمسجد
 بيضاء طاهرة الثياب كريمة طابت وطاب وليدها والمولد
 فى ليلة غابت نحوس نجومها وبدت مع القمر المنير الأسعد
 ما لف فى خرق القوابل مثله إلا ابن آمنة النبي محمد

وفى ذلك يقول أيضاً عبد الباقي العمري :

أنت العلي الذي فوق العلا رفعا ببطن مكة وسط البيت إذ وضعها
 وقد سمته أمه : حيدرة - والحيدرة الأسد - ويدل على ذلك خبره
 يوم برز إليه مرحب ، وارتجز عليه :

قد علمت خير أنى مرحب

شاكى السلاح بطل مجرب

أنا الذى سمنى أمى مرحبا

فأجابه على " كرم الله وجهه :

أنا الذى سمنى أمى حيدره ضرغام آجام وليث قسوره
 عبل الذراعين شديد القصره كليث غابات كربه المنظره
 أكيلكم بالسيف كيل السندره أضربكم ضرباً يبين الفقره
 وأترك القرن بقاع جزره أضرب بالسيف رقاب الكفره
 ضرب غلام ماجد ضروره من يترك الحق يقوم صوره

وما سمته أمه بهذا الاسم إلا لتغرس فيه روح الحماسة والبسالة
وتبعث في نفسه شجاعة الأسد وإقدامه — وقد كان في ذلك مضرب
المثل .

وسماه أبوه علياً ، وقال :

سميته بعلي كى يدوم له عن العلو وفخر العز أدومه

وكناه الرسول صلى الله عليه وسلم بأبي تراب وقد اختلف في سبب
هذه التسمية فذهب بعضهم إلى أن سببها أنه صلى الله عليه وسلم مرّ
به نائماً تسقى عليه الريح التراب فقال : قم يا أبا تراب ، ألا أخبرك
بأشقى الناس أجمعين ؟ عاقر الناقة والذي يضربك على هذا فيخضب هذه —
يعنى على رأسك فيخضب لحيتك بدمك ^(١) . ويروى البخارى أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم وجده في المسجد نائماً وقد ترب جنبه فجعل يمسح
التراب عن جنبه ويقول : قم أبا تراب .

ويرى العلامة السيد محمد الصدر أن كلمة « أبو تراب » كناية
عن كثرة عبادته وصلواته لأن المسلمين في السابق كانوا يسجدون على
التراب ، وكان الإمام على معفر الجبين لكثرة ما يسجد ، فقوله : قم
أبا تراب على حد قوله قم يا كثير العبادة .

(١) ص ٥٥ من كتاب إمتاع الأسماع للمقريزى .

وفي رأى أستاذنا محمد صادق الصدر أن هذه الكنية كانت أحب الكنى إليه . كما أن المعروف أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم كان كثيراً ما يدعو به ؛ ولا بد أن ذلك لميزة تستحق هذه العناية من الرسول صلى الله عليه وسلم .

وذكر ابن أبي الحديد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : « اجلس إنما أنت أبو تراب » ، فجاء بإنما - وهي للحصر - ولا معنى لأن يحصر فيه التراب وإنما حصر فيه صفة عالية كانت من مميزات الإمام ، وهي العبادة - فهذه الكنية بهذا المعنى وسام من النبي منحه الإمام .

وللشاعر الشهير عبد الباقي العمري في هذه الكنية معنى مبتكر جميل ، فهو يجعل آدمَ ابنًا للتراب لأنه خلق منه - ويجعل عليًا أباه لأنه أبو تراب فيقول :

أنت ثاني الآباء في منتهى الدو ر وآباؤه تعد بنوه
خلق الله آدمًا من تراب فهو ابن له وأنت أبوه

وقد أحسن خصوم الإمام ، وبخاصة معاوية ، برفعة هذه الكنية . ميزة صاحبها - فأخذوا يموّهون على الناس بأن سبوه بها على المنابر مظهرين

أنها منقصة له ^(١) - ولكن المسلمين المؤمنين يعرفون منزلة الإمام ويقدرونه حق قدره .

أمه :

أمه فاطمة بنت أسد : وفي الأغاني : هي أول هاشمية تزوجها هاشمي ، وأول هاشمية ولدت خليفة ، وهي أم سائر ولد أبي طالب ، وكان عليّ أصغر بنيتها ، وجعفر أسن منه بعشر سنين ، وعقيل أسن منه بعشر سنين ، وطالب أسن منه بعشر سنين ، وخرج يوم بدر مع المشركين كارهًا ، ولم يعرف له خبر ، ولا عقب له .

وهو وإخوته أول هاشميين ولدوا من هاشميين :

ويقول السيد محسن الأمين :

له فاطم أم وكانت لأحمد بهر وإشفاق هي الأم والظئر
فيغدو رهيناً عندها متكحلاً وأولادها شعث شعورهم غير
به آمنت في مكة ثم هاجرت إلى يثرب ماشاب إيمانها نكر
وكفنها خير الورى في قميصه وفي قبرها قد نام مذ حفر القبر
ولقنها القول السديد الذى به

لدى الحشر تنجو حين يجمعها الحشر

(١) ابن أبي الحديد (ص ٤ - الجزء الأول)

لخير أب ينمي وأكرم حرّة
 هما الهاشميان اللذان تفرعا
 له نسب من شعبة الحمد باهر
 نماه إلى العليا لؤى بن غالب
 بذلك سمعت عدنان وافتخرت فهر
 على خير فرع أصله هاشم عمرو
 جلى فن ساماه أقعده البهر
 وعبد مناف قدمضى قبله النضر

وكانت ذات رأى أصيل ، وغرض نبيل ؛ وكانت فى مقدمة
 النساء اللاتى بايعن المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وقد سارت سيرة خديجة
 رضى الله عنها فى استرواح نفس النبى صلى الله عليه وسلم ومواساته
 وتأيد أمره ، وتقبلت خلق زوجها أبى طالب فى الذود عنه ومؤازرته ،
 وإعلاء كلمته ، ونشر رسالته ، وكانت جريرة لا تخاف فى الحق
 لومة لائم ، ولم تهب أحداً من أساطين المعارضين ممن غالوا فى إيذاء
 الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل كثيراً ما وقفت فى وجوههم ، وردت
 عنه عداوتهم ، وقد تابعت فى هجرته إلى المدينة ، وكان بيتها بها مقبلاً
 طيباً ومشوى مباركاً ، كما كان فى مكة ليأذاً أميناً ، وموثلاً كريماً ،
 فهى منقطعة النظير فيما أظهرته فى تأيد المصطفى صلى الله عليه وسلم
 ونصرته ، ولقد كان عليه السلام يزورها فى بيتها فيجدها فيّاحة نفاحة
 منهلة الوجه .

وكانت تعطف على زوج ولدها « السيدة فاطمة الزهراء » عطف
 الأمهات على أفلاد أكبادهن ، وكانت تعاونها فى أعمالها ، وتساعدها
 فى أمورها ، ولقد قال على رضى الله عنه لأمه فاطمة بنت أسد : « اكفى فاطمة

بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم سقاية الماء ، والذهاب في الحاجة ، وهي تكفيك من الداخل الطحن والعجن » ، فكانت بارة بها ، حانية عليها ، مدللة لأولادها ، عاطفة عليهم .

ولما توفيت كفنها رسول الله صلى الله عليه وسلم في قميصه ، وأمر من يحفر قبرها ، فلما بلغوا لحدها حفره بيده ، واضطجع فيه ، وقال : « اللهم اغفر لأُمِّي فاطمة بنت أسد ، ولقنها حجتها ، ووسع عليها مدخالها » . فقبل يارسل الله ، رأيناك صنعت شيئاً لم تكن تصنعه بأحد مثلها ، فقال : « ألبستها قميصي لتلبس من ثياب الجنة » ، أو قال : هو أمان لها يوم القيامة ، واضطجعت في قبرها ليوسعه الله عليها ، وتأمين ضغطة القبر ، لأنها كانت من أحسن خلق الله صنعةً إلى بعد أبي طالب . وروى الحاكم في المستدرک بسنده عن سعيد بن المسيب عن عليّ ابن الحسين عن أبيه عن جده أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ؛ قال لما ماتت فاطمة بنت أسد كفنها رسول الله صلى الله عليه وسلم في قميصه ، وصلى عليها ، وكبر عليها سبعين تكبيرة ، ونزل في قبرها فجعل يوءى في نواحي القبر كأنه يوسعه ويسوى عليها ، وخرج من قبرها وعيناه تذرفان ، وحثا في قبرها ، فقال له عمر بن الخطاب ، يا رسول الله ، رأيتك فعلت على هذه المرأة شيئاً لم تفعله على أحد فقال له : « إن هذه المرأة كانت أُمِّي بعد أُمِّي التي ولدتنى ؛ إن أبا طالب كان يصنع الصنيع ،

وتكون له المأدبة ، وكان يجمعنا على طعامه ، فكانت هذه المرأة تفضل منه كله نصيبنا فأعود فيه » .

زوجاته :

١ - فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يتزوج عليها حتى توفيت .

٢ - أمامة ^(١) بنت أبي العاص بن الربيع بن عبد العزى ، وأمها زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمها السيدة خديجة بنت خويلد ، وقد أوصت السيدة الزهراء الإمام علياً أن يتزوجها بعد وفاتها .

٣ - خولة بنت جعفر بن قيس بن مسلمة .

٤ - ليلى بنت مسعود بن خالد .

٥ - أم البنين بنت حزام بن خالد .

٦ - أم ولد .

(١) أوصى ابن الربيع قبل موته بابنته أمامة إلى ابن خاله الزبير بن العوام بن خويلد . وقد زوجها الزبير من الإمام علي ، وظلت أمامة معه حتى قتل ، فكان مشهدها وهي تطيف به وهو مسجى على فراشه يمزق القلوب ويفتت الأكباد حتى لقد قالت أم المهيم :
أشأب ذؤابتي وأذل ركبى أمامة حين فارقت القرينا
تطيف به لحاجتها إليه فلما استيأست رفعت رهيئا

٧ - أسماء بنت عميس .

٨ - الصهباء وهى أم حبيب بنت ربيعة .

٩ - أم سعيد بنت عروة بن مسعود .

١٠ - محياة بنت امرئ القيس .

أولاده^(١):

فى مروج الذهب : يقول المسعودى إن عدد أولاد الإمام خمسة وعشرون . ويقول المفيد فى الإرشاد إنهم سبعة وعشرون ، وهم الحسن والحسين ، وزينب الكبرى ، وأم كلثوم الكبرى ، (وأمههم فاطمة بنت سيد المرسلين الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم) ، ومحمد الأكبر (ابن الحنفية ، وأمه خولة) ، وعبد الله وأبو بكر (وأمهما ليلي) ، والعباس الأكبر ، وعثمان وجعفر الأكبر وعبد الله (وأمههم أم البنين) ، ومحمد الأصغر (وأمه أم ولد) ، ويحيى وعون (وأمهما أسماء بنت عميس) ، وعمر الأكبر ورقية (وأمهما الصهباء) ، ومحمد الأوسط (وأمه أمامة) ، وأم الحسن ورملة الكبرى (وأمهما أم سعيد) ، وأم هانىء وميمونة وزينب الصغرى ورملة الصغرى وأم كلثوم الصغرى وفاطمة ،

(١) سقى الإمام من أولاده بأسماء الخلفاء الثلاثة أبو بكر وعمر وعثمان ، كما سقى فى الفصل الخاص بموقف الإمام على بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم .

وأمامة ، وخديجة ، وأم الكرام ، وأم سلمة ، وأم جعفر ، وجمانة .
ونفيسة ، وابنة لم تسم (وأهمهم محياة) .

ويقول ابن سعد في طبقاته : فجميع ولد عليّ بن أبي طالب لصلبه
أربعة عشر ذكراً وتسع عشرة امرأة ، وكان الحسن والحسين بعدان
أبناء للرسول عليه الصلاة والسلام ، وفي الرياض النضرة للمحب الطبري
أنه كان وافر الحظ من الذرية فبقى منهم بعده كثيرون .

وقد كثّر الله تعالى نسل عليّ وفاطمة عليهما السلام بدعوة النبي صلى
الله عليه وسلم لهما ليلة زفافهما بقوله : اللهم أخرج منهما الكثير الطيب .
وفي كتاب « الرياض النضرة » أيضاً ، يقول المحب الطبري :

روى أبو سعيد في شرف النبوة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
لعلّ

« أوتيت ثلاثاً لم يؤتنيهن أحد ولا أنا أوتيت صهرًا مثلي ولم أوت
أنا مثلي ، وأوتيت زوجة صديقة مثل ابنتي ، ولم أوت مثلها زوجة . وأوتيت
الحسن والحسين من صلبك ولم أوت من صلبي مثلهما . ولكنكم مني
وأنا منكم » ... وفي رواية : « أوتيت أربعة . . . والرابعة لولاك ما عرف
المؤمنون » . . . إشارة إلى قول الرسول : « من كنت مولاه فعلي مولاه » .

وفي كتاب : « مناقب آل طالب » روى الحديث بطريق آخر
« أن النبي قال : يا عليّ لك أشياء ليست لي منها : لك زوجة مثل فاطمة

وليس لى مثلها ، ولك ولدان من صلبك وليس لى مثلهما من صلى .
 ولك مثل خديجة حماة وليس لى مثلها حماة ، ولك صهر مثلى وليس لى
 صهر مثلى ، ولك أخ مثل جعفر وليس لى مثله فى النسب ، ولك أم مثل
 فاطمة بنت أسد الهاشمية ، المهاجرة وليس لى مثلها » .

وفى تفسير آية المباهلة ، يقول المفسرون إن المراد بأنفسنا الرسول صلى
 الله عليه وسلم ، وعلى رضى الله عنه ، وبنسائنا فاطمة ، وبأبنائنا
 الحسن والحسين : (فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا
 وأنفسكم . ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين) ، ويقول الرازى فى
 تفسيره : هذه الآية دالة على أن الحسن والحسين كانا ابنى رسول الله صلى
 الله عليه وسلم ، وعد النبي أن يدعو أبناءه فدعا الحسن والحسين . . .

وقد تواتر الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ولداى
 هذان إمامان قاما أو قعدا » ، وقال : « هما ريحانتاى من الدنيا » ؛
 وعن الإمام أحمد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كل ولد أب ،
 فإن عصبتهم لأبيهم ما خلا ولد فاطمة فلانى أنا أبوهما » ، ويقول الإمام
 على رضى الله عنه فى محمد بن الحنفية : لانه ابنى ، أما الحسن والحسين
 فلإنهما ابنا الرسول .

وما لاشك فيه أن علياً وفاطمة والحسن والحسين هم آل محمد
 وآل الرسول وآل البيت . ويتحدث الإمام على فى هذا وعلى نعمة
 الله عليه فيقول :

محمد* النبي أخى وصهرى وحمزة سيد الشهداء عمى
 وجعفر* الذى يمسى ويضحى يطير مع الملائكة ابن أمى
 وبنت محمد سكنى وعرسى مشوب لحمها بدمى ولحمى
 وسبطا أحمد ولدائى منها فأبكم له سهم كسهمى
 سبقتكم إلى الإسلام طرأ صغيراً ما باغت أوان حلمى
 وصليت الصلاة وكنت فرداً فن ذا يدعى يوماً كيومى

ويقول الإمام الحسين رضى الله عنه :

أليس رسول الله جدى ووالدى أنا البادر إن خلى النجوم خفاء ؟ !
 ويكنى الإمام على أبا الحسن وأبا الحسين . وكان الحسن فى حياة
 الرسول صلى الله عليه وسلم يدعوه أبا الحسين والحسين يدعوه أبا الحسن ،
 ويدعوان رسول الله صلى الله عليه وسلم أباهما . فلما توفى النبي صلى الله
 عليه وسلم دعوا عليهما أباهما . وكان يكنى أيضاً بأبى تراب . كنتاه
 به رسول الله صلى الله عليه وسلم . ففى الاستيعاب بسنده قيل لسهل بن
 سعد إن أمير المدينة يريد أن يبعث إليك لتسبّ عليهما عند المنبر ، قال :
 كيف أقول ؟ قال : تقول : أبا تراب . فقال : والله ماسماه بذلك إلا
 رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : وكيف كان ذلك يا أبا العباس ؟
 قال دخل على فاطمة . ثم خرج من عندها فاضطجع فى صحن
 المسجد فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على فاطمة . فقال أين ابن
 عمك . قالت هو ذاك مضطجع فى المسجد . فوجدته قد سقط رداؤه عن

ظهره ، وخلص التراب إلى ظهره فجعل يمسح التراب عن ظهره ، ويقول اجلس أبا تراب ، فو الله ماسماه به إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم .
 والله ما كان اسم أحب إليه منه . كما سبق وبينت ذلك تفصيلا .

واقبه أمير المؤمنين والمرضى وحيدر والوصى والأصاع والأنزع البطين .
 ويقول ابن عباس : وكان على يتبع في جميع أمره مرضاة الله ورسوله . فلذلك سمي المرضى ، أما لقبه الأنزع البطين فلأنه عايه السلام كان ذا صلابة ليس في رأسه شعر إلا من خلفه - وكان عظيم البطن - وهاتان الصفتان قد كونتا له هذا اللقب . فإذا قيل الأنزع أو الأنزع البطين تبادر إلى الذهن أنه الإمام .
 وقد وصف محمد بن الحنفية الإمام فقال : « كان ربع القامة . أزج الحاجبين . أدعج العينين ، أنجل ^(١) . كأن وجهه القدر ليلة البدر حسناً وهو إلى السمرة ، أصابع له حفاف من خافه كأنه إكليل وكان عنقه إبريق فضة . وهو أرقب : ضخم البطن ، أقرى الظهر ، عريض الصدر ، محض المتن ، شئن الكفين ، ضخم الكسور ، لا يبين عضده من ساعده قد أدمجت إدماجاً - عبل الذراعين ، عريض المنكبين ، عظيم المشاشين كبشاش ^(٢) السبع الضاري ، له لحية قد زانت صدره ، غليظ العضلات - خممش الساقين » .

وقد شاء عمرو بن العاص أن يتلاعب في أوصافه عليه السلام فلما

(١) النجل : سعة العين مع حسنها . يقال رجل أنجل وامرأة نجلاء .

(٢) المشاش : رأس العظم .

كتبت أوصافه عن ثبيت الخادم أخذها عمرو فزم بأنفه وقطعها وكتب :
 « إن أبا تراب كان شديد الأدمة عظيم البطن خمش الساقين ونحو ذلك » .
 وما كان الإمام أسمر ولا شديد السمرة وإنما كان يميل إليها كما ترى من
 صريح عبارة محمد بن الحنفية .

ومما لا شك فيه أن الإمام كان على جانب عظيم من الجمال ،
 وحسبه أن يشبه بالبدر الساطع . وعن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه
 قال : « من أراد أن ينظر إلى إبراهيم في حلمه ، وإلى نوح في حكمه ،
 وإلى يوسف في جماله ، فليُنظر إلى علي بن أبي طالب » ^(١) .

وكان أبجر ، أى كبير البطن ، يتكفأ في مشيته على نحو يقارب
 مشية النبي صلى الله عليه وسلم . وإذا مشى إلى الحرب هرولاً ثبت
 الجنان قوياً ، ما صارع أحداً إلا صرعه .

وكان يتمتع بقوة جسدية بالغة في المكانة والصلابة والصبر على
 العوارض والآفات ، ومن قوة تركيبه رضى الله عنه أنه كان لا يبالي
 الحر والبرد ولا يحفل الطوارئ الجوية في صيف ولا في شتاء ، فكان يلبس
 ثياب الصيف في الشتاء ، وثياب الشتاء في الصيف ، وسئل في ذلك فقال :
 « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلىَّ وأنا أرمد العين يوم خيبر ،
 فقلت : يا رسول الله إني أرمد العين ، فقال : اللهم أذهب عنه الحر
 والبرد . فما وجدت حرّاً ولا برداً منذ يومئذ . . . » .

(١) ذخائر العقبى (ص ٩٤) - وحياة أمير المؤمنين في عهد النبي صلى الله عليه وسلم .

وكان بعيد المدى شديد القوى ، يقول فصلا ويحكم عدلا ،
يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا
وزهرتها ، ويأنس بالليل ووحشته ، وكان غزير الدعة ، طويل الفكرة ،
يقلب كفه ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما خشن ، ومن الطعام
ما جشِب ، يعظم أهل الدين . ويعرف المساكين ، وكان ينضرع
إلى الله سبحانه وتعالى . ويقول : « يا دنيا غرّى غبرى ألى تعرضت أم
إلى تشوقت ، هيهات هيهات ؛ قد بنتك ثلاثاً لا رجعة فيها . فعمرك
قصير . وخطرك كبير . وعيشك حقير ، آه آه ؛ من قاة الزاد . وبعد
السفر ، ووحشة الطريق . . . » .

ويقول ابن عبد البر فى الاستيعاب: كان علىّ إذا ورد عليه مال لم يبق
منه شيئاً إلا قسمه ، ولا يترك فى بيت المال منه إلا ما يعجز عن قسمته
فى يومه ذلك ، ولم يكن يستأثر من النىء بشيء ، ولا يخص به حميماً
ولا قريباً ، ولا يخص بالولايات إلا أهل الديانات والأمانات ،
وإذا بلغه من أحدهم خيانة كتب إليه (قد جاءكم موعظة من ربكم
فأوفوا الكيل والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا
فى الأرض مفسدين . بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين . وما أنا عليكم
بمحفيظ) .

ويقول ابن عبد البر : أجمعوا على أنه صلى إلى القبلتين . وهاجر .

وشهد بدرأ والحديبية وسائر المشاهد ، وأنه أبلى بيدر وبأحد وبالخندق وبخير بلاء عظيمًا .

وفي الإصابة : رُبِّي في حجر النبي صلى الله عليه وسلم ولم يفارقه :
وشهد معه المشاهد إلا غزوة تبوك .

على بن أبي طالب ولد مسلماً :

لنستمع أولاً إلى ما يقوله ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة في مناقب الإمام على ، كرم الله وجهه :

اجتمع للإمام على بن أبي طالب من صفات الكمال ومحمود الشمايل والخلال وسناء الحسب وباذخ الشرف مع الفطرة النقية والنفس المرضية ، ما لم يتهياً لغيره من أفذاذ الرجال .

تحدث من أكرم المناسب ، وانتمى إلى أطيب الأعراق ، فأبوه أبو طالب ، عظيم المشيخة من قريش ، وجده عبد المطلب أمير مكة وسيد البطحاء ، ثم هو قبل ذلك من هامات بني هاشم وأعيانهم .

وبنو هاشم كانوا كما وصفهم الجاحظ « ملح الأرض » وزينة الدنيا ، وحلى العالم . والسنام الأضخم ، والكاهل الأعظم ، ولباب كل جوهر كريم ، وسر كل عنصر شريف ، والطينة البيضاء ، والمغرس المبارك ، والنصاب الوثيق ومعدن الفهم وينبوع العلم .

واختص بقرابته القريية من الرسول عليه الصلاة والسلام . فكان ابن عمه وزوج ابنته وأحب عترته إليه . كما كان كاتب وحيه وأقرب الناس إلى فصاحته وبلاغته وأحفظهم لقوله وجوامع كلمه . أسلم على يديه صبيًا قبل أن يمسه قلبه عقيدة سابقة أو يخاطب عقله شوب من شرك موروث . ولازمه فتيةً يافعاً في غدوه ورواحه وسلمه وحربه ، حتى تخلق بأخلاقه واتسم بصفاته . وفقه عنه الدين وتفقه ما نزل به الروح الأمين . فكان من أفقه أصحابه وأقضاهم وأحفظهم وأدعاهم وأدقهم في الفتيا وأقربهم إلى الصواب . حتى قال فيه عمر : لا بقيت معضلة ليس لها أبو الحسن .

وكانت حياته كلها مفعمة بالأحداث مليئة بجلال الأمور فعلى عهد الرسول عليه السلام ، ناضل المشركين واليهود : فكان فارس الحلبة وسعر الميدان صليب النبع جميع الفؤاد .

وفي أيام خلافته كانت له أحداث أخرى لقي فيها ما لقي من تفرق الكلمة واختلاف الجماعة واتقصام العروة . مما طوى أضلعه على الهم والأسى ، ولاع قلبه بالحزن والشجن ، وفي كل ما لقي من أحداث وأمور : وما صادف من محن وخطوب بلا الناس وخبرهم وتفتن لمطاوى نفوسهم واستشف ما وراء مظاهرهم ، فكان العالم المجرب الحكيم والناقد الصيرفي الخبير . وكان لطيف المحس نقي الجوهر ، وضياء النفس . سليم الذوق .

مستقيم الرأي ، حسن الطريقة ، سريع البديهة حاضر الخاطر ، عارفاً بمهمات الأمور لإصداراً وإيراداً .

وما يعنيني في شرح ابن أبي الحديد قوله : « أسلم على يديه — يقصد الرسول صلى الله عليه وسلم — قبل أن يمس قلبه عقيدة سابقة أو يخالط عقله شوب من شرك موروث . . . » ، فقد ولد الإمام داخل الكعبة ، وكرم الله وجهه عن السجود لأصنامها ، وترى عند النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنه لما أصاب أهل مكة جدب وقحط قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعنه العباس رضى الله عنه — وكان من أيسر بني هاشم — : « يا عم إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى ، فانطلق بنا إلى بيته لنخفف من عياله عنه ، فتأخذ أنت رجلاً وأنا آخذ رجلاً فنكفلهما عنه » ، فقال العباس : أقبل ، فانطلقا حتى أتيا أبا طالب وحمزة عنده وسألوه أن يدفع إليهم ولده ليكفوه أمرهم ، فقال : دعوا لي عقيلاً وخذوا من شتم ، وكان عقيل أحب هؤلاء الإخوة إلى أبيه ، فأخذ العباس طالباً وأخذ حمزة جعفرأً وأخذ النبي عليه الصلاة والسلام علياً ، وكان أصغرهم .

وفي ذلك يقول السيد محسن الأمين :

أنت سنة شهباء أصبح عندها	أبو طالب قد حل ساحته الفقر
فقالوا دعونا نكفه بعض ولده	مساعدة فالحر يسنده الحر
خذوا من أردتم إن تركتم بجانبى	عقيلاً فلي في حبه منكم عذر

لأحمد أعطينا علياً وجعفرأ الحمزة والعباس طالب فليدروا
وقد كان على يلأزم رسول الله صلى الله عليه وسلم . بل قيل إنه
عندما أخذه كان يلي أكثر تربيته ويطهره في وقت غسله ، ويوجره اللبن
مده شربه ، ويحرك مهده عند نومه ، وينأغيه في يقظته ، ويحمله على
سدره ، وكان يحمله دائماً ويطوف به جبال مكة وشعابها وأوديتها كأنه
نعل ذلك ترويحاً له ، وفي ذلك يقول السيد محسن الأمين من قصيدة
لويلة :

وربيت في حجر النبي محمد فطوبى لمن من أحمد ضمه حجر
وغذاك بالعلم الإلهي ناشأ فلا علم إلا منك قد حاظه خبر
بأدابه أدبت طفلاً ويافعاً وأكسبك الأخلاق أخلاقه الفر

ويقول ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة - قد ورد في الكتب
مباح أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجاور في حراء كل سنة شهراً
في جاءت السنة التي أكرمته الله فيها بالرسالة فجاور في حراء شهر
ضمان ومعه أهله خديجة وعلى بن أبي طالب وخادم لهم .

وما لا شك فيه أن خلق على نما أولاً على شمائل بيت أبيه أبي طالب
ك الذي أصغت جدرانه لأول مرة إلى عبادة محمد ، وخرجت
، الدعوة الإسلامية إلى الوجود ، فإن علياً ما كاد يبلغ من عمره حتى
مه الرسول صلى الله عليه وسلم إليه وآخاه ، وبذلك تربى على في البيت
ي خرجت منه الدعوة الإسلامية ، وقد أشار على إلى تعهد محمد

إياه بخطبته التي قال فيها : « وقد تعلمون موضعي من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرابة القريبة ، وضعني في حجره وأنا وليد يضمنني إلى صدره ويكفني فراشه ويمسني جسده ويشمني عرقه ، وما وجد لي كذبة في قول ولا خطلة في فعل وكنت أتبعه إتباع الفصيل إثر أمه يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً ويأمرني بالافتداء به » .

وهذا هو أول الزمن الذي يتأهل الغلام فيه لتلقى بذور الأخلاق الفاضلة . وطالما جاور على محمداً في خلواته وسار على نهجه في الانقطاع عن القرشيين المترددين في ليل من جهاتهم وجمودهم على ما هم عليه من عادات وأخلاق ، وطالما عاش في ذلك الجو الزكي إلى جوار ابن عمه وهو أثير لديه حبيب إلى قلبه . وإن مثل هذا الحوار وهذا الإخاء لم يظفر به أحد غير علي من أصحاب الرسول وتلاميذه ، لقد فتح علي بن أبي طالب عينيه على الطريق التي رسمها ابن عمه ، وعرف العبادة أول ما عرفها من صلاته ، ونعم بعطفه وحنانه وإخائه فإذا هو من محمد ما كان محمد من أبي طالب .

ونحن قلب علي أول ما خفق بحب ابن عمه ونطق لسانه أول ما نطق بما لقنه إياه من رائع القول ، واكتملت رجولته أول ما اكتملت لمؤازرة النبي المضطهد ، وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يحبه أنصاره ويحترمه أعداؤه فهل يكون ربيبه وتلميذه وابن عمه علي إلا شيئاً من كيانه ، شيئاً كثيراً من كيانه عظيم .

وإذا أسلم بعض الوجوه من قريش منذ أول الدعوة احتكاماً للعقل وتخلصاً من الوثنية ، وإذا أسلم كثير من العبيد والأرقاء والمضطهدين طلباً للعدالة التي تتدفق بها رسالة محمد واستنكاراً للجور الذي يلهب ظهورهم بسياطه ، وإذا أسلم قوم بعد انتصار النبي امتثالاً للواقع ونزاهةً للمنتصر كما هي الحال بالنسبة لبعض الأمويين - إذا أسلم هؤلاء جميعاً في ظروف متفاوت من حيث قيمتها ومعانيها الإنسانية وتتحد في خضوعها للمنطق أو للواقع الراهن فإن على بن أبي طالب قد ولد مسلماً ، لأنه من معدن الرسول مولداً ونشأةً ومن ذاته خلقاً وفطرة ، ثم إن الظرف الذي أعلن فيه عما يكمن في كيانه من روح الإسلام ومن حقيقته لم يكن شيئاً من ظروف الآخرين ولم يرتبط بموجبات العمر ، لأن إسلامه على كان أعمق من ضرورة الارتباط بالظروف ، إذ كان جارياً من روحه كما تجري الأشياء من معادنها والمياه من ينابيعها ، فإن الصبي ما كاد يستطيع التعبير عن خلجات نفسه حتى أدى فرض الصلاة وشهد بالله ورسوله بدون أن يستأذن أو يستشير .

لقد كان أول سجود على لإله محمد . ويقول العلامة تقي الدين أحمد بن علي المقرئ « وأما علي بن أبي طالب بن عبد المطلب ابن هاشم القرشي فلم يشرك بالله قط .

لقد كان أول من أسلم من الناس بعد خديجة رضى الله عنها .
إن الله تعالى أراد به الخير فجعله في كفالة ابن عمه سيد المرسلين

صلى الله عليه وسلم ، فعندما أتى رسول الله الوحي وأخبر خديجة رضى الله عنها وصدقت ، كانت هى وعلى بن أبى طالب وزيد بن حارثة حبيب رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلون معه ، وكان صلى الله عليه وسلم يخرج إلى الكعبة أول النهار فيصلى صلاة الضحى وكانت صلاة لا تنكرها قريش ، وكان إذا صلى فى سائر اليوم بعد ذلك قعد على أو زيد رضى الله عنهما يرصدانه .

ويقول المؤرخ الشهير اليعقوبى فى تأريخه : « وكان أول من أسلم خديجة بنت خويلد من النساء وعلى بن أبى طالب من الرجال — ثم زيد ابن حارثة ثم أبو ذر » ، وذكر أنه روى عن عمرو بن عبسة السلمى أنه قال : « أتيت رسول الله أول ما بعث وبلغنى أمره فقلت : صف لى أمرك ، فوصف لى أمره وما بعثه الله به ، فقلت : هل يتبعك على هذا أحد ، قال : نعم امرأة وصبي وعبد — يريد خديجة بنت خويلد ، وعلى بن أبى طالب ، وزيد بن حارثة » .

كذلك يقول المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل « وكذلك كان على أول رجل أسلم ، ومن بعده أسلم زيد بن حارثة مولى النبى ، وبذلك بقى الإسلام محصوراً فى بيت محمد ، فيه وفى زوجه وابن عمه ومولاه . وظل يفكر كيف يدعو قريشاً إليه وهو يعلم ما هى عليه من شدة البأس وبالغ التعلق بعبادة آبائهم وأصنامهم » . وروى عن سلمان أنه قال « أول هذه الأمة وروداً على نبيها الحوض أولها إسلاماً :

على بن أبي طالب» - وروى عن ابن عباس أنه قال : لعلى أربع خصال ليست لأحد غيره وذكر منها أنه أول عربي وعجمي صلى مع النبي وقد روى الطبري في تاريخه : « أن أول ذكر آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى معه وصدق بما جاء من عند الله على بن أبي طالب عليه السلام » .

ويقول خزيمة بن ثابت الأنصاري - وهو ذو الشهادتين - للإمام حين بويع بالخلافة : « يا أمير المؤمنين ما أصبنا لأمرنا هذا غيرك ولا كان المنقلب إلا إليك - ولئن صدقنا أنفسنا فيك لأنت أقدم الناس لإيماناً وأعلم الناس بالله - وأولى المؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم - لك ما لهم وليس لهم ما لك » .^(١) ؛ ويقول الفضل بن عباس :
 وكان وليّ الأمر بعد محمد علي وفي كل المواطن صاحبه
 وصي رسول الله حقاً وصهره وأول من صلى وما ذم جناحه

وعن ابن عباس أنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أول من صلى معي على بن أبي طالب » ؛ وقد صلى على مع النبي صلى الله عليه وسلم قبل الناس بسبع سنين كما يفهم ذلك من حديث أبي أيوب الأنصاري ، فإنه يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الملائكة صلت على وعلى عليّ سبع سنين قبل أن يسلم بشر » ؛ ويكرر الحديث بصيغة أخرى فيقول : « قال رسول الله صلى الله عليه

خصائص الإمام عليّ

١ - اختصاصه بلقب الإمام :

حدد علماء الكلام معنى الإمامة فقالوا « الإمامة رئاسة عامة في أمور الدين والدنيا لشخص إنساني . . . » ، فالإمام حسب هذا التحديد هو الزعيم العام والرئيس المتبع ، وله السلطة الشاملة على الناس في جميع شؤونهم الدينية والدنيوية . والإمامة ضرورة من ضروريات الحياة لا يمكن الاستغناء عنها بحال من الأحوال ، فيها يقام ما اعوج من نظام الدنيا والدين ، وبها تتحقق العدالة الكبرى التي ينشدها الله في أرضه ، ومن أهم الأمور الداعية إلى وجود الإمام إيصال الناس إلى عبادة الله ، ونشر أحكامه وتعاليمه ، وتغذية المجتمع بروح الإيمان والتقوى ، ليبعد الإنسان بذلك عن الشر ، ويتجه إلى الخير ، ويجب على الأمة كافة الانقياد إليه والامتثال لأوامره ليقم أودها ويلم شعها ويهديها إلى سواء السبيل .

وللإمام واجبات كثيرة منها : حفظ الدين ، وحراسة الإسلام وصيانته من المستهترين بالقيم والأخلاق ، وتنفيذ الأحكام ، وحماية البلاد الإسلامية ، وإنصاف المظلوم ، والجهاد . . . إلخ .

وهناك شروط لا بد أن تتوافر في الإمام كالعلم والعدالة والشجاعة والنجدة ، وأخيراً العصمة . وقد عرفت : بأنها لطف من الله يفيضها على أكمل عبادته ، وبها يمتنع عن ارتكاب الجرائم والموبقات عمداً وسهواً ، وهذه الأوصاف لم تتوافر إلا في أئمة أهل البيت حصنة الإسلام وحماته والأدلاء على مرضاة الله وطاعته ، وقد وصفهم الشاعر بقوله :

القرييين من ندى والبعيدي	ن من الجور في عرى الأحكام
والمصبيين ما أخطأ النا	س ومرسى قواعد الإسلام
والحماة الكفاة في الحرب إن لف	ضرام وقوده بضرام
والغيوث الذين إن أحمل النا	س فأوى حواضن الأيتام
راجحى الوزن كاملي العدل في الس	يرة طيَّبوا بالأمور الجسام
ساسة لا كمن يرى رعية النا	س سوء ورعية الأغنام

وقد قال الإمام علي : « من نصَّب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره ، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه ، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم » .

وبذلك اختص علي بن أبي طالب بين جميع الخلفاء الراشدين بلقب الإمام ، وهذا اللقب إذا أطلق لا ينصرف إلى أحد غيره من بين جميع حكام المسلمين .

وما سبب ذلك ؟ ألم يكن الصديق إماماً كهلى ؟ أو لم يكن عمر

إماماً كعلي؟ أو لم يكن عثمان إماماً كعلي؟ أو لم يكونوا خلفاء راشدين إذا قصدت الخلافة الراشدة بعد النبوة؟ بلى؛ كانوا أئمة مثله وسبقوه في الإمامة.

ويجب العلامة الأستاذ العقاد عن هذا السؤال فيقول: «ولكن الإمامة يومئذ كانت وحدها في ميدان الحكم بغير منازع ولا شريك، ولم يكتب لأحد منهم أن يحمل علم الإمامة ليناضل به علم الدولة الدنيوية، ولا أن يتحيز بعسكر يقابله عسكر، وصفة تناوئها صفة، ولا أن يصبح رمزاً للخلافة يقتن بها ولا يقتن بشيء غيرها، وكلهم إمام حيث لا اشتباه ولا التباس، وذلك هو علي بن أبي طالب كما لقبه الناس، وجرى لقبه على الألسنة، فعرفه به الطفل وهو يسمع أماديجه المنغومة في الطرقات بغير حاجة إلى تسمية أو تعريف.

ونخاصة أخرى من خواص الإمامة ينفرد بها علي ولا يجاريه فيها إمام غيره، هي اتصاله بكل مذهب من مذاهب الفرق الإسلامية منذ وجدت في صدر الإسلام. فهو منشئ هذه الفرق أو قطبها الذي تدور عليه، وندرت فرقة في الإسلام لم يكن علي معلماً لها منذ نشأتها أو لم يكن موضوعاً لها ومحوراً لمباحثها».

وزيادة على ما تقدم فالشروط التي بينها آنفاً والتي يجب أن تتوافر في الإمام كلها متوافرة في الإمام علي بن أبي طالب وفي مقدمتها تلك الخاصة التي ينفرد بها بحق وهي العلم، وسأتكلم عن هذه الميزة فيما

بعد ، وأقول هنا : إن عبد الله بن عباس كان تلميذاً للإمام ، وعرف ابن عباس بالتبحر في العلم حتى وصف بأنه « حبر الأمة وترجمان القرآن » ، ولما سئل ابن عباس : « أين علمك من علم ابن عمك ؟ » قال : كنسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط . وقال له عمر رضي الله عنه : « لا أبقاني الله بأرض لست بها يا أبا الحسن » كما قال :
لولا على لهلك عمر .

وقد قال أبو عبيدة رضي الله عنه : ارتجز الإمام على بن أبي طالب كرم الله وجهه في تسع كلمات ، قطع الأطماع عن الالتحاق بواحدة منهن . ثلاث في المناجاة ، وثلاث في العلم ، وثلاث في الأدب ؛ فأما التي في المناجاة فهي قوله : كفاني عزاً أن تكون لي رباً ، وكفي بى فخراً أن أكون لك عبداً ، أنت لي كما أحب فوفقني لما نحب . وأما التي في العلم فهي قوله : المرء مخبوء تحت لسانه فتكلموا تعرفوا ، ما ضاع امرؤ عرف قدره . وأما التي في الأدب فهي قوله : انعم على من شئت تكن أميره ، واستغن عن شئت تكن نظيره ، واحتج إلى من شئت تكن أسيره .

وروى أبو الفرج في كتاب الأغاني : أن ابن عباس سمع قصيدة لعمر بن أبي ربيعة مرة واحدة فحفظها وأعادها ، وما سمعها قط إلا تلك المرة صفحاً (أى مروراً) ثم أنشدها من آخرها إلى أولها مقلوبة ، فقال له بعضهم : ما رأيت أذكى منك قط . فقال ابن عباس : لكنني

ما رأيت قط أذكى من علي بن أبي طالب عليه السلام .
 ٢ - كما بينا نشأ الإمام علي في حجر رسول الله ، وتأدب بآدابه ،
 وتخلق بأخلاقه ، واهتدى بهداه ، واقتدى به في أقواله وأفعاله ، ولازمه
 طول حياته ، واستمع إلى الامام علي يقول : « وقد علمتم موضعي
 من رسول الله صلى الله عليه وسلم والمنزلة الخصيصة ، وضعني في حجره
 وأنا وليد يضمنني إلى صدره ، ويكتفني في فراشه ويمسني جسده -
 إلى أن قال - ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أمه ، يرفع لي في
 كل يوم من أخلاقه علماً ، ويأمرني بالافتداء به ، ولقد كان يجاور في كل
 سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري ، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير
 رسول الله صلى الله عليه وسلم وخديجة وأنا ثالثهما أرى نور الوحي والرسالة
 وأشم ريح النبوة .

وفي أسد الغابة ، بسنده عن ابن إسحاق قال : أقام رسول الله
 صلى الله عليه وسلم ينتظر الوحي بالإذن له بالهجرة إلى المدينة حتى
 إذا اجتمعت قريش فكرت بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فدعا على
 ابن أبي طالب فأمره أن يبيت على فراشه ويتسحى ببرد له أخضر
 ففعل ، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على القوم وهم على بابه .
 قال ابن إسحاق : وتتابع الناس في الهجرة وكان آخر من قدم المدينة
 من الناس ، ولم يفتن في دينه علي بن أبي طالب ، وذلك أن رسول الله
 صلى الله عليه وسلم أخرجه بمكة وأمره أن يؤدي إلى كل ذي حق حقه
 ففعل ، ثم لحق برسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفى هذا يقول أحد الشعراء :

ومواقف لك دون أحمد جاوزت بمقامك التعريف والتحيدا
فعلى الفراش يبيت ليلك والعدى تهدى إليك بوارقاً ورعودا
فرقدت مثلوج الفؤاد كأنما يهدى القراع اسمعك التغريدا
فكفيت ليلته وقمت معارضاً بالنفس لا فشلا ولا رعيدا
واستصبحوا فرأوك دون مرادهم جبلا أشم وفارساً صنديدا
رصدوا الصباح لينفقوا كثر الهدى أو ما دروا كثر الهدى مرصودا

٣- سبقه إلى الإسلام وعدم سجوده لصنم قط : سبق أن أشرنا بالتفصيل إلى أن على بن أبي طالب ولد مسلماً - ويقول ابن أبي الحديد : ما أقول فى رجل سبق الناس إلى الهدى وآمن بالله وعبده ، وكل من فى الأرض يعبد الحجر ، ويحدد الخالق ، لم يسبقه أحد إلى التوحيد إلا السابق إلى كل خير محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وذهب أكثر أهل الحديث إلى أنه عليه السلام أول الناس اتباعاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل الإجماع على أن علياً كان أول من آمن من الأحداث الذين لم يبلغوا الحلم ، وكانت السيدة خديجة رضى الله عنها أولى المؤمنات من النساء ، كما كان أبو بكر أول من آمن من الرجال ، وفى ذلك يقول أمير الشعراء :

ناجاهم بينات ربه فآمنت بنت خويلد به

فقيل فيها أسبق الإناث وفي عليّ أسبق الأحداث
وفي الرجال لأبي بكر يد بالسبق لم يبلغ مداها سيد

وعن زيد بن الأرقم أن علي بن أبي طالب أول من أسلم ، وقال
ابن إسحاق : أول من آمن بالله وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم
من الرجال علي بن أبي طالب ، وروى بسنده عن ابن عباس ، قال :
« لعلّي أربع خصال ليست لأحد غيره ، هو أول عربي وعجمي صلى
مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي كان لواؤه معه في كل
زحف ، وهو الذي صبر معه يوم فر غيره ، وهو الذي غسله وأدخله
قبره » .

ولا يكاد يكون هناك خلاف إطلاقاً في أن عليّاً أول من أسلم
بعد خديجة رضي الله عنها ، ويؤيد ذلك كل الروايات والأحاديث
التي ذكرت عن زيد بن الأرقم ، وابن إسحاق ، وابن عباس ، وسلمان
الذي يروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم : « أول هذه الأمة وروداً على
الحوض أولها إسلاماً علي بن أبي طالب » .

وابن شهاب ، وعبد الله بن محمد بن عقيل ، وقتادة ، عن أنس
ابن مالك قال : « استنبي النبي صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين وصلى
عليّ يوم الثلاثاء » .

٤ - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع خاصة أهله وعشيرته
في ابتداء الدعوة إلى الإسلام ، فعرض عليهم الإيمان واستنصرهم على

أهل الكفر والعدوان ، وضمن لهم على ذلك الخطوة في الدنيا والشرف وثواب الجنان ، فلم يجبه أحد منهم إلا على بن أبي طالب .

٥ - أقامه الرسول صلى الله عليه وسلم مقامه يوم الهجرة في أداء أماناته ورد ودائعهم وقضاء ديونه لما علم من أمانته وكفائته وشجاعته فقام بما أمر به .

٦ - المؤاخاة بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال ابن عبد البر في الاستيعاب : آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين ، ثم آخى بين المهاجرين والأنصار ، وقال في كل واحدة منهما لعل أنت آخى في الدنيا والآخرة ، وآخى بينه وبين نفسه ، وروى عن علي أنه كان يقول : « أنا عبد الله وأخو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يقولها أحد غيري إلا كذاب ، آمنت قبل الناس بسبع سنين » ، وفي ذلك من إبانة فضله على الكافة ، والدلالة على أنه لا كفء لرسول الله صلى الله عليه وسلم سواه ، وفي ذلك يقول الشاعر :

تخيرك الهادى النبي لنفسه أخاً حين آخى بينهم فلك الفخر
فهل كان مذ أخاك مثلك فيهم وأخطأ انتقاء المصطفى ، إنه الهذر

٧ - وأنه رضى الله عنه صاحب رأيه ، وعن ابن عباس أنه قال : هو صاحب لوائه في كل زحف ، ففي غزوة بدر الكبرى ، وفي غزوة حد كانت الراية ولواء المهاجرين مع علي .

٨ — أن الإمام علياً كان مؤثراً للاجتهاد معرضاً عن التقليد ، ما استغنى عنه ، فوافق الخلفاء من قبله في أمور وخالفهم في أمور ، وأبى أن ياتم بعملهم فيما يراه وما لا يراه ، وأوصى ابنه الحسن فقال : « اعلم يا بني أن أحب ما أنت آخذ به إلى من وصيتي تقوى الله والاقتصار على ما فرضه الله عليك والأخذ بما مضى عليه الأولون من آباءك والصالحون من أهل بيتك فإنهم لم يدعوا أن ينظروا إلى أنفسهم كما أنت ناظر ، وفكروا كما أنت مفكر ، فإن أبت نفسك أن تقبل ذلك بدون أن تعلم كما علموا فليكن طلبك ذلك بينهم وتعلم لا بتورط الشبهات وعاق الخصومات ، وابتدئ قبل نظرك في ذلك بالاستعانة بإهلك والرغبة إليه في توفيقك وترك كل شائبة أوبختك في شبهة أو أسلمتك إلى ضلالة ، فإن أيقنت أن قد صفا قلبك فخشع ، وتم رأيك فاجتمع ، وكان همك واحداً ، فانظر فيما فسررت لك .

٩ — الشجاعة وامتيازها فيها وتفوقه :

هو الشجاع الذي ما فرق ولا ارتاع من كتيبة ، قال : ابن أبي الحديد في شرح النهج : أما الشجاعة فإنه أنسى الناس فيها ذكر من كان قبله ، ومحا اسم من يأتي بعده ، ومقاماته في الحرب مشهورة تضرب بها الأمثال إلى يوم القيامة .

وكان لجرأته على الموت لا يهاب قرناً من الأقران بالغاً ما بلغ من الصولة ورهبة الصيت ، واجترأ وهو فتى ناشئ على عمرو بن ود فارس

الجزيرة العربية الذي كان يقوم بألف رجل عند أصحابه وعند أعدائه ، وكانت وقعة الخندق فخرج عمرو مقتعاً في الحديد ينادى جيش المسلمين ، من يبارز ؟ فصاح عليّ : أنا له يا نبي الله ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم وبه إشفاق عليه : إنه عمرو ، اجلس ، ثم عاد عمرو ينادى ألا رجل يبرز ؟ وجعل يؤنبهم قائلاً : أين جنتكم التي زعمتم أنكم داخلوها إن قتلتم ؟ أفلا تبرزون إلى رجلا ؟ فقام على مرة بعد مرة وهو يقول : أنا له يا رسول الله ، ورسول الله يقول له مرة بعد مرة : اجلس ، إنه عمرو ، وهو يجيبه وإن كان عمرًا ، حتى أذن له ففشى إليه فرحاً بهذا الإذن الممنوع كأنه الإذن بالخلاص ، ثم نظر إليه عمرو فاستصغره وأنف أن يناجزه وأقبل يسأله : من أنت ؟

قال ولم يزد : أنا علي .

قال : ابن عبد مناف ؟

قال : ابن أبي طالب .

قال : يا بن أخي من أعمامك من هو أسن . وإني أكره أن أهريق دمك .

فقال : لكني والله لا أكره أن أهريق دمك .

فغضب عمرو وأهوى إليه بسيف كان — كما قال واصفوه — كأنه شعلة نار ، واستقبل عليّ الضربة بدرقته ففقدها السيف وأصاب رأسه ، ثم

ضربه علىّ على حبل عاتقه فسقط ونهض ، وسقط ونهض ، وثار الغبار فما انجلي إلا عن عمرو صريعاً وعلى يجأر بالتكبير .

واستمع إلى أخت عمرو بن ود تقول على سبيل التأسي بعد موته :
لو كان قاتل عمرو غير قاتله بكيته أبداً ما دمت في الأبد
لكن قاتله من لا نظير له وكان يدعى أبوه بيضة البلد

وقيل إنه لما دعا معاوية إلى المبارزة ليستريح الناس من الحرب بقتل أحدهما قال له عمرو : لقد أنصفك : فقال معاوية له : ما غششتني منذ نصحتني إلا اليوم ، أنا أمرني بمبارزة أبي الحسن ، وأنت تعلم أنه الشجاع المطرق . أراك طمعت في إمارة الشام بعدى .

وفي وقعة « بدر » التي بها تمهدت قواعد الدين ، وأذل الله جبابرة المشركين . وقتل فيها رؤسائهم : كان الإمام قطب الرchy في هذه الموقعة . وكذلك كان في وقعة أحد . ويوم « حنين » ثبت مع الرسول صلى الله عليه وسلم عندما هرب عنه الناس إلى غير ذلك من غزوات الرسول .

أما بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بعدما بويع بالخلافة أيام الجمل وصفين والنهروان : فشجاعته كانت مثالية ، ففي يوم الجمل ثبت الفريقان وأشرعوا الرماح بعضهم في صدور بعض ، وعندما اشتد القتال زحف الإمام نحو الجمل بنفسه في كسيبة من المهاجرين والأنصار وحوله بنوه ثم حمل : فغاص في عسكر الجمل حتى طحن العسكر ،

ثم رجع ، وقد انحنى سيفه فأقامه بركبته فقال له أصحابه وبنوه : نحن نكفئك ، فلم يجب أحداً منهم ، ولا يرد إليهم بصره ، وظل يزأر زئير الأسد ، ثم حمل حملة ثانية وحده فدخل وسطهم يضرهم بالسيف قداماً قداماً ، والرجال تفرّ من بين يديه ، وتنحاز عنه يمنة ويسرة حتى خضب الأرض بدماء القتلى ثم رجع ، وقد انحنى سيفه فأقامه بركبته ، فاجتمع عليه أصحابه وناشدوه الله في نفسه وفي الإسلام ، فقال : « والله ما أريد بما ترون إلا وجه الله والدار الآخرة » ، ثم قال لمحمد : هكذا تصنع يابن الحنفية ، فقال الناس : من الذى يستطيع يا أمير المؤمنين ، وكان فى أوائل أيام « صفين » يسهر الليل كله إلى الصباح يعبئ الكتب ويؤمر الأمراء ، ويعقد الألوية ، وهو الذى لبس يوم صفين سلاح العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطالب ، وقتل اللخميين والحميرى الذين لم يكن فى الشام أشهر منهم بالبأس والنجدة .

١٠ - الجهاد فى سبيل الله : وهو بحق سيد المجاهدين ، ويكفى وقعة بدر الكبرى التى قتل فيها سبعون من المشركين ، قتل على نصفهم .

قال ابن أبى الحديد : أما الجهاد فى سبيل الله فعلم عند صديقه وعدوه ، وأنه سيد المجاهدين ، وهل الجهاد لأحد من الناس إلا له ، ويقول ابن عبد البر فى الاستيعاب : « أجمعوا على أنه شهد بدرأ والحديبية وسائر المشاهد ، وأنه أبلى ببدر وبأحد وبالخندق وبخير بلاء عظيماً ، وأنه أغنى فى تلك المشاهد ، وقام فيها المقام الكريم ، كان لواء رسول الله

صلى الله عليه وسلم معه ، ولما قتل مصعب بن عمير يوم أحد ، وكان اللواء بيده دفعه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عليّ .

١١ - التورع عن البغي : كانت شجاعة الإمام من الشجاعات النادرة ، ويزيدها تشريفاً وجلالاً أنها ازدانت بأجمل الصفات وهي التورع عن البغي والاستمسك بالمرءة مع الخصم قوياً أو ضعيفاً على السواء ، فما رفع يده بالسيف قط إلا وقد بسطها قبل ذلك للسلام .

فمن تورعه عن البغي مع قوته البالغة وشجاعته النادرة أنه لم يبدأ أحداً قط بقتال ، وله مندوحة عنه ، وكان يقول لابنه الحسن « لا تدعون إلى مبارزة ، فإن دعيت إليها فأجب فإن الداعي إليها باغ ، والباغي مصروع » . وعلم أن جنود الخوارج يفارقون عسكره ليحاربوه ، وقيل له : لأنهم خارجون عليك فبادرهم قبل أن يبادروك فقال : « لا أقاتلهم حتى يقاتلوني وسيفعلون » .

وعلى ما كان بينه وبين معاوية وجنوده من اللدد في العداء لم يكن ينازلهم ولا يأخذ من تارات أصحابه عندهم إلا بمقدار ما استحقوه في موقف الساعة ، فاتفق في يوم صفين أن يخرج من أصحاب معاوية رجل يسمى كرز بن الصباح الحميري ، فصاح بين الصفين : من يبارز ؟ فخرج إليه رجل من أصحاب عليّ فقتله ، ووقف عليه ونادى : من يبارز ؟ فخرج إليه آخر فقتله وألقاه على الأول ، ثم نادى : من يبارز ؟ فخرج إليه ثالث ، فصنع به صنيعه بصاحبيه ، ثم نادى

رابعة : من يبارز ؟ فأحجم الناس ، ورجع من كان في الصف الأول إلى الصف الذي يليه ، وخاف الإمام على أن يشيع الرعب بين صفوفه ، فخرج إلى ذلك الرجل المدلّ بشجاعته وبأسه ، فصرعه ثم نادى نداهه حتى أتم ثلاثة صنع بهم صنيعه بأصحابه ، ثم قال : « يأبها الناس ، إن الله عز وجل يقول : (الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص) ولولم تبدعونا ما بدأناكم » . ثم رجع إلى مكانه .

١٢ - الحلم والصفح : ويقول ابن أبي الحديد : « وأما الحلم والصفح فكان أحلم الناس عن مذنب ، وأصفحهم عن مسيء ، وقد ظهر صفة ذلك يوم الحمل حيث ظفر بمروان بن الحكم ، وكان أعدى الناس له وأشدّهم بغضاً فصفح عنه . وكان عبد الله بن الزبير يشتمه على رؤوس الأشهاد ، وكان عليه السلام يقول : « ما زال الزبير رجلاً منا أهل البيت حتى شب ابنه عبد الله » ، فظفر به يوم الحمل فأخذه أسيراً فصفح عنه . وظفر بسعيد بن العاص بعد وقعة الحمل بمكة ، وكان له عدوّاً ، فأعرض عنه ، أما إكرامه لأم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها فقد بعث معها إلى المدينة عشرين امرأة من نساء عبد القيس عممهن بالعمائم وقلدهن بالسيوف ، فلما كانت ببعض الطريق ذكرته بما لا يجوز أن يذكر به وتأففت وقالت : « هتك سري برجاله وجنده الذين وكلهم بي » فلما وصلت المدينة ألقى النساء عمائمهن وقلن لها إنما نحن نسوة . وحاربه أهل البصرة وضربوا وجهه ووجوه أولاده بالسيف

وسبوه ولعنوه ، فلما ظفر بهم رفع السيف عنهم ، ونادى مناديه :
 ألاّ يجهز على جريح ، ولا يقتل مستأسر ، ومن ألقى سلاحه فهو آمن
 ومن تحيز إلى عسكر الإمام فهو آمن . ولم يأخذ من أمتهم ، ولا سبي
 ذراريهم ، ولا غنم شيئاً من أموالهم ، ولو شاء أن يفعل كل ذلك لفعل ،
 ولكنه أبى إلا الصفح والعفو .

١٣ - العلم والفصاحة والبلاغة : إمام الفصحاء وسيد البلغاء ،
 وعن ابن عباس أنه قال : « والله لقد أعطى عليّ بن أبي طالب تسعة
 أعشار العلم ، وإيم الله لقد شارككم أو شاركهم في العشر العاشر » ،
 وكفى في ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « أنا مدينة العلم أو مدينة الحكمة
 وعليّ بابها ، فمن أراد العلم فليأتها من بابها » .

وروى أبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء بسنده عن علي بن
 أبي طالب رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا
 دار الحكمة وعليّ بابها » .

وقد أفاء الله عليه نعمة العلم والحكمة ، فكان أعلم الناس بالسنة
 وأقضاهم . عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
 لعليّ : « تختص الناس بسبع ، ولا يحاجك أحد من قريش ، أنت
 أولهم إيماناً بالله ، وأدناهم بعهد الله ، وأقومهم بأمر الله ، وأقسهم
 بالسوية ، وأعلمهم في الرعية ، وأبصرهم بالقضية ، وأعظمهم عند الله
 منزلة » .

ويقول الإمام : « أسألوني قبل أن تفقدوني ، فوالذي نفسي بيده لا تسألوني في شيء فيما بينكم وبين الساعة ، ولا عن فئة تهدي مائة ، وفضل مائة إلا أنبأتكم بناقمتها وقائلها وسائقها ومناخ ركابها ومحط رحالها ، وعن المسعودي أنه حفظ الناس عنه أربع مائة وثلاثون خطبة يوردها على البديهة ، وقال الشريف الرضي في خطبة نهج البلاغة « كان أمير المؤمنين رضي الله عنه مشرع الفصاحة وموردها ومنشأ البلاغة ومولدها ، ومنه ظهر مكنونها ، وعنه أخذت قوانينها ، وعلى أمثلته سار كل قائل خطيب وبكلامه استعان كل واعظ بليغ . . . » .

ولما قال ابن أبي مخنف لمعاوية : « جئتك من عند أعيان الناس ، قال له : ويحك ، كيف يكون أعيان الناس ، فوالله ما سن الفصاحة لقريش غيره . ويكني نهج البلاغة دلالة على أنه لا يجارى في الفصاحة ولا يبارى في البلاغة .

ويقول الإمام : « كل وعاء يضيق بما جعل فيه إلا وعاء العلم فإنه يتسع » ، قال الجاحظ في كتاب البيان والتبيين : قال علي بن أبي طالب : قيمة كل امرئ ما يحسن ، ثم قال فلو لم تقف من هذا الكتاب إلا على هذه الكلمة لوجدناها كافية شافية وعجزية مغنية ، بل لوجدناها فاضلة على الكفاية وغير مقصورة على الغاية . وقال ابن عائشة : ما أعرف كلمة بعد كلام الله ورسوله أخصر لفظاً ولا أعم نفعاً من قول عليّ « قيمة كل امرئ ما يحسن » . وفي البيان والتبيين قيل لعلي بن أبي طالب

رضى الله تعالى عنه : كم بين السماء إلى الأرض قال دعوة مستجابة ، فقالوا كم بين المشرق إلى المغرب قال مسيرة يوم للشمس .

وفي الاستيعاب بسنده عن سعيد بن المسيب : ما كان أحد من الناس يقول سلوني غير علي بن أبي طالب . وعن أبي الطفيل شهدت علياً يخطب وهو يقول : « سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم ، وسلوني عن كتاب الله فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليلاً نزلت أم بنهار أم في سهل أم في جبل » ، ولا شك أن الإمام كان عنده علم القرآن والتوراة والإنجيل ، يقول ابن أبي الحديد : روى المدائني قال خطب عليه السلام فقال : لو كسرت لي الوسادة لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم وبين أهل الفرقان بفرقانهم .

١٤ - الإمام على أشعر الصحابة :

عن الجاحظ في كتاب البيان والتبيين وفضائل بني هاشم والبلاذري في أنساب قريش أن علياً أشعر الصحابة وأفصحهم وأخطبهم وأكثبهم ، وعن تاريخ البلاذري كان أبو بكر يقول الشعر وعمر يقول الشعر وعثمان يقول الشعر وكان على أشعر الثلاثة ، ويؤيد هذا الشعبي وسعيد بن المسيب . والذي لا شك فيه أن الإمام كان ينظم الشعر ويحسن النظر فيه ، وكان نقده للشعر نقد عليم بصير يعرف اختلاف مذاهب القول واختلاف وجوه المقابلة والتفضيل على حسب المذاهب .

قال عليه السلام يوم صفين وقد بالغت في نصره همدان . ويقول
ابن أبي الحديد في شرح النهج إنه من الشعر الذي لا يشك أن قائله
الإمام :

لما رأيت الخيل تفرع بالقنصا	فوارسها حمر العيون دوامى
وأقبل رهج في السماء كأنه	نمامة دجن ملبس بقتام
ونادى ابن هند ذاك الكلاع ويحصباً	وكندة في لحم وحى جذام
فيمت همدان الذين هم هم	إذا ناب أمر جنتى وحسامى
دعوت فلبانى من القوم عصابة	فوارس من همدان غير لثام
فوارس من همدان ليسوا بعزل	غداة الوغى من شاكر وشبام
ومن أرحب الشم المطاعين بالقنا	وفهم وأحياء السبيع وسام
ومن كل حى قد أتتني فوارس	ذوو نجدات في الاقاء كرام
لهمدان أخلاق ودين يزينهم	وبأس إذا لاقوا وجد خصام

ويقول عليه السلام في ذم الناس :

المرء في زمن الإقبال كالشجرة	وحولها الناس ما دامت بها الثمرة
حتى إذا ما عرت من حملها انصرفوا	عنها عقوقاً وقد كانوا بها بره
وحاولوا قطعها من بعدما شفقوا	دهراً عليها من الأرياح والغبرة
قلت مروا أهل الأرض كلهم	إلا الأقل فليس العشر من عشرة
لا تحمدن امرأ حتى تجربه	فربما لم يوافق خُبْرُه خَبْرُه

وقال الإمام يذكر ميته على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم .
ليلة الهجرة :

وقيت بنفسي خير من وطئ الحصى ومن طاف بالبيت العتيق وبالحجر
محمد لما خاف أن يمحروا به فوقاه ربي ذو الجلال من المكر
وبت أراعيهم فني يشدونني وقد وطنت تقسى على القتل والأسر
وبات رسول الله في الغار آمناً هناك وفي حفظ الإله وفي ستر
أقام ثلاثاً ثم زمت قلائص قلائص يفرين الحصى أينما يفرى

وأورد الطبري في تاريخه ما قاله الإمام بعد رجوعه من أحد، وقد خضب
الدم يده إلى كفه ومعه ذو الفقار فتأوله فاطمة عليها السلام وقال خذي
هذا السيف فقد صدقني اليوم : وأنشأ يقول :

أفاطم هاك السيف غير ذميم فاست برعديد ولا بيلم
لعمري لقد قاتلت في حب أحمد وطاعة رب بالعباد رحيم
وسيفي يكفي كالشهاب أهزه أجذب به من عاتق وصميم
فمازلت حتى فضّ ربي جموعهم وحتى شفيينا نفس كل حليم

١٥ - معرفة القضاء والفرائض :

عن ابن مسعود : « أن أقضى أهل المدينة على بن أبي طالب » وبسنده
عنه : أعلم أهل المدينة بالفرائض على بن أبي طالب ، وعن عمر أنه
قال : « على أقضانا » . وروى أبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء
بسند عن علي : « بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن فقلت

يا رسول الله تبعنى إلى اليمن ويسألونى عن القضاء ولا علم لى به ، قال اذن ، فدنوت فضرب بيده على صدرى ثم قال : اللهم ثبت لسانه ، واهد قلبه ، فلا والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ما شككت فى قضاء بين اثنين بعده .

ودخل ضرار بن ضمرة الكنانى على معاوية . فقال : صف لى علياً ، قال اعفى . قال : لتصفته قال : أما إذ لا بد من وصفه فإنه كان والله بعيد المدى شديد القوى ، يقول فصلاً ويحكم عدلاً ، يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويأنس بالليل ووحشته ، وكان غزير الدمعة طويل الفكرة ، يقاب كفه ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما خشن ومن الطعام ما جش ، وكان غينا كأحدنا ، يديننا إذا أتينا ، ويحيينا إذا سألناه ، ويلبينا إذا دعوانا ، وينبتنا إذا استباناه ، ونحن والله مع تقريبه إيانا وقربه منا لا نكاد نكلمه هبة له ، فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم ، يعظم أهل الدين ، ويقرب المساكين ، لا يطمع القوى فى باطله ، ولا يياس الضعيف من عدله ، وأشهد لقد رأيت فى بعض مواقفه — وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه — قابضاً على لحية يتحمل تحمل السام ، وييكى بكاء الحزين ، فكأنى أسمع الآن وهو يقول : يا ربنا يا ربنا ، يتضرع إليه ثم يقول : « يا دنيا غرى غرى ، ألى تعرضت أم إلى تشوقت ؟ ! هيات هيات ! قد بتك ثلاثاً لا رجعة فيها . فعمرك قصير ، وخطرك

كبير ، وعيشك حقير ، آه آه من قلة الزاد ، وبعد السفر ، ووحشة الطريق !» .

١٦ - زهده :

قال الشريف الرضى فى مقدمة نهج البلاغة فى على رضى الله عنه :
« ومن عجائبه التى انفرد بها وأمن المشاركة فيها أن كلامه فى الزهد والمواعظ إذ تأمله المتأمل وخلع من قلبه أنه كلام مثله ، ضمن عظم قدره ، ونفذ أمره ، وأحاط بالرقاب ملكه ، لم يعترضه الشك فى أنه من كلام من لا حظ له فى غير الزهادة ، ولا شغل له بغير العبادة ، وقد قبع فى كسر بيت ، أو انقطع فى سفح جبل ، لا يسمع إلا حسه ولا يرى إلا نفسه» .

وفى أسد الغابة ، بسنده عن عمار بن ياسر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعلى بن أبى طالب : يا على ، إن الله عزو وجل قد زينك بزينة لم يتزين العباد بزينة أحب إليه منها : الزهد فى الدنيا ، فجعلك لا تنال من الدنيا شيئاً ، ولا تنال الدنيا منك شيئاً ، ووهب لك حب المساكين ورضوا بك إماماً ورضيت بهم أتباعاً ، فطوبى لمن أحببك وصدق فيك وويل لمن أبغضك وكذب عليك . وقد قال عمر بن عبد العزيز : « أزهد الناس فى الدنيا على بن أبى طالب» . وقال سفيان : « إن علياً لم يبن آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة» . وعن الحسن بن على أنه قال : « لم يترك أبى إلا ثمانمائة درهم أو

سبعمائة درهم فضلت من عطائه كان يعدها لخدام يشتريها لأهله .
وروى النضر بن منصور عن عقبة بن علقمة قال : « دخات على عليّ
عليه السلام فإذا بين يديه نبن حامض آذنتي حموضته وكسر يابسة ،
فقلت : يا أمير المؤمنين أأأكل مثل هذا ؟ فقال لي : يا أبا الجنوب ،
كان رسول الله يأكل أبيض من هذا ويلبس أخشن من هذا - وأشار
إلى ثيابه - فإن لم آخذ بما أخذ به خفت ألا ألحق به » . وكان وهو أمير
المؤمنين يأكل الشعير وتطحنه الزهراء بيديها - وكان يختم على الجراب
الذي فيه دقيق الشعير فيقول : « لا أحب أن يدخل بطني إلا ما أعلم » .

وعن عبد الله بن أبي الهذيل قال : « رأيت عليّاً خرج وعليه قميص
غليظ دارس إذا مدكم قميصه بلغ إلى الظفر ، وإذا أرساه صار إلى
نصف الساعد . وفي « أسد الغابة » بسنده عن رأي على عليّ عليه السلام
إزاراً غليظاً قال اشترته بخمسة دراهم فن أربحنى فيه درهماً بعته .
وفي « حلية الأولياء » عن الأرقم قال : رأيت عليّاً وهو يبيع سيفاً له
في السوق ، ويقول : من يشتري مني هذا السيف ؟ فوالذي فاق الحبة
لطالما كشفت به الكرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو كان
عندي ثمن إزار ما بعته .

هذا هو الزهد، ولم يعرف أحد من الخلفاء أزهد منه في ائدة دنيا
أو سبب دولة .

العدالة :

إن زهد وعمله لا يمكن استقصاؤهما ، وامتاز الحكم في عهد الإمام بالمساواة ، فالناس في الحقوق سواء لا محاباة لقوى ولا إجحاف بضعيف ، وقد عمد إلى القطاعات التي وزعت قبله على المقرين والرؤساء فانتزعها من القابضين عليها وردّها إلى بيت مال المسلمين لتوزيعها بين من يستحقونها على سة المساواة ، وقال : « والله لو وجدته قد تزوج به النساء ، ومالك به الإمام لردته » . فإن في العدل سعة ، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيّق .

ومن وصاياه لولاته : « أنصفوا الناس من أنفسكم . واصبروا لحوائجهم ، فإنهم خزان الرعية ، ولا تجسموا أحداً عن حاجته ، ولا تجبسوه عن طلبته . ولا تبيعن الناس في الخراج كسوة شتاء ولا صيف ولا دابة يعملون عليها ولا عبداً . ولا تضربن أحداً سوطاً لمكان درهم » ، ومن وصاياه في تحصيل الخراج والصدقات « امض إليهم بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم . ولا تخرج بالتحية لهم ثم تقول : عباد الله : أرسلني إليكم ولي الله وخليفته لآخذ منكم حق الله في أموالكم ، فهل لله في أموالكم حق فتؤدوه إلى وليه ؟ فإن قال قائل لا فلا تراجع . وإن أنعم لك منعم فانطلق معه من غير أن تحيفه وتوعده أو تصفه أو ترهقه . فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة . فإن كان له ماشية

أو إبل فلا تلخلها إلا بإذنه ، فإن أكثرها له ، فإذا أتيتها فلا تلخل عليها دخول متسلط عليه ، ولا عفيف به ، ولا تنفرن بهيمة ولا تفرعنها ولا تسومن صاحبها فيها ، واصدع المال صديقين ثم خيره ، فإذا اختار فلا تعرضن لما اختاره ، فلا تزال كذلك حتى يبيى ما فيه وفاء حق الله في ماله فاقبض حق الله منه ، فإن استغناك فأقله .

أما دستوره في الولاة والعمال : فيبين مما قاله للأشر النخعي : « انظر في أمور عمالك فاستعملهم اختباراً ولا توهم بحبابة وأثرة ، فإنهم جماع من شعب الجور والحياة ، وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الإسلام . فإنهم أكثر أخلاقاً وأصح أعراضاً وأقل في المطامع إسرافاً وأبلغ في عواقب الأمور نظراً ، ثم أسبغ عليهم الأرزاق فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم . وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم . وحجة عليهم إن خالفوا أمرك أو ثلموا أمانتك . ثم تفقد أعمالهم وابتعث العيون من أهل الصدق والعيون عليهم فإن تعاهدك في السر لأموهم حدوة لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرية » .

أما دستوره في تحصيل الضرائب فيتلخص فيما كان يكتبه إلى واليه : « تفقد أمر الخراج بما يصلح أهله فإن في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم . ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله . وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب

الخراج لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة ، ومن طلب الخراج بغير عمارة
أخرب البلاد وأهلك العباد ، ولم يستقم أمره إلا قليلا وإنما يؤتى خراب
الأرض من إعواز أهلها . وإنما يعوز أهلها لإسراف الرلاة على الجميع
وسوء ظهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعبر .

وقد بلغ من عظيم عدل الإمام أنه وجد مع المال الذى جاء من
أصبهان رغيفاً فقسمه سبعة أجزاء كما قسم المال وجعل على كل جزء جزءاً .
وفى أسد الغابة : بسنده عن رجل من ثقيف قال استعملنى على
ابن أبى طالب على مدرج سابور فقال : لا تضربن رجلاً سوطاً فى
جباية درهم ، ولا تبيعن لهم رزقاً ولا كسوة شتاء ولا صيف ولا دابة
يعتملون عليها ، ولا تقيمى رجلاً قائماً فى طلب درهم ، قلت : يا أمير
المؤمنين إذن أرجع إليك كما ذهبت من عندك ، قال : وإن رجعت
ويحك إنما أمرنا أن تأخذ منهم العفو يعنى الفضل . وهو أول من ساوى
بين الناس فى العطاء ، وكان يأخذ كأحدكم ، وقصته مع أخيه عقيل -
حين طلب منه زيادة فى عطائه فقال له اصبر حتى يخرج عطائى فلم
يقبل ، فأبى أن يعطيه أكثر من عطائه - معروفة ، وكذلك خبره مع
ولده الحسن حين استقرض شيئاً من غسل بيت المال ومع ابنته حين
استعارت عقداً من بيت المال .

القرآن الكريم والإمام علي

عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال : صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً من الأيام الظهر ، فسأل سائل في المسجد فلم يعطه أحد شيئاً فرفع السائل يديه إلى السماء وقال : اللهم اشهد أني سألت في مسجد نبيك محمد صلى الله عليه وسلم فلم يعطني أحد شيئاً ، وكان علي رضي الله عنه في الصلاة راکعاً فأومأ إليه بخنصره اليمنى وفيها خاتم ، فأقبل السائل فأخذ الخاتم من خنصره ، وذلك بمرأى من النبي صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد ، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفه إلى السماء وقال : اللهم إن أخى موسى سألك فقال :

(رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ، وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ، وَاخْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ، يَفْقَهُوا قَوْلِي ، وَاجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِنْ أَهْلِي ، هَارُونَ أَخِي أَشَدُّ بِهِ أَزْرِي ، وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي) . فأنزلت عليه قرآناً سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا . اللهم وإني محمد نبيك وصفيك ، اللهم فاشرح لي صدري ويسر لي أمري واجعل لي وزيراً من أهلي علياً أشدد به ظهري . قال أبو ذر رضي الله عنه : فما أتم دعاءه

حتى نزل جبريل عليه السلام من عند الله عز وجل وقال يا محمد اقرأ :
 (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ
 وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ).

ويروى أن حسان بن ثابت قال :

أبا حسن تفديك قضى ومهجتي	وكل بطيء في الهدى ومسارع
أيذهب سعي في مديحك ضائعاً	وما المدح في جنب الإله بضائع
فأنت الذي أعطيت إذ كنت راکعاً	فدلتك نفوس القوم يا خير راکع
فأنزل فيك الله خير ولاية	فتبها في محكمات الشرائع

وسبب هذا الشعر ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما ، أيضاً
 في سبب نزول هذه الآية قال : أقبل عبد الله بن سلام ومعه نفر من
 قومه ممن قد آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا يا رسول الله إن
 منازلنا بعيدة ، فلا نجد أحداً يحالسننا أو يخالطنا من دون هذا المسجد ،
 وإن قومنا لما رأونا قد حدثنا الله ورسوله ، وتركنا دينهم أظهرنا العداوة
 لنا وأقسموا ألا يخالطنا ولا يؤاكلونا ، فشق علينا ، فبينما هم يشكون إلى
 النبي صلى الله عليه وسلم ، إذ نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله
 عليه وسلم :

(إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ
 وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ) . وإذا بالموذن يؤذن بالصلاة ، صلاة

الظهر، فخرج رسول الله إلى المسجد والناس يصلون بين راعع وساجد، وقائم وقاعد، فإذا مسكين يسأل فدخل الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: أأعطاك أحد شيئاً؟ قال نعم: قال من؟ قال ذاك الرجل القائم، ذاك على بن أبي طالب! فكبر النبي صلى الله عليه وسلم عند ذلك وقرأ: (وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ). فأنشأ حسان بن ثابت ما ذكرناه، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان مع علي رضي الله عنه أربعة دراهم لا يملك غيرها فتصدق بدرهم ليلاً، وبدرهم نهاراً، وبدرهم سراً وبدرهم علانية، فأنزل الله تعالى: (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ).

وروى أنه لما نزلت (وَتَعْبَهَا أُذُنٌ وَأَعْيَةٌ). قال الرسول عليه الصلاة والسلام: سألت الله أن يجعلها أذناً يا علي، ففعل، فكان علي رضي الله عنه يقول: ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم كلاماً إلا وعيته وحفظته ولم أنسه.

وفي تفسير الطبري: حدثني عبد الله بن رستم، سمعت بريدة

يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعلى : « يا على إن الله أمرني أن أدنيك » . وذكر مثله . وروى الطبرى فى تفسيره أيضاً ، قال حدثنا على بن سهل ، حدثنا الوليد بن مسلم عن على بن حوشب ، سمعت مكحولاً يقول : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وَتَعْرِيهَا أَذُنٌ وَأَعِيَّةٌ) ، ثم التفت إلى على فقال : سألت الله أن يجعلها أذنك ، قال على : فما سمعت شيئاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنسيته .

وفى حلية الأولياء بسنده عن عمر بن على بن أبى طالب ، عن أبيه على عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يا على « إن الله أمرني أن أدنيك وأعلمك لتعى » وأنزات هذه الآية : (وَتَعْرِيهَا أَذُنٌ وَأَعِيَّةٌ) ، فأنت أذن واعية لعلى .

ونقل الإمام أبو إسحق الثعلبى رحمه الله فى تفسيره أن سفيان ابن عيينة رحمه الله تعالى سئل عن قواه تعالى :

(سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ) ، فىمن نزلت ؟ فقال للسائل ، اقد سألتني عن مسألة لم يسألني عنها أحد قبلك ، حدثني أبى عن جعفر ابن محمد ، عن آبائه رضى الله عنهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كان « بغدير خم » نادى الناس فاجتمعوا فأخذ بيد على رضى الله عنه وقال : « من كنت مولاه فعلى مولاه » ، فشاع ذلك فطار فى البلاد وبلغ ذلك الحرث بن النعمان النهري ، فأتى رسول الله صلى الله عليه

وسلم على ناقة له فأناخ راحلته ونزل عنها، وقال يا محمد: «أمرتنا عن الله عز وجل : أن نشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله فقبلنا منك ، وأمرتنا أن نصوم رمضان فقبلنا ، وأمرتنا بالحج فقبلنا ، ثم لم ترض بهذا حتى رفعت ابن عمك تفضله علينا ، فقلت: ” من كنت مولاه فعلى مولاه “ ، فهذا شيء منك أم من الله عز وجل ؟ » . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « والذي لا إله إلا هو إن هذا من الله عز وجل » فولى الحرث ابن النعمان يريد راحلته وهو يقول : « اللهم إن كان ما يقول محمد حقاً فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم » ، فما وصل إلى راحلته حتى رماه الله عز وجل بحجر سقط على هامته فخرج من دبره فقتله ، فأنزل الله عز وجل : (سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ . مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ) .

أَحَادِيثُ الرَّسُولِ عَنِ الْإِمَامِ عَلِيٍّ

أَحَادِيثُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَنِ الْإِمَامِ عَلِيٍّ — وَبِخَاصَّةٍ فِي فَضْلِهِ وَحُبِّهِ — كَثِيرَةٌ وَمُتَوَاتِرَةٌ ، وَعَنْ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي حَدِيثِهِ الْمَشْهُورِ الَّذِي سَمِيَ حَدِيثِ الْخِيْمَةِ قَالَ : رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خِيَمَ خِيْمَةً وَهُوَ يَتَكَبَّرُ عَلَى قَوْسٍ عَرَبِيَّةٍ ، وَفِي الْخِيْمَةِ عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ وَالْحُسَيْنُ وَالْحُسَيْنُ ، فَقَالَ : « يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ؛ أَنَا سَلَمٌ لِمَنْ سَالَمَ أَهْلَ الْخِيْمَةِ ، حَرْبٌ لِمَنْ حَارَبَهُمْ ، وَلِيٌّ لِمَنْ وَالَاهُمْ ، لَا يَجْهَمُ إِلَّا سَعِيدَ الْجَدِّ طَيْبِ الْمَوْلَدِ ، وَلَا يَبْغِضُهُمْ إِلَّا شَقِيٌّ الْجَدِّ رَدِيءِ الْوَلَادَةِ » .

فِي سَبْقِ إِسْلَامٍ عَلَى كَرَمِ اللَّهِ وَجْهَهُ :

بَيَّنْتَ فِيمَا سَبَقَ بِمَا لَا يَدْعُ مَجَالًا لِلشَّكِّ أَنَّ الْإِمَامَ أَوَّلَ مَنْ أُسْلِمَ ، فَتَقَدَّمَ فِي الْإِسْلَامِ مِنَ الْأُمُورِ الْوَاضِحَةِ لِمَنْ رَجَعَ إِلَى السَّنَةِ النَّبَوِيَّةِ وَإِلَى أَقْوَالِ الصَّحَابَةِ .

الْتَرْمِذِيُّ بِسَنَدِهِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ : قَالَ بُعِثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ وَصَلَّى عَلَى يَوْمِ الْثَلَاثَاءِ . وَعَنْ أَبِي رَافِعٍ مَوْلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « صَلَّيْتُ أَنَا أَوَّلَ يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ ، وَصَلَّتْ خَدِيجَةُ آخِرَ يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ ،

وصلى على "يوم الثلاثاء من الغد ، وصلينا مستخفين قبل أن يصلى معنا أحد سبع سنين وأشهرًا" .

وعن عمرو بن ميمون عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : أول من أسلم من الناس بعد خديجة على بن أبى طالب ، ويقول أحد الشعراء فى صفين :

أنت الإمام الذى نرجو بطاعته يوم النشور من الرحمن غفرانا
أوضحت من ديننا ما كان مشتبهاً جزاك ربك منا فيه إحسانا
نفسى الفداء لأولى الناس كلهم بعد النبي على الخير مولانا
أخى النبي ومولى المؤمنين معاً وأولى الناس تصديقاً وإيماناً
وابن المغازلى بسنده عن عبد الرحمن مولى أبى أيوب الأنصارى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صلت الملائكة على "وعلى على" سبع سنين ، وذلك أنه لم يصل معى أحد غيره . وعن سلمان موفق ابن أحمد الثعلبي بسنده عن عفيف الكندى ، قال : كنت تاجراً فقدمت مكة أيام الحج فترلت فى دار العباس بن عبد المطلب ، فبينما أنا والعباس إذ جاء رجل شاب استقبل الكعبة ، وجاءه غلام فقام عن يمينه ، وجاءت امرأة فقامت خلفه ، فركعوا وسجدوا ، ثم رفعوا رؤوسهم فقلت : يا عباس أمر عظيم ، فقال : أمر عظيم ، هذا محمد ابن أخى يقول إن الله بعثه رسولا وإن كنوز كسرى وقیصر ستفتح على يدي من آمن به ، وهذه زوجته خديجة بنت خويلد ، وهذا الغلام

ابن أخى على بن أبى طالب ، وعن ابن مسعود قال أول شيء علمته من أمر النبي صلى الله عليه وسلم أنى قدمت من مكة فتزلت دار العباس ابن عبد المطلب ، فبينما نحن عنده إذ أقبل رجل من باب الصفا ، ومعه صبي وامرأة ، فاستلم الحجر ثم استلمه الغلام ثم المرأة ، ثم طافوا بالبيت سبعاً ، فقلنا يا عباس إن هذا الدين لم نعرفه فيكم قال هذا ابن أخى محمد ، والمرأة زوجته خديجة بنت خويلد ، والغلام على بن أبى طالب . ما على وجه الأرض أحد يعبد الله بهذا الدين إلا هؤلاء الثلاثة .

النظر إلى وجه الإمام عبادة :

عن أبى سعيد الخدرى ، عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : النظر إلى على عبادة . وقال ابن الأثير فى النهاية فى حديث عمران بن حصين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : النظر إلى وجه على عبادة ، وقيل معناه أن علياً كان إذا برز قال الناس لا إله إلا الله ما أشرف هذا الفتى ، لا إله إلا الله ما أعلم هذا الفتى ، لا إله إلا الله ما أكرم هذا الفتى ، أى ما أتقى ، لا إله إلا الله ما أشجع هذا الفتى ، فكانت رؤيته تحملهم على كلمة التوحيد .

صاحته ودرايته :

عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن بن عوف ، يا عبد الرحمن ؛ أنتم أصحابي ، وعلى بن أبي طالب مني أنا من عليّ ، فمن قاسه بغيره فقد جفاني ، ومن جفاني آذاني ، ومن آذاني فعليه لعنة ربّي ، يا عبد الرحمن إن الله أنزل عليّ كتاباً مبيناً ، أمرني أن أبين للناس ما نزل إليهم ما خلا علي بن أبي طالب فإنه يحتاج إلى بيان لأن الله تعالى جعل فصاحته ودرايته كدرايتي ، ولو كان لحلم رجلاً لكان عليّاً ، ولو كان العقل رجلاً لكان حسناً ، ولو كان لسخاء رجلاً لكان حسيناً ، ولو كان الحسن شخصاً لكان فاطمة ل هي أعظم ، إن فاطمة ابنتي خير أهل الأرض عنصراً وشرفاً وكرماً .

وذكر اليعقوبي في الجزء الثاني من تاريخه أن النبي خرج ليلاً بعد جوعه من حجة الوداع منصرفاً إلى المدينة ، فصار إلى موضع بالقرب من الجحفة يقال له : « غدبرخم » لثماني عشرة ليلة خلت من ذي الحجة ، قام خطيباً ، وأخذ بيد علي بن أبي طالب وقال : « من كنت مولاه نعلي مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه » . وجاء في التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازي أن عمر بن الخطاب لقي عليّاً بعد ذلك فقال له : « هنيئاً لك يا ابن أبي طالب ، أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة » ، وذكر أبو تمام الطائي هذا اليوم في قصيدة قال فيها :

ويوم اللوح دوح غدیر خم أبان له الولاية لو أطيعا
ولم أر مثل ذاك اليوم يوماً ولم أر مثله حقاً أضيعا

قال الرسول : إن الإمام علياً أمير المؤمنين ، وسيد المسلمين ،
وإمام المتقين وقائد الغر المحجلين . روى أبو نعيم الأصفهاني في حلية
الأولياء بسنده ، عن أنس في حديث ، قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : « يا أنس ، أول من يدخل عليك من هذا الباب أمير المؤمنين ،
وسيد المسلمين . . . قال أنس : قلت : اللهم اجعله رجلاً من الأنصار ،
وكتمته ، إذ جاء عليّ » ، فقال : من هذا يا أنس ؟ فقلت : عليّ ،
فقام مستبشراً فاعتنقه ، ثم جعل يمسح عرق وجهه بوجهه ، ويمسح
عرق عليّ بوجهه ، قال عليّ : يا رسول الله ، لقد رأيتك صنعت شيئاً
ما صنعت بي من قبل ، قال : وما يمنعني ، وأنت تؤدي عني وتسمعهم
صوتي ، وتبين لهم ما اختلفوا فيه بعدى ؟

وروى الحاكم في المستدرک ، وصححه بسنده عن أسعد بن زرارة
قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أوحى إليّ في ثلاث :
أنه سيد المسلمين ، وإمام المتقين ، وقائد الغر المحجلين » .
وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلق عليه سيد العرب .
وعن السيدة عائشة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ادعوا لي
سيد العرب » فقلت : يا رسول الله ، أأنت سيد العرب ؟ قال :
« أنا سيد ولد آدم ، وعليّ سيد العرب » .

وعن جابر بن عبد الله سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أخذ بصبي علي بن أبي طالب ، وهو يقول : « هذا أمير البرة ، قاتل الفجرة ، منصور من نصره ، مخذول من خذله » .

النبي كان يشعر بنوع من الإخاء الإمام علي :

لا يختلف الرواة والمحدثون أن النبي صلى الله عليه وسلم طالما ردد هذه العبارة وهو ينظر إلى علي : « هذا أخي » ، وجاء في الحديث عن أبي هريرة أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو في محفل من أصحابه : « إن تنظروا إلى آدم في علمه ، ونوح في همه ، وإبراهيم في خلقه ، وموسى في مناجاته ، وعيسى في سنه ، ومحمد في هديه وعلمه ، فانظروا إلى هذا المقبل » ، فتطاول الناس بأعناقهم ، فإذا هو علي بن أبي طالب . وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب : « حبك إيمان ، وبغضك نفاق ، وأول من يدخل الجنة محبك ، وأول من يدخل النار مبغضك » . وأخرج لترمذي عن ابن عمر قال : أخى النبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه ، جاء على تدمع عيناه ، فقال : يا رسول الله آخيت بين أصحابك لم تزاخ بيني وبين أحد ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أنت أخي الدنيا والآخرة » . وفي رواية أخرى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « أنت أخي وصاحبي » . ويقول ابن عباس في ذلك : « لعلي

أربع خصال ليست لأحد غيره . هو أول عربي وعجمي صلى مع رسول الله ، وهو الذى كان لواؤه معه فى كل زحف ، وهو الذى صبر معه يوم فر منه غيره ، وهو الذى غسله وأدخله قبره^(١) . وهذه الخصال والمزايا هى التى تفرض له هذه المكانة فيختاره النبي صلى الله عليه وسلم صاحباً وأخاً .

حب الرسول للإمام :

ومهما يختلف الرواة فى تأويل الأحاديث التى ذكرناها فالذى يسعك أن تجزم به من وراء اختلافهم أن علياً كان أحب الناس إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، إن لم يكن أحبهم إليه على الإطلاق . لقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يغمر بالحب كل من أحاط به من الغرباء والأقربين ، فأى عجب أن يخص بالحب من بينهم إنساناً كان ابن عمه الذى كفله وحماه ، وكان ربيه الذى أوشك أن يتبناه ، وكان زوج ابنته العزيزة عنده ، وكان بديله فى الفراش ليلة الهجرة التى همّ المشركون فيها بقتل من يبيت فى فراشه ، وكان نصيره الذى أبلى أحسن البلاء فى جميع غزواته ، وتلميذه الذى علم من فقه الدين ما لم يعلمه ناشئاً فى سنه .

حب النبي صلى الله عليه وسلم للإمام حقيقة لا حاجة بها إلى تأويل

(١) الاستيعاب .

الرواة ، ولا إلى تفسير النصوص ، لأنها حقيقة طبيعية أو حقيقة بديهية قائمة من وراء كل خلاف ، ومما لا خلاف فيه كذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان لا يكتفى بحبه إياه ، بل كان يسره ويرضيه أن يحبه إلى الناس ، وكان يسوؤه ويغضبه أن يسمع من يكرهه ويجفوه ^(١) .

بعث الرسول عليه الصلاة والسلام الإمام في سرية ليقبض الخمس ناصطفي منه سبية ، واتفق أربعة من شهود السرية أن يبلغوا ذلك رسول الله ، وكان المسلمون إذا قدموا من سفر بدعوا بالرسول عليه الصلاة والسلام ، فسلموا عليه وأبلغوه ما عندهم ، ثم انصرفوا إلى رحالهم ، فقام أحد الأربعة ، فحدث الرسول ما رأى ، فأعرض عنه ، وظن صحابه أنه لم يسمعه ، فتناوبوا الحديث واحداً بعد واحد في معنى كلامه ، فلما فرغ الرابع من حديثه أقبل عليه رسول الله وقد تغير وجهه ، قال : « ما تريدون من على ؟ ما تريدون من على ؟ ما تريدون من على ؟ على منى وأنا منه ، وهو ولي كل مؤمن بعدى » .

وقال لأحدهم في روايات أخرى : أتبغض علياً ؟ قال : نعم ، ال : لا تبغضه ، فإن له الخمس أكثر من ذلك ، أى أكثر من السبية حتى اصطفاها . . . لا تبغضه وإن كنت تحبه فازدد له حباً .

وبعث رسول الله الإمام إلى اليمن فسأله جماعة من أتباعه أن يركبهم بل الصدقة ليريحوا إبلهم ، فأبى ، فشكوه إلى رسول الله بعد رجعتهم ،

(١) عبقرية الإمام : للمرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد .

وتولى شكايته سعد بن مالك الشهيد ، فقال : يا رسول الله ؛ ائقنا من على من الغلظة وسوء الصحبة والتضييق . . . ومضى بعد ما لقيه ، حتى إذا كان في وسط كلامه ضرب رسول الله على فخذه وهتف به : « يا سعد بن مالك بن الشهيد ، بعض قولاك لأخيك على ؛ فوالله لقد علمت أنه جيش في سبيل الله . وشكا بعض الناس مثل هذه الشكوى فقام رسول الله فيهم خطيباً يقول لهم : « أيها الناس لا تشكوا علياً ، فوالله إنه لجيش في ذات الله » .

إن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يحب علياً وبجبهه إلى الناس . سئلت السيدة عائشة : « أى الناس أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : فاطمة . فقيل من الرجال ، قالت زوجها ، إن كان ما علمت صوّماً قوَّماً » .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى على فجاء ، فقال له : « أنت سيد فى الدنيا وسيد فى الآخرة ، من أحبك فقد أحبنى ، وحبيبك حبيبى ، وحبيبى حبيب الله ، وعدوك عدوى ، وعدوى عدو الله ، طوبى لمن أحبك والويل لمن أبغضك » .

وعن عمار بن ياسر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يا على ، طوبى لمن أحبك وصدق فيك ، والويل لمن أبغضك وكذب فيك » .

وعن أنس بن مالك قال : « والله الذى لا إله إلا هو لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : عنوان صحيفة المؤمن من حب على بن أبى طالب . »

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو اجتمع الناس على حب على بن أبى طالب لما خلق الله عز وجل النار . »
وعن أبى رافع قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شأن على : « من أبغضه فقد أبغضنى ، ومن أبغضنى فقد أبغض الله ، ومن أحبه فقد أحببني ، ومن أحبني فقد أحب الله . »

ويقول الإمام عليه السلام : « مرضت فعادنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدخل وأنا مضطجع ، فأنى إلى جنبى ، فسجاني بثوبه ، فلما رآنى قد ضعفت قام إلى المسجد يصلى ، فلما قضى صلاته جاء فرفع الثوب عني ثم قال : قم يا على ، فقد برئت ، فقامت فكأنى ما اشتكيت فقال ما سألت ربى شيئاً إلا أعطانى وما سألت الله شيئاً إلا سألت لك » وهذا الحديث يبين لنا منتهى العطف وقصارى الحب .

لرسول كان بهم بتدريب الإمام وكفالاته :

كان النبي صلى الله عليه وسلم يحب علياً كما رأيت حباً عظيماً ، كما ذكرت كان أحب الناس إليه ، ويقول الأستاذ العقاد : إنه كان يهد له سبيل الخلافة فى وقت من الأوقات ، ولكن على أن تختاره الناس

طواعية وحباً ، لا أن يكون اختياره حقاً من حقوق العصبية الهاشمية ، فإنه عليه السلام قد اتقى هذه العصبية جهداً اتقائه ولم يخذ من خطر على الدين أشد من حذره أن يحسبه الناس سبيلاً إلى الملك والدولة في بني هاشم ، وقد حرم نفسه الشريفة حظوظ الدنيا ، وأقصى معظم بني هاشم عن الولاية والعمالة ، لينفى هذه الظنة ، ويدع الحكم للناس يختارون من يرضونه له بالرأى والمشئنة ، فالتزم في التمهيد للإمام وسائل ملموحة لا تتعدى التدريب والكفالة ، فأرسله في سرية إلى فذلك لغزو قبيلة بني سعد اليهودية ، وأرسله إلى اليمن للدعوة إلى الإسلام ، وأرسله إلى منى ليقرأ على الناس سورة براءة ويبين لهم حكم الدين في حج المشركين وزيارة بيت الله ، وأقامه على المدينة حين خرج المسلمون إلى غزوة تبوك .

موقف الإمام على بعد وفاة الرسول

عندما توفي الرسول صلى الله عليه وسلم ذهل الناس ، وكانوا بين مصدق ومكذب ، حتى إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه صاح فى القوم : من قال إن محمداً قد مات ضربت عنقه ، إنه يكلم ربه كما فعل أخوه موسى من قبل . أما الصديق فكان حكيماً فقد قال : « يأيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، وتلا قوله تعالى : (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ) .

أما الإمام على ومعه ليف كبير من بنى هاشم وغيرهم . فكانوا بجانب الحدث الشريف . **مجمع الشريعة**

قال المفيد : ولم يحضر دفنه أكثر الناس لما جرى بين المهاجرين والأنصار من التشاجر فى أمر الخلافة . وفات كثيراً منهم الصلاة عليه لذلك .

وفي هذا الوقت قال العباس لعلی : امدد يدك بأبيك ، فيقول الناس عم رسول الله بايع ابن عم رسول الله ، فلا يختلف عليك اثنان ، فأجابه علی ولم يرفع بصره عن الجثمان الكريم : لنا برسول الله يا عم شغل . وعكف علی تجهيز الرسول وتكفينه لا يأبه بشيء من أمور الدنيا ولا تخرجه عما هو فيه دعوة القوم ليحضر مشاورتهم في شأن الخليفة ولا فيمن يكون الخليفة .

ونترك الإمام علياً رضي الله عنه ومشغوليته في تجهيز الرسول لنرى أن الناس انقسموا بعد وفاة الرسول إلى عدة أحزاب : حزب سعد ابن عبادة رئيس الخزرج ، حزب الشيخين وهم جل المهاجرين ، حزب علیّ وهم بنو هاشم ومعهم قليل من المهاجرين منهم الزبير وكثير من الأنصار ، ويقول الطبري : إن أكثرهم أرادوا البيعة لعلی . ونضيف إلى هذه الأحزاب الثلاثة حزب عثمان من بني أمية ، وحزب سعد ابن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف من بني زهرة .

ومن رأى الإمام علی أن ترشيح سعد بن عبادة جرأ الناس . ولا يبعد أن يكون سعد رأى تصميم المهاجرين علی عدم إعطاء الحق لأهله طلبه لنفسه . ويقول ابن قتيبة في روايته : إن سعداً قال لابنه قيس : «إني لا أستطيع أن أسمع الناس كلامي لمرضى ، ولكن تلق مني قولي فأسمعهم» ، ففعل ؛ وذكر فضل الأنصار ونصرتهم الدين وإبواءهم الرسول ، وأنهم أحق الناس بهذا الأمر .

ويقول الطبرى : إنه لما بلغ أبا بكر أن الأنصار اجتمعوا فى سقيفة
بنى ساعدة ليبايعوا سعد بن عبادَةَ جاء معه عمر وأبو عبيدة بن الجراح ،
فقال الأنصار : منا أمير ومنكم أمير ، فقال أبو بكر : منا الأمراء
ومنكم الوزراء .

ويقول ابن قتيبة : فقام الحباب بن المنذر فقال : يا معشر الأنصار ،
املكوا على أيديكم فلنما الناس فى فيثكم وظلالكم ، ولن يجير مجير على
خلافكم ، ولن يصدر الناس إلا عن رأيكم ، أنتم أهل العز والثروة
والعدد والنجدة ، ولنما ينظر الناس ما تصنعون ، فلا تختلفوا ، فيفسد
عليكم رأيكم ، أنتم أهل الإيواء والنصرة ، وإليكم كانت الهجرة ، ولكم
فى السابقين الأولين مثل ما لهم ، وأنتم أصحاب الدار والإيمان من
قبلهم ، والله ما عبدوا الله علانية إلا فى بلادكم ، ولا جمعت الصلاة
إلا فى مساجدكم ، ولا دانت العرب للإسلام إلا بأسيا فكم ، فأنتم أعظم
الناس نصيباً فى هذا الأمر ، وإن أبى القوم فنا أمير ومنهم أمير .

واشتد الخلاف ، فقام أبو عبيدة وقال : يا معشر الأنصار أنتم
أول من نصر وآوى ، فلا تكونوا أول من يبدل ويغير . واشتدت المناقشة
واشترك فيها بشير بن سعد (وهو والد النعمان بن بشير) ، وعمر ،
وأبو عبيدة ، وأبو بكر . وأخيراً انتهت الأزمة كما يقول الطبرى : « فقال
أبو بكر : هذا عمر وهذا أبو عبيدة فأيهما شتم فبايعوا ، فقالا :
لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك ، أبسط يدك نبايعك . وبذلك تمت

البيعة للصديق ، وبايعة جميع المسلمين ما عدا بنى هاشم ، أو على الأحرى العباس وأولاده وعلى الذى لم يبرح دار الرسول حتى وسده مثواه الأخير ، وهو يبكى ويقول : « إن الصبر جميل إلا عنك يا رسول الله ، وإن الجزع لقبيح إلا عليك ، وإن المصاب بك للجليل وإنه قبلك وبعذك للجلل » .

وانصرف على غاضباً من الصورة التى تمت بها البيعة ، لأنه كان يعتقد أنه أحق بها من غيره ، وجاءه أبو بكر يحف به عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح ، ودعاه إلى البيعة فأبى ، وخرج الزبير بسيفه . وقال عمر : عليكم بالرجل فخذوه ، فأخذوا منه السيف . فقال له : ابن عم رسول الله وختنه على ابنته يريد أن يشق عصا المسلمين .

وقال العباس : ما أحد أولى بمقام رسول الله منه . قال على : أنا أحق بهذا الأمر منكم ، لا أبايكم وأنتم أولى بالبيعة لى . أخذتم هذا الأمر من الأنصار ، واحتججتم عليه بالقرابة من النبي صلى الله عليه وسلم ، وتأخذونه منا أهل البيت غصباً ، أأستم زعمكم للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم ، لما كان محمد منكم ، فأعطوكم المقادة ، وسلموا إليكم الإمارة ، فإذا احتج عليكم بمثل ما احتججتم على الأنصار ، نحن أولى برسول الله حياً وميتاً ، فأنصفونا إن كنتم تؤمنون وإلا فبوعوا بالظلم وأنتم تعلمون .

عمر : إنك لست متروكاً حتى تباع .

على : احلب حلباً لك شطره وشد له اليوم يردده عليك غداً .

أبو عبيدة : يا بن عم ، إنك حديث السن ، وهؤلاء مشيخة قومك ، ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور ، ولا أرى أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر منك ، وأشد احتمالاً واستطلاعاً ، فسلم لأبي بكر هذا الأمر . فإنك إن تعش ويطل بك بقاء فأنت لهذا الأمر خليف وحقيق ، في فضلك ودينك وعلمك وفهمك وسابقتك ونسبك وصهرك .

على الله الله يا معشر المهاجرين ؛ لا تخرجوا سلطان محمد في العرب من داره وقعر بيته إلى دوركم وقعور بيوتكم ، وتدفعوا أهله عن مقامه في الناس وحقه ، فو الله يا معشر المهاجرين لنحن أحق الناس به لأننا أهل البيت ونحن أحق بهذا الأمر منكم فاعتذر إليه أبو بكر بخوف الفتنة لو أخدر . ثم أشرف على الناس وقال أيها الناس ، هذا على بن أبي طالب لا بيعة لي في عنقه ، وهو بالخيار من أمره ، ألا وأنتم بالخيار جميعاً في بيعتكم . فإن رأيتم لها غيري فأنا أول من يبايعه . فلما سمع ذلك الإمام على زال ما كان قد داخله وصفت نفسه فقال : « أجل ، لا نرى غيرك امدد يدك » . فبايعه هو والنفر الذين كانوا معه .

وهناك رواية ذكرها اليعقوبي وذكرها غيره من المؤرخين . هي أن جماعة من المهاجرين والأنصار اجتمعوا مع على بن أبي طالب الإمام على

في دار فاطمة بنت رسول الله يدعون إلى مبايعته ، وبينهم خالد بن سعيد يقول : « فوالله ما في الناس أحد أولى بمقام محمد منك » ، وبلغ أبا بكر وعمر اجتماعهم بدار السيدة الزهراء ، فأتيا في جماعة حتى هجموا الدار ، وخرج على ومعه السيف . فلقيه عمر فصارعه فصصره . وكسر سيفه ، ودخلوا الدار ، فخرجت فاطمة رضى الله عنها وقالت « لتخرجن أولاً كمشفن شعري ولأعجنن إلى الله » ، فخرجوا وخرج من كان في الدار : وأقام القوم أياماً ، ثم جعل الواحد بعد الواحد يبايع ، ولم يبايع على إلا بعد وفاة فاطمة أي بعد ستة أشهر ، وقيل في رواية إنه يبايع بعد أربعين يوماً .

وروى الطبري في تاريخه قال « أتى عمر بن الخطاب منزل على وفيه طلحة والزبير ورجال من المهاجرين ، فقال والله لأحرقن عليكم أو لتخرجن إلى البيعة ، فخرج عليه الزبير مصلاً بالسيف فعر : فسقط السيف من يده فوثبوا عليه فأخذوه

وفي رواية أخرى أن عمر قال لعلي : إن لم تبايع أبا بكر لأحرقن دارك . قال علي : أو تحرقها وفيها ابنة رسول الله ؟ قال أحرقها وفيها ابنة رسول الله . وفي ذلك يقول شاعر النيل حافظ إبراهيم :

وقولة لعلي قالها عمر أكرم بسامعها أنعم بملقيها
حرق دارك لا أبقي عليك بها إن لم تبايع وبنت المصطفى فيها
ما كان غير أبي حفص يفوه بها أمام فارس عدنان وحاميها

فأذكرهما وترحم عند ذكرهما أعظم ألها في الكون تأليها

هذا هو المشهور عن موقف علي بن أبي طالب من بيعة أبي بكر ،
وينكر بعض المؤرخين هذا المشهور من تحلف بني هاشم أو غيرهم
من المهاجرين ، ويذكرون أن أبا بكر بويع بعد السقيفة بالإجماع .
ويروى الطبري حديثاً بإسناده أن سعيد بن زيد سئل : أشهدت وفاة
رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم . قيل : فتى بويع أبو بكر ،
قال : يوم مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كرهوا أن يبقوا بعض
يوم وليسوا في جماعة ، قيل : أخالف عليه أحد ؟ قال لا ، إلا مرتد
أو من قد كاد أن يرتد : لولا أن الله عز وجل ينقذهم من الأنصار ،
قيل : فهل قعد أحد من المهاجرين قال : لا ، تتابع المهاجرون على
بيعته من غير أن يدعوه .

وفي رواية أن علي بن أبي طالب كان في بيته إذ جاءه من أنبأه
أن أبا بكر قد جلس للبيعة فخرج في قميص له ما عليه إزار ولا رداء
عجلاً كراهية أن يبطئ عنها حتى يابعه ثم جلس إليه وبعث إلى ثوبه
فأثاه فتحلله ولزم مجلسه .

وهناك رواية أخرى تقول إن الصديق صعد المنبر عقب البيعة فنظر
في وجوه القوم فلم ير الزبير فدعا به فجاء ؛ فقال له : ابن عمه رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، وحواريه ، أردت أن تشق عصا المسلمين . فقال :

لا تثريب يا خليفة رسول الله ، فقام فبايعه ، ثم نظر في وجوه القوم فلم ير علياً فدعا به فجاء ، فقال له : ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه على ابنته ، أردت أن تشق عصا المسلمين . فقال : لا تثريب يا خليفة رسول الله ، فقام فبايعه .

ورواية أخرى أنه بعد وفاة السيدة الزهراء بستة أشهر أرسل الإمام إلى أبي بكر أن ائتنا ولا يأتنا معك أحد ، وتلقاه وعنده بنو هاشم فقال : « إنه لم يمنعنا من أن نبايعك يا أبا بكر إنكار افضيلتك ، ولا نفاسة عليك بخير ساقه الله إليك ، ولكننا كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقاً فاستبددتم به علينا » .

والذي لا شك فيه أن الإمام كان يرى أنه أحق بالخلافة من سابقه ، وأنه لم يزل مدفوعاً عن حقه هذا منذ انتقل النبي عليه السلام إلى الرفيق الأعلى .

ومع هذا اليقين الراسخ عنده في حقه وحق غيره نرجع إلى سيرته وأحاديثه فنرى ولا ريب أنها أقل ما تشعر به النفس الإنسانية في هذه الحالة من النفرة ، والذمة ، ولا نجد في خطبه ومساجلاته التي ذكر فيها أبو بكر وعمر وعثمان كلمة تستغرب من مثله أو يتجاوز بها حد الحجة التي تنهض بحقه ، بل الغريب أنه لزم هذا الحد ولم يجاوزه إلى جمحة غضب تفلت معها بوادر اللسان ، ولو جاوزه لكان عاذروه أصدق من لائميهِ .

وقد أعان الخلفاء الثلاثة برأيه وعمله ، وجاملهم مجاملة كريمة بمسلكه ومقاله ، ولم يبد منه قط ما ينم على كراهية وضغن مكتوم ، ولكنه كان يأنف أن ينكر هذه الكراهية إذا رى بها كما يأنف العزيز الكريم ، وفي ذلك يقول لمعاوية : « ذكرت لإبطائي عن الخلفاء وحسدى إياهم والبغى عليهم ، فأما البغى فعاذ الله أن يكون ، وأما الكراهة لهم فوالله ما أعتذر للناس من ذلك » .

وأولى أن يقال إن دلائل وفاته في حياتهم وبعد ذهابهم كانت أظهر من دلائل جفائه ، فإنه احتضن ابن أبي بكر محمداً أو كفله بالرعاية ، ورشحه للولاية حتى حسب عليه ، وانطلقت الألسنة بانتقاده من أجله ، وقد سمي ثلاثة من أبنائه بأسماء الخلفاء الذين سبقوه ، وهم أبو بكر وعمر وعثمان .

بقى أن نقول إن بعض المؤرخين قد أحصى على الإمام أن الخلافة قد تأخرت نيفاً وعشرين سنة ، فلم يخلف النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يخلف أبا بكر وعمر . ويسارع العلامة الأستاذ عباس العقاد في الإجابة عن هذا بأن نرجع إلى العوائق التي حالت بينه وبين الخلافة قبل وصولها إليه ، لنعلم منها العائق الذي كان في أيدي الحوادث والعائق الذي كان في يديه أو كانت له قدرة معقولة عليه .

فكما رأيت أن الإمام أنكر لإجحافاً أصابه في تخطيه بالبيعة إلى غيره بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأنه كان يرى أن قرابته

من النبي مزية ترشحه للخلافة بعده ، لأنها فرع من النبوة على اعتقاده ،
وما لا شك فيه أن شعوره هذا طبعى فى النفس الإنسانية كيفما كان
حظها من الزهد والقناعة ، لأن تخطيه مع هذه المزية التى ترشحه
للبيعة ، يشبه أن يكون قدحاً فى مزاياه الأخرى من علم وشجاعة ،
وسابقة جهاد ، وعفة عن المطامع ، أو يشبه أن يكون كراهة له وممالأة
على الغض من قدره ، ولم يزل من غرائز النفوس أن يسوءها القدح
فيها ، والخط من مزاياها ، ومواجهتها بالنفرة والكراهة ، إلا أن الخلافة
الإسلامية مسألة عالمية لا توزن بميزان واحد ، ولا يؤتم فيها برأى واحد
ولا بحق واحد ، وقد يضحى فى سبيلها بالعظيم والعظماء الكثيرين
إذا تعارضت الحقوق وتشعبت الآراء ، ويشاء القدر أن تكون المزية
الأولى فى ميزان على هى العائق الأول فى سائر الموازين ، ومنها ميزان
النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد كان عليه السلام يأبى أن يثير العصبية
فى قريش وفى القبائل العربية عامة ، لعلمه بخطر هذه العصبية على
الدعوة الجديدة ، وكراهته أن يصور الإسلام للعرب كأنه سيادة هاشمية
تتوارثها عنه عصابة هاشم دون العصب من سائر العرب والمسلمين ،
وقد رضى فى سبيل هذا المقصد الحكيم أن يجعل بيت أبى سفيان صنواً
للكعبة فى أمان اللاجئين إليه ، وأصهر إلى أبى سفيان ، وزدب ابنه
معاوية للكتابة له بين النخبة المختارة من كتابيه ، وربما حسن لديه
أن تؤول الخلافة إلى على بعده إذا شاء المسلمون ذلك ، ولكن على

أن تكون خلافته اختياراً مرضياً ، كاختيار غيره من أنصاره ، وأصحابه ، ويستوى منهم القريب والبعيد . وقد بينت ذلك سابقاً .

أما العائق الثانى فىرى بعض المؤرخين أن قريشاً كانت تحقد على الإمام وتنحيه عن الخلافة لعله أخرى تقترن بها العصبية التى أوقعت التنافس بين بيوتها وبنى هاشم ، فقد بطش الإمام بنفر من جلة البيوت القرشية فى حروب المسلمين والمشركين ، وقتل من أعلام بنى أمية وحدهم عتبة بن ربيعة جد معاوية^(١) ، والوليد بن عتبة خاله ، وحنظلة أخاه ، وجميعهم من قتلاه فى يوم بدر عدا من قتلهم فى الوقائع والغزوات الأخرى ، فحفظ أقاربهم له هذه الترات بعد دخولهم فى الإسلام ، وزادهم حقدأ عليه أنهم لا يملكون الثأر منه لقتلهم من الكفار ، وكانت حاله بعد تلك المدة كما قال ابن أبى الحديد : « كأنها حالة لو أفضت الخلافة إليه يوم وفاة ابن عمه من إظهار ما فى النفوس ، وهيجان ما فى القلوب ، حتى الأخلاف من قريش والأحداث والفتيان الذين لم يشهدوا وقائعه وفتكاته فى أسلافهم وآبائهم ، فعلوا به ما لو كانت الأسلاف أحياء لقصرت عن فعله » .

وقد علم الإمام هذا من قريش عندما يشس من مودتها وابتلى بالصريح

(١) وفى ذلك قال الإمام لمعاوية : « وعندى السيف الذى أعضضت به أخاك وخالك

وجدك يوم بدر » . وقيل إن الإمام قتل بيدر ٣٥ رجلا من المشركين ، ومنهم العاص بن سعيد بن العاص الأمرى .

والدخيل من كيدها فقال : « مالى ولقريش ؟ أما والله لقد قتلهم كافرين ولا قتلهم مفترين ، والله لأبقرن الباطل حتى يظهر الحق من خاصرته ، فقل لقريش فلتضحضج ضجيجها » .

أما الذين سبقوا الإمام إلى الخلافة فهم : أبو بكر وعمر وعثمان ، وهم من شيوخ الصحابة ، فإذا خرجت العصبية الهاشمية من مجال الترجيح كانوا هم أقرب الناس إلى أن يختارهم المسلمون ، وذلك لاسن ، فعند وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت سن الإمام لا تتجاوز الثلاثين ، وإن كان فارق السن قد تقارب بعد موت الفاروق ، فقد بلغ الإمام الخامسة والأربعين ، ولكن ما كاد الإمام يبلغ هذه السن حتى بدأت المطامع الدنيوية تزداد ، واعتقد الطامعون أن في لين عثمان بعض الأمل وفضلوا هذا على شدة الإمام ، وعسر حسابه ، وزيادة على ذلك بقيت الجفوة بينه وبين قریش على حالها ، لم يكفكف منها تقادم العهد ، كما قال ابن أبي الحديد .

هذه هي العوائق التي صادفته بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهل كان الإمام مستطيعاً أن يخلف أحداً بعد وفاة الرسول بعمل من جهده وسعى من تديره ، فأعياء السعى والتدبير ، فلم يكن الإمام مسئولاً عن نظرة العصبية التي نظرت بها قریش إلى السيادة الهاشمية ، كذلك هو غير مسئول عن سنة التي تأخرت به عن الوصول إلى الخلافة ، ولو كان في زماننا هذا لكانت عقبة السن ميزة تؤهله لتولى الخلافة .

بيعة الإمام علي

في أواخر عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه ،
وعندما ساءت الحالة ، جمع الخليفة بعض وزرائه للتشاور في إصلاح
الحال ، ولم يكن الإمام على رضى الله عنه بين المدعوين ، بل كان
المدعوون إلى الاجتماع من مخالفيه وهم : معاوية وعمرو بن العاص
وعبد الله بن أبي سرح وعبد الله بن عامر ، وهم الولاة الذين شكاهم
على وجمهرة الصحابة ، قال لهم الخليفة الثالث : « إن لكل امرئ
وزراء ونصحاء ، وإنكم وزرائي ونصحاؤى وأهل ثقتى ، وقد صنع
الناس ما قد رأيتم ، وطلبوا إلى أن أعزل عمالى ، وأن أرجع عن جميع
ما يكرهون إلى ما يحبون ، فاجتهدوا رأيكم وأشيروا على » .

وكان رأيهم جميعاً رأياً فيه الغرض والمصلحة الشخصية . ولننظر
إلى المحاورة التى دارت ، وإلى التناقض فى كلام عمرو بن العاص
كنموذج لما كان يجرى فى هذا الاجتماع .

قال عمرو بن العاص وهو بين السخط على ولاية فاتها ، والطمع
فى ولاية يرجوها : « أرى أنك قد ركبت الناس بما يكرهون ، فاعتزم

أن تعدل ، فإن أبيت فاعتزم أن تعتزل ، فإن أبيت فاعتزم عزماً
وامض قدماً .

ثم اسمع إلى قوله بعد أن تفرق المجتمعون وانفرد بالخليفة وحده ،
وقال : « والله يا أمير المؤمنين لأنت أعز على من ذلك ، ولكني علمت
أنه سيبلغ الناس قول كل رجل منا فأردت أن يبلغهم قول فيثقوا . ،
فأقررت إليك خيراً ، وأدفع عنك شراً . . » .

هذا هو جو الاجتماع الذي عقد عند الخليفة ، وهؤلاء هم الوزراء ،
ومن ورائهم مروان بن الحكم ، وهو كفيل بأن يمنع كل ناصح أمين
عن الخليفة ، وفي مقدمتهم الإمام على رضى الله عنه .

وتطورت الحالة من سيئ إلى أسوأ ، وكانت ثورة ، وكان الثوار
قد وفدوا إلى المدينة المنورة من مصر والكوفة والبصرة ، وبلغ السيل
الزبي ، كما قال عثمان رضى الله عنه ، فكتب إلى على يذكر له ذلك
ويقول : « إن أمر الناس ارتفع في شأني فوق قدره ، وزعموا أنهم لا
يرجعون دون دمي ، طمع في من لا يدفع عن نفسه .

فإن كنت مأكولاً فكُن خيراً كلى وإلا فأدركني ولمسا أمزق »

وانتهت الثورة على الخليفة الثالث رضى الله عنه بمقتله ، ولم يرجعه
الثوار ، وحاصروه في داره أربعين يوماً ، ولن نتعرض في هذه العجالة
إلى الأسباب التي أدت إلى قتله ، ولكن الثوار لم يذكروا له أياديهم البيضاء

على الإسلام والمسلمين ، ولم يذكروا له أن جيوشه صانت هيبة الدولة الإسلامية بعد مقتل الفاروق عمر ، ولم يذكروا له أنه جمع المصحف الشريف على ترتيبه الحالي .

وعندما نقل الخبر إلى المسجد ، وفيه كان على جالساً في نحو عشرة من المصلحين راعه منظر القادم وسأله : ويحك ! ما وراءك ؟ قال : والله لقد فرغ من الرجل ، فصاح به : تباً لكم آخر الدهر ! وأسرع إلى دار الخليفة المقتول فلطم الحسن وضرب الحسين وشتم محمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير وجعل يسأل ولديه : كيف قتل أمير المؤمنين وأنما على الباب ؟ فأجاب طلحة : لا تضرب يا أبا الحسن ولا تشتم ولا تلعن ، لو دفع مروان ما قتل ، ولكنها الفتنة ، وكان من رأى الإمام على أن يقاتل دفاعاً عن الخليفة المحصور . واستأذن أمير المؤمنين عثمان في القتال ولكنه رفض خشية أن تقوم بين المسلمين حرب أهلية ، فآثر أن يضحى بنفسه ولا يكون سبباً في حرب شعواء . واجتمع المهاجرون والأنصار ، ومعهم الثوار وبقية الجماهير ، ومن بينهم طلحة والزبير ، فهرعوا إلى الإمام على وهو معتزل في داره ، فأحاطوا به من كل جانب ، وقالوا له : « يا أبا الحسن إن هذا الرجل قد قتل ، ولا بد للناس من إمام . ولا نجد اليوم أحداً أحق بهذا الأمر منك ، لا أقدم سابقة ، ولا أقرب قرابة من رسول الله ، فقال الإمام : لا حاجة لي في أمركم ، فن اخترتم رضيت به ، ولا تريدوني ، فإني لكم وزيراً خير لكم مني

أميراً : فقالوا : والله لا نعلم أحداً أحق بها منك ، وما نختار غيرك . فقال الإمام : دعوني والتمسوا غيري . ثم أعرب لهم عن السر في توقفه في قبول الخلافة قائلاً : « أيها الناس ؛ إنا مستقبلون أمراً له وجوه وله ألوان لا تقوم به القلوب ولا تثبت عليه العقول » . وقال أيضاً : « إني إن أجبتمكم ركبت بكم ما أعلم ، وإن تركتموني فإنما أنا كأحدكم ، ألا وإني من أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه » . ويصف أمير المؤمنين على ابن أبي طالب بإصرار المجتمعين على بيعته وإقبالهم عليه بقوله « فما راعني إلا والناس كعرف الضبع ^(١) ينثالون على من كل جانب . حتى لقد وطئ الحسنان وشق عطفای ^(٢) مجتمعين حول كربيضة الغنم ^(٣) »

وأخيراً قال لهم : « إن بيعتي لا تكون سرّاً ، ولكن اثتوا إلى المسجد ، فمن شاء أن يبايعني يبايعني » . وخرج إلى المسجد فبايعه الناس ، وكان أول من بايعه طلحة بن عبد الله ، فنظر إليه رجل يعتاف يقال له حبيب بن ذؤيب فقال : « إنا لله وإنا إليه راجعون ! أول يد بايعت يد شلاء ، لا يتم هذا الأمر » . وسرعان ما نكث بها العهد ، ثم الزبير ، ثم بقية الناس من المهاجرين والأنصار

(١) عرف الضبع : الشعر الكثير الذي يكون على عتق الضبع ، يضرب به المثل في الكثرة والازدحام .

(٢) شق عطفای : المراد به خدش جانبيه من كثرة زحام الناس عليه من أجل البيعة .

(٣) ربيعة الغنم الطائفة الرابضة من الغنم .

والرواة مختلفون في بيعة الإمام بعد قتل الخليفة ، فقوم يقولون إن علياً ببيع إثرت قتل عثمان مباشرة ، وقيل إن المدينة ظلت أياماً وليس للناس فيها خليفة . وإنما يدبر أمورهم فيها الغافق بن حرب ، أحد زعماء الثورة ، على أنه قد تمت البيعة للإمام في المدينة بعد مقتل عثمان بخمسة أيام في رواية . وبثانية أيام في روايات أخرى .

وقد عمت المسرة جميع المسلمين ، وقد وصف الإمام مدى سرور الناس ببيعته بقوله « وبلغ من سرور الناس ببيعتهم إياي أن ابتهج بها الصغير ، وهج إليها الكبير . وتحامل نحوها العليل ، وحسرت إليها الكعاب » .

والخلاصة أن البيعة جاءت إلى أمير المؤمنين منقاداً راغمة ، ولم يكن غيره يصلح لها . ولذلك كان كرم الله وجهه صادقاً كل الصدق حين قال : « إن العامة لم تبايعني لسلطان غالب ولا لعرض حاضر » . ومن العجيب أن يتهم معاوية الإمام علياً بقتل عثمان رضي الله عنه وقد بذل كل جهد مستطاع في نصرته وحمايته ، حتى إنه عهد إلى ولديه الحسن والحسين أن يقفوا مدافعين عنه بسيفهما مع أنه كان يرضن بهما خشية أن ينقطع بموتهما نسل رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأرض ، ولم يحرك معاوية ساكناً في نصرة عثمان عليه السلام ، وكان معاوية متمكناً في ولايته بالمال والرجال ، وكان حاضراً الاجتماع الذي عقده أمير المؤمنين عثمان من وزرائه ومستشاريه للتفكير في طلب الثوار .

حروب الإمام علي

المأسة الأولى

حرب الجمل :

جاء في شرح النهج أنه لما قتل سيدنا عثمان رضى الله عنه كانت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها بمكة ، ووصلها خبر قتله وهى بسرف ، فلم تشك فى أن طلحة هو صاحب الأمر ، وقالت : « بعداً لعثمان وسحقاً ! إيه ذا الأصبع ! إيه أبا شبل ! إيه يا بن عم ! لكأنى أنظر إلى أصبعه وهو يبائع له ، حشوا الإبل ودعدها » .

وفى قول آخر أن السيدة أم المؤمنين لما بلغها قتل الخليفة وهى بسكة أقبلت مسرعة وهى تقول ! إيه ذا الأصبع ! الله أبوك ! أما لإنهم وجدوا طلحة لها كفتاً . فلما انتهت إلى سرف استقبلها عبيد بن أبى سلمة اللبى ، فقالت له : ما عندك ؟ قال : قتل عثمان ، قالت : ثم ماذا ؟ قال : ثم حارت بهم الأمور إلى خير محار ، بايعوا علياً . فقالت : لوددت أن السماء انطبقت على الأرض إن تم هذا ، ويحك ! انظر ماذا تقول ، قال : هو ما قلت لك يا أم المؤمنين ، قيل : فولولت . فقال لها : ما شأنك يا أم المؤمنين ، والله ما أعرف بين لابتيها أحداً أولى بها منه ،

ولا أحق ، ولا أرى له نظيراً في جميع حالاته ، فلماذا تكرهين ولايته ؟ قال : فما ردت على جواباً .

ويقول الطبري فيما رواه بسنده وذكره ابن الأثير أيضاً : « فلما كانت أم المؤمنين بسرف لقيها رجل من أخوالها من بني ليث ، يقال له عبيد بن أبي سلمة ، فسألته ، فقال : قتل عثمان وبقوا ثمانياً قالت : ثم صنعوا ماذا ؟ قال أخذها أهل المدينة بالاجتماع ، فجازت بهم الأمور إلى خير مجاز ، اجتمعوا على بيعة عليّ ، فقالت : ليت هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك . ردوني ردوني . فانصرفت إلى مكة وهي تقول : قتل والله عثمان مظلوماً ، والله لأطلبن بدمه .

فقال لها : ولم والله ؟ إن أول من أمال حرفه لأنت ، ولقد كنت تقولين اقتلوا نعثلاً فقد كفر ! قالت : إنهم استتابوه ثم قتلوه ، وقد قلت وقالوا ، وقولي الأخير خير من قولي الأول . وقيل إن ابن أم كلاب قال :

فمنك البداء ومنك الغير	ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الإمام	وقلت لنا إنه قد كفر
فهبنا أطعناك في قتله	وقاتلة عندنا من أمر
ولم يسقط السقف من فوقنا	ولم تنكسف شمسنا والقمر
وقد بايع الناس ذا نذر	يزيل الشبا ويقيم الصعر
ويلبس للحرب أثوابها	وما من وفي مثل من قد غدر

ودخلت مكة وقصدت الحجر فسترت فيه ، فاجتمع الناس حولها ،

فقالت :

« أيها الناس ، إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة ، اجتمعوا على هذا الرجل المتقول ظملاً بالأمس ، ونقموا عليه استعمال من حدثت منه ، وقد استعمله أمثالم قبله . ومواضع من الحمى حماها لهم فتابعهم ونزع لهم عنها فلما لم يجدوا حجة ولا عذراً بادوا بالعلوان فسفكوا الدم الحرام ، واستحلوا البلد الحرام والشهر الحرام وأخذوا المال الحرام ، والله لأصبع من عثمان خير من طباق الأرض أمثالم ، والله لو أن الذي اعتدوا به عليه كان ذنباً لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه أو الثوب من درنه ، إذ ماصوه كما يماص الثوب بالماء » .

فقال عبد الله بن عامر الحضرمي - وكان عامل عثمان على مكة - هأنذا أول طالب . فكان أول مجيب ، وتبعه بنو أمية على ذلك . وروى الطبري عن عبيد بن عمر القرشي قال : قدم عليها في مكة رجل يقال له أخضر ، فقالت ما صنع الناس ؟ فقال قتل عثمان المصريين ! قالت : إنا لله وإنا إليه راجعون . أيقتل قوماً جاءوا يطلبون الحق وينكرون الظلم ، والله لا نرضى بهذا .

وطلب طلحة والزبير من على أن يوليهم المصريين البصرة والكوفة ، فقال : بل تقيمان معي ، فإني لا أستغني عن رأيكما ، وقيل استشار ابن عباس فلم يشر به ، قال ابن أبي الحديد : فاستأذناه في العمرة ، فقال لهما : ما العمرة تريدان ، وإنما تريدان الغدرة ونكت البيعة ،

فحلفا بالله ما الخلف عليه ولا نكث البيعة يريدان ، وما رأيهما غير العمرة ؛ قال : فأعيدا البيعة لى ثانية . فأعادها بأشد ما يكون من الإيمان والمواثيق ، فأذن لهما ، فلما خرجا قال : والله لا ترونها إلا فى فتنه يقتلان فيها ! قالوا : يا أمير المؤمنين فربردهما عليك . قال ليقضى الله أمراً كان مفعولاً .

وقدم طلحة والزبير من المدينة ، فلقيا عائشة فقالت : ما وراءكما ؟ نقلا : إنا تحملنا هرباً من المدينة من غوغاء وأعراب ، وفارقنا قوماً حيارى لا يعرفون حقاً ولا ينكرون باطلاً ، ولا يمنعون أنفسهم ، فأمرتهم عائشة بالخروج إلى المدينة ، فقالوا : نأتى الشام ، فقال ابن عامر ندكفاكم الشام معاوية ، فأتوا البصرة ، فإن لى بها صنائع ولهم فى طلحة هوى .

وعن المفيد فى كتاب الاختصاص « لما صممت عائشة على الخروج إلى البصرة أتت أم سلمة ، وكانت بمكة ، فقالت : يا بنى بكر ، كنت كبيرة أمهات المؤمنين ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قمأ فى بيتك ، وكان يقسم لنا فى بيتك ، وكان ينزل عليه الوحي فى بيتك... لقد زرتنى وما كنت زواره... قالت : إن ابنى وابن أختى (عبد الله بن الزبير وأمه أسماء بنت أبى بكر) أخبرانى أن الرجل قتل مظلوماً ، وأن بالبصرة

مائة ألف سيف يطاوعون ، فهل لك أن أخرج أنا وأنت لعل الله يصلح بنا بين فتيين متناجزتين ، أو قالت متناحرتين ؟

فقالت أم سلمة : لو ذكرتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم خمساً في علي لنهشت بها نهش الرقشاء المطرقة ذات الحجب (الحجب) ، أتذكرين إذ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرع بين نسائه إذا أراد سفرأ ، فأقرع بينهن ، فخرج سهمى وسهمك ، فبينما نحن معه ، وهو هابط من قديد ومعه علي يتحدث ، فذهبت لتهمجي عليه ، فقلت لك : رسول الله معه ابن عمه ، ولعل له إليه حاجة ، فعصيتني ، ورجعت باكية ، فسألتك ، فقلت : إنك هجمت عليهما ، فقلت له : يا علي إنما لي من رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم من تسعة أيام ، وقد شغلته عني ، فأخبرتنى أنه قال لك : أتبغضينه ؟ فإي بغيضه أحد من أهلي ولا من أمتي إلا خرج من الإيمان ! أتذكرين هذا يا عائشة ؟ قالت : نعم ، قالت : ويوم أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم سفرأ وأنا أحش له حشيشأ ، فقال « ليت شعري ! أيتكن صاحبة الحمل الأدب ^(١) ، تنبجها كلاب الحوآب ؟ » ، فرفعت يدي من الحشيش ، وقلت : أعوذ بالله أن أكونها فقال : « والله لا بد لإحداكن أن تكونها اتقى الله يا حميراء أن تكونيها » . أتذكرين هذا يا عائشة ؟ !

(١) الأدب : الكثير وبر الوجه . وفك الإدغام لمناسبة الحوآب .

قالت نعم .

قالت : ويوم تبدلنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلبست ثيابي ، ولبست ثيابك ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس إلى جنبك ، فقال : « أتظنين يا حميراء أني لا أعرفك ؟ ! أما إن لآمتي منك يوماً مرّاً ، أو يوماً أحمر » . أتذكرين هذا يا عائشة ؟ قالت : نعم .

قالت : ويوم كنت أنا وأنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء أبوك وصاحبه يستأذنان فدخلنا الحدر ، فقالا : « يا رسول الله ، إنا لا ندرى قدر مقامك فينا ، فلو جعلت لنا إنساناً نأتيه بعدك » .

قال : أما إنني أعرف مكانه ، وأعلم موضعه ، ولو أخبرتكم به لتفرقتم عنه كما تفرقت بنو إسرائيل عن عيسى بن مريم .

فلما خرجا خرجت إليه أنا وأنت ، وكنت جريئة عليه ، فقلت : من كنت جاعلاً لهم ؟ فقال : خاصف النعل . وكان علي بن أبي طالب يصلح نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تحرقت ، ويغسل ثوبه إذا اتسخ ، فقلت : ما أرى إلا عليّاً . فقال : هو ذاك أتذكرين هذا يا عائشة ؟ قالت نعم . ما أقبلني لوعظك ، وأسمعني لقولك ! فإن أخرجني غير حرج ، وإن أقعدني غير بأس .

فخرج رسولها فنأدى في الناس : من أراد أن يخرج فإن آمن المؤمنين

غير خارجة . فدخل عليها عبد الله بن الزبير فنفت في أذنها ، وقتلها في الذروة والغارب فخرج رسولها ينادى : من أراد أن يسير فليسر فإن أم المؤمنين خارجة ، فلما كان من ندمها أنشأت أم سلمة تقول^(١) :
لو كان معتصماً من زلة أحد كانت لعائشة الرجي على الناس
كم سنة لرسول الله ذاكراً وتلو آى من القرآن مدراس
قد يتزع الله من قوم عقولهم حتى يكون الذى يقضى على الناس
فيرحم الله أم المؤمنين لقد كادت تبدل إيحاشاً بإيناس
فقال لها عائشة : « شمتنى يا أخت » .

فقال لها أم سلمة : « ولكن الفتنة إذا أقبلت غطت على البصيرة ، وإذا أدبرت أبصرها العاقل والجاهل »^(٢) .

وطلبوا من حفصة المسير معهم إلى البصرة فأجابتهم ، فنعها أخوها عبد الله بن عمر ، وجهزهم يعلى بن أمية بستائة بغير وستائة ألف درهم كانت معه ، وجهزهم ابن عامر بمال كبير .

ويقول ابن الأثير :

وناد مناديه أن أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البصرة ، فن

(١) روى الطبري في الاحتجاج محاورة أم سلمة مع أم المؤمنين بطريق آخر ، كما أورد الصادق عليه السلام الأبيات بتفاوت .

(٢) أورد ابن أبي الحديد في شرح النهج هذه المحاورة .

أراد إعزاز الإسلام وقتال المحابين والطلب بثأر عثمان ، وليس له مركب وجهاز فليات ، فحملوا ستمائة على ستمائة بعير . وأعطى يعلى بن أمية عائشة جملاً اسمه عسكرا اشتراه بثمانين ديناراً فركبته ، وساروا في ستمائة ، وقيل تسعمائة ، وقيل ألف من أهل المدينة ومكة ، ولحقهم الناس ، فكانوا في ثلاثة آلاف رجل ، ومعهم أبان والوليد ابنا عثمان ومروان ابن الحكم وسائر بني أمية . ويقول الطبرى :

وأمرت على الصلاة عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد ، فكان يصلى بهم في الطريق وبالبصرة حتى قتل . قال : فركت الطريق ليلة ، ثم أتوا البصرة في عام خصيب وتمثلت :

دعى بلاد جموع الظلم إذ صلحت فيها المياه وسيرى سير مذعور
نخيري الثبت فارعى ثم ظاهرة وبطن واد من الضمائر ممطور

وروى الطبرى بسنده عن المغيرة بن الأخنس ، قال : لقي سعيد بن العاص مروان بن الحكم وأصحابه بذات عرق ، فقال : أين ذهبون وثأركم على أعجاز الإبل ؟ قال ابن الأثير : يعنى عائشة بطلحة والزبير . اقتلهم ثم ارجعوا إلى منازلهم ، لا تقتلوا أنفسكم ، الوا : بل نسير فلعلنا نقتل قتلة عثمان جميعاً . وإلى ذلك يشير مهباز :

وللقتيل يلزمون دمه وفيهم القاتل غير من قتل

فخلا سعيد بطلحة والزبير فقال : إن ظفرتما فلمن تجعلان الأمر ؟
الا : لأحدنا ، أينما اختاره الناس ، قال : بل اجعلوه لولد عثمان ،

فلأنكم خرجتم تطلبون بدمه ، قالوا : ندع شيوخ المهاجرين ونجعلها لأبنائهم ، قال : فلا أراني أسعى لأخرجها من بني عبد مناف ، فرجع ورجع معه جماعة . يقول الطبري : وتبعها أمهات المؤمنين إلى ذات عرق ، فبكوا على الإسلام ، فلم ير يوم كان أكثر باكيةً وباكية من ذلك اليوم ، فكان يسمى يوم النحيب .

وفي المفيد : أنه لما بلغ علياً عليه السلام نكث طلحة والزبير بيعته ، واجتماعهما مع عائشة على التآليب عليه ، خطب بالمدينة فقال : « أما بعد فإن الله بعث محمداً للناس كافة ، وجعله رحمة للعالمين ، فصعد بما أمر به ، وبلغ رسالات ربه ، فلم به الصدد ، ورتق به الفتق ، وآمن به السبل ، وحقق به الدماء ، وألف به بين ذوى الإحن والعداوة والوغر في الصدور والضغائن الراسخة في القلوب ، ثم قبضه الله إليه حميداً ، وكان من بعده ما كان من التنازع في الإمرة ، فتولى أبو بكر ، وبعده عمر ، ثم تولى عثمان ، فلما كان من أمره ما عرفتموه أتيتموني فقلتم : بايعنا ، فقلت : لا أفعل ، فقلتم : بلى ، فقلت : لا ، وقبضت يدي فبسطتموها ، ونازعتم فجدبتموها حتى تداكمتم على تذاك الإبل الهيم على حياضها يوم وردها ، حتى ظننت أنكم قاتلي ، وأن بعضكم قاتل بعضاً ، فبسطت يدي فبايعتموني مختارين ، وبايعني في أولكم طلحة والزبير طائعين غير مكرهين ، ثم لم يلبثا أن استأذنانني في العمرة ، والله يعلم أنهما أرادا الغدرة ، فجددت عليهما العهد في

لطاعة وألا يبغيا الأمة الغوائل فعاهداني ، ثم لم يفيا لي : ونكثا بيعتي ،
 نقضا عهدي ، فعجباً لهما من انقيادهما لأبي بكر وعمر وخلافهما لي ،
 لست بدون أحد الرجلين ، ولو شئت أن أقول لقلت ، اللهم احكم
 عليهما بما صنعا في حق وصغرا من أمرى .

وفي شرح النهج أن علياً خطب — لما سار الزبير وطلحة من مكة
 بهما عائشة يريدون البصرة — فقال « أيها الناس إن عائشة سارت
 لي البصرة ومعها طلحة والزبير ، وكل منهما يرى الأمر له دون صاحبه ،
 ما طلحة فابن عمها ، وأما الزبير فختنها ، والله لو ظفروا بما أرادوا —
 أن ينالوا ذلك أبداً — ليضربن أحدهما عنق صاحبه بعد تنازع فيهما
 ديد . والله إن راكبة الحمل الأحمر ما تقطع عقبة ولا تحل عقدة
 ؟ في معصية الله وسخطه حتى توردها نفسها ومن معها موارد الهلكة ،
 والله ، ليقتلن ثلثهم ، ولهيربن ثلثهم ، وليتوبن ثلثهم ، وإنها التي
 بحها كلاب الحوآب ، وإنهما ليعلمان أنهما مخطئان ، ورب عالم
 له جهله ومعه علمه لا ينفعه ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، فقد قامت
 مئة ، فيها الفئة الباغية ، أين المحتسبون ؟ أين المؤمنون ؟ مالي ولقريش !
 والله لقد قتلتم كافرين ، ولأقتلهم مفتونين . وما لنا إلى عائشة
 ، ذنب إلا أنا أدخلناها في حيزنا ، والله لأبقرن الباطل حتى يظهر
 نق من خاصرته ، فقل لقريش فلتضج ضجيجها . ثم نزل .

قال ابن الأثير : ولما بلغ علياً خروجهم إلى العراق وعاجوه أهل

المدينة فخطبهم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إن آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله ، فانصروا الله ينصركم ويصلح لكم أمركم ، فتثاقلوا ، فلما رأى زياد بن حنظلة تثاقلهم قال له : من تثاقل عنك فإننا نخف معك فنقاتل دونك .

وقالت أم سلمة : يا أمير المؤمنين ، لولا أن أعصى الله ، وأنتك لا تقبله مني ، لخرجت معك ، وهذا ابني عمرو ، وهو والله أعز على من نفسى يخرج معك ، ويشهد مشاهدك ، فخرج معه ولم يزل معه ، واستعمله على البحرين . واستخلف على المدينة تمام بن العباس ، وقيل سهل بن حنيف ، وعلى مكة قثم بن العباس ، وخرج معه من نشط من الكوفيين والبصريين متخفين في سبعمائة رجل ، وهو يرجو أن يدركهم فيردهم قبل وصولهم إلى البصرة ، أو يوقع بهم . وسار من المدينة إلى الربرة ، فأتاه الخبر بأنهم سبقوه .

وقال المنfid : لما نزل أمير المؤمنين عليه السلام « الربرة » قال : أما بعد فإن الله بعث محمداً وليس في العرب أحد يقرأ كتاباً ولا يدعى نبوة ، فساق الناس إلى منجاتهم ، أما والله ما زلت في ساقها ما غيرت ولا بدلت ولا خنت . حتى تولت بحذافيرها . مالى ولقريش . أما والله لقد قاتلتهم كافرين ، ولأقاتلتهم مفتونين ، وإن مسيرى هذا عن عهد إلى فيه ، أما والله لأبقرن الباطل حتى يخرج الحق من خاصرته ! ما تنقم منا قریش إلا أن الله اختارنا عليهم ، فأدخلناهم في حيزنا .

وأرسل على عليه السلام إلى المدينة فأتاه ما يريد من دابة وسلاح :
 وأتاه وهو بالربذة جماعة من طيء : فقيل له : هذه جماعة قد أتتك ،
 منهم من يريد الخروج معك ، ومنهم من يريد التسليم عليك . قال :
 جزى الله كليهما خيراً ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً
 عظيماً ثم سار من الربذة وعلى مقدمته أبو ليلى بن عمر بن الجراح ،
 والراية مع محمد بن الحنفية ، وعلى الميمنة عبد الله بن العباس ، وعلى
 الميسرة عمر بن أبي سلمة ، وعلى ناقة حمراء يقود فرساً كميئاً حتى
 نزل بفيء ، فأنته أسد وطيء ، فعرضوا عليه أنفسهم فقال الزموا
 قراركم : في المهاجرين كفاية .

أول شهادة زور في الإسلام

وسارت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ومن معها حتى مروا بماء
 يدعى الحوآب ، فبجحتهم كلابه ، فقالوا : أى ماء هذا ؟ قيل : هذا
 ماء الحوآب ، فصرخت عائشة بأعلى صوتها ، ثم ضربت عضد بغيرها
 فأناخته . ثم قالت : « أنا والله صاحبة كلاب الحوآب » وقالت :
 ردوني . وأناخت وأناخوا حولها يوماً وليلة . فقال لها عبد الله بن الزبير :
 إنه كذب وجاءوا لها بأربعين رجلاً ، وقيل بخمسين من الأعراب
 رشوم . فشهدوا أن هذا ليس بماء الحوآب ، وكانت أول شهادة زور
 أقيمت في الإسلام . وسارت أم المؤمنين في طريقها

روى الحكم فى المستدرک عن أم سلمة قالت : ذکر النبی صلی الله علیه وسلم خروج بعض أمهات المؤمنین ، فضحکت السيدة عائشة ، فقال انظرى یا حمیراء ألا تكونى أنت .

وعن قیس بن أبی حازم : لما بلغت أم المؤمنین بعض دیار بنی عامر نبحت علیها الکلاب . فقالت : أى ماء هذا ؟ قالوا : الحوآب .

قالت : ما أظننى إلا راجعة .

فقال الزبیر : لا تقدمی ویراک الناس ویصلح الله ذات بینهم .

قالت : ما أظننى إلا راجعة ، سمعت رسول الله صلی الله علیه وسلم یقول : کیف بإحدائک إذا نبحتها کلاب الحوآب !

ویقول الطبری : ولم یزل بها عبد الله بن الزبیر وهى تمتنع ، فقال لها : النجاء النجاء! قد أدركکم علی بن أبی طالب . فارتحلوا نحو البصرة ، فلما كانوا قریباً منها أرسلت عبد الله بن عامر بن کریر إلى البصرة وأقامت بالحفیر ، ولما بلغ ذلك عثمان بن حنیف أمير البصرة من قبل الإمام أرسل إليها عمران بن حصین وأبا الأسود الدؤلى ، فأنهيا إليها بالحفیر ، فأذنت لهما فدخلوا وسلما ، وسألاها عن مسيرها ، فقالت : ما مثلى یغطى لبنیه الخبر ، إن الغوغاء ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله صلی الله علیه وسلم ، وأحدثوا فيه ، وأووا المحدثین فاستوجبوا

لعنة الله ولعنة رسوله ، مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين بلا عذر ، فسفكوا الدم الحرام ، وأنهبوا المال الحرام ، وأحلوا البلد الحرام والشهر الحرام ، فخرجت في المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء وما الناس فيه وراعنا ، وما ينبغي لهم من إصلاح هذه القصة . وقرأت :

« لا خير في كثير من نجواهم . . . » ، فهذا شأننا إلى معروف نأمركم به ومنكر ننهاكم عنه ، فخرجنا من عندها وأتينا طلحة فقالا : ما أقدمكم ؟

قال : الطلب بدم عثمان .

قالا : ألم تباع علياً ؟ !

قال : بلى ، والسيف على عنقي .

وأتيا الزبير ، فقالا له مثل ذلك فأجابهما بمثل قول طلحة .

ورجعا إلى عثمان ، ونادى مناديهما بالرحيل ، فدخلوا على عثمان فقال أبو الأسود :

يا بن حنيف قد أتيت فانفر وطاعن القوم وجالد واصبر

وابرز لهم مستلثماً وشمر

ويقول أبو مخنف : لما انتهت عائشة وطلحة والزبير إلى حفر أبي موسى قريباً من البصرة أرسل عثمان بن حنيف عامل على البصرة

إلى القوم أبا الأسود الدؤلى يعلم له علمهم ، فجاء حتى دخل على أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها - ودارت بينهما المحاورة الآتية ، فسألها عن مسيرها .

السيدة عائشة : أطلب بدم عثمان .

أبو الأسود : إنه ليس بالبصرة من قتلة عثمان أحد .

السيدة عائشة : صدقت ، ولكنهم مع على بن أبى طالب بالمدينة ، وجئت أستنهض أهل البصرة لقتاله ، أنغضب لكم من سوط عثمان ، ولا نغضب لعثمان من سيوفكم ؟ !

أبو الأسود : ما أنت من السوط والسيف ، إنما أنت حبيس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أمرك أن تقرى فى بيتك ، وتلى كتاب ربك ، وليس على النساء قتال ، ولا هن الطلب بالدماء ، وإن علياً لأولى بعثمان منك ، وأمس رحماً ، فإنهما ابنا عبد مناف .
السيدة عائشة : لست منصرفة حتى أمضى لما قدمت له ، أفنظن يا أبا الأسود أن أحداً يقدم على قتالى ؟

أبو الأسود : أما والله لنقاتلن قتالا أهونه الشدائد .

ودارت محاورة أخرى بين أبى الأسود والزبير وطلحة ، وتكلمت أم المؤمنين فحمدت الله وقالت : كان الناس يتجنون على عثمان ويزرون

على عماله ، ويأتوننا بالمدينة فيستثيروننا فيما يخبروننا عنهم ، فننظر في ذلك فنجد به برّاً تقيّاً وفيّاً ، ونجدهم فجرة غدرة كذبة ، فلما قوا كاثروه واقتحموا عليه داره ، واستحلوا الدم الحرام والشهر الحرام والبلد الحرام بلا عذر إلا أن مما ينبغي لا ينبغي لكم غيره : أخذ قتل عثمان وإقامة كتاب الله . وقرأت : (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب . .) الآية . . . فافترق أصحاب ابن حنيف فرقتين : فرقة قالت : صدقت وبرّت ، وقال آخرون : كذبت ، والله ما نعرف ما جئتم به . فتحاثوا وتحاصبوا ، فلما رأت عائشة ذلك انحدرت ومال بعض أصحاب ابن حنيف إلى عائشة وبقي بعضهم معه .

قال الطبري وابن الأثير : وأقبل جارية بن قدامة السعدي فقال : يا أم المؤمنين ، والله لقتل عثمان أهون من خروجك من بيتك على هذا الحمل الملعون عرضة للسلاح ، إنه قد كان لك من الله سرّ وحرمة ، فهتكت سترك ، وأبجت حرمتك ، إنه من رأى قتالك يرى قتلك ، إن كنت أيتنا طائعة فارجعي إلى منزلك ، وإن كنت أيتنا مكرهة فاستعيني بالناس .

ويقول الطبري : كتبت أم المؤمنين لما قدمت البصرة إلى زيد ابن صوحان بالكوفة : « من عائشة أم المؤمنين حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ابنها الخالص زيد بن صرحان ، أما بعد فإذا أتاك كتابي هذا فأقدم فانصرنا على أمرنا هذا ، فإن لم تفعل فخذل الناس الإمام على

عن عليّ . فكتب زيد بن صوحان إلى عائشة : « أما بعد فأنا ابنك الخالص إن اعتزلت هذا الأمر ورجعت إلى بيتك ، وإلا فأنا أول من ينابذك » . قال زيد بن صوحان : رحم الله أم المؤمنين ! أمرت أن تلزم بيّتها ، وأمرنا أن نقاتل ، فركت ما أمرت به وأمرتنا به ، وصنعت ما أمرنا به ، ونهتنا عنه .

ويقول الطبرى أيضاً : إنه لما قدمت عائشة ومن معها البصرة قال لهم عثمان بن حنيف : ما نقمتم على صاحبكم ؟ فقالوا : لم نره أولى بها منا ، وقد صنع ما صنع ، قال : فإن الرجل أمرنى ، فأكتب إليه فأعلمه ما جئتم له على أن أصلى أنا بالناس حتى يأتينا كتابه ، فوقفوا عنه . فكتب فلم يلبث إلا يومين أو ثلاثة حتى وثبوا على عثمان عند مدينة الرزق فظفروا به ، وأرادوا قتله ، ثم خشوا غضب الأنصار فنتفوا شعر رأسه ولحيته وحاجبيه وضربوه وحبسوه ، وأصبح طلحة والزبير بعد أخذ ابن حنيف وبيت المال والحرس فى أيديهما ، فجعلوا على بيت المال عبد الرحمن بن أبى بكر ، وقام طلحة والزبير خطيبين فقالا : يا أهل البصرة توبة لحوبة ، إنما أردنا أن نستعنب أمير المؤمنين عثمان فغلب السفهاء الحلماء فقتلوه ، فقال الناس لطلحة : يا أبا محمد قد كانت كتبك تأتينا بغير هذا ، فقال الزبير هل جاءكم منى كتاب فى شأنه ، ثم ذكر قتل عثمان وأظهر عيب على ، فقام إليه رجل من القيس فقال : يا معشر المهاجرين ، أنتم أول من أجاب رسول

الله صلى الله عليه وسلم ، فكان لكم بذلك فضل ، ثم دخل الناس في الإسلام كما دخلتم ، فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم بايعتم رجلاً منكم ، فرضينا وسلمنا ولم تستأمرونا في شيء ، ثم مات ، واستخلف عليكم رجلاً فلم تشاورونا ، فرضينا وسلمنا ، فلما توفى جعل أمركم إلى ستة فاخترتم عثمان عن غير مشورتنا : ثم أنكروا منه شيئاً فقتلتموه عن غير مشورة منا ، ثم بايعتم علياً عن مشورة منا ، فما الذي نقيم عليه فنقاتله ؟ هل استأثر بقاء ، أو عمل بغير الحق : أو أتى شيئاً تنكروا ، فنكون معكم عليه ؟ فهموا بقتل الرجل فمنعته عشيرته : فلما كان الغد وثبوا عليه وعلى من معه وقتلوا منهم سبعين ، وبلغ حكيم ابن جبلة ما صنع بعثمان بن حنيف فقال : أخاف الله إن لم أنصره ، فجاء في جماعة من عبد القيس وبكر بن وائل ، وطالب حكيم من عبد الله بن الزبير الإفراج عن عثمان بن حنيف - فرفض ابن الزبير قائلاً : « لا نخلى سبيل عثمان بن حنيف حتى نخلع علياً » - فقال حكيم اللهم إنك حكم عدل فاشهد ، وقال لأصحابه إني لست في شك من قتال هؤلاء ، ونادى أصحاب عائشة من لم يكن من قتلة عثمان فليكشف عنا ، فإننا لا نريد إلا قتلة عثمان . فأنشب حكيم القتال ولم يرع للمنادى : فاقتتلوا قتالاً شديداً ، ومع حكيم ثلاثة قواد ، فكان حكيم بجياله طلحة ، وذريح بجياله الزبير ، وابن المحرش بجياله عبد الرحمن بن عتاب ، وحر قوص بن زهير بجياله عبد الرحمن

الحارث بن هشام ، فزحف طاححة لحكيم وهو في ثلثمائة رجل ، وجعل
حكيم يضرب بالسيف ويقول :

أضربهم باليابس ضرب غلام عابس

من الحياة آيس في الغرفات نافس

فضرب رجل ساق حكيم فقطعها ، فأخذ حكيم ساقه فرماه بها
فأصاب عنقه فصرعه ووقذه ، ثم جبا إليه فقتله ، واتكأ عليه وقال :
يا فخذ لن تراعى إن معى ذراعى أحمى بها كراعى
وقال :

أقول لما جد بي زماعى للرجل يا رجلى لن تراعى

إن معى من نجدة ذراعى

وقال :

ليس على أن أموت عار والعار في الناس هو الفرار

والمجد لا يفضحه الدمار

وقتل حكيم ، وقتل معه ابنا الأشرف وأبو الرعل بن جبلة . وقيل
إن الذى قتل حكيماً يزيد بن الأسحم الحداني ، لأن حكيماً وجد
قتيلاً بين يزيد بن الأسحم وأخيه كعب بن الأسحم ، وهما مقتولان .
وكتبت أم المؤمنين عائشة إلى أهل الكوفة تطلب منهم أن يشبطوا

الناس عن علي ، وتحشم على طلب قتلة عثمان ، وما ذكرته في كتابها : « أقيموا كتاب الله بإقامة ما فيه ، قدمنا البصرة فدعوناهم إلى إقامة كتاب الله فأجابنا الصالحون ، واستقبلنا من لا خير فيه بالسلاح ، وعزم عليهم عثمان بن حنيف والزبير إلى أهل الشام يخبرونهم بذلك ويحثونهم على النهوض ، فكان أن قاتلوني حتى منغى الله عز وجل بالصالحين ، واحتجوا بأشياء فاصطلحنا عليها ، فخافوا وغدروا وخانوا وحشروا . وكتبت إلى رجال بأسمائهم « أن ثبطوا الناس عن هؤلاء القوم ونصرتهم ، واجلسوا في بيوتكم ، فإن هؤلاء لم يرضوا بما صنعوا بعثمان بن عفان ، وفرقوا بين جماعة الأمة » وخالفوا الكتاب والسنة ، حتى شهدوا علينا بالكفر ، فأنكر ذلك الصالحون وقالوا : ما رضيت أن قتلتهم الإمام حتى خرجتم على زوجة نبيكم أن أمرتكم بالحق لتقتلوهما وأصحاب رسول الله وأئمة المسلمين ، فكان ذلك الدأب ستة وعشرين يوماً ندعوهم إلى الحق ، فغدروا وخانوا ، فغادروني في الغاس ليقتلوني ، والذي يحاربهم غيري ، فلم يبرحوا حتى بلغوا سدة بيتي ، فوجدوا نفراً على الباب فدارت عليهم الرحى » .

وكتبت إلى أهل اليمامة وأهل المدينة ، وكانت هذه الواقعة لخمس بقين من ربيع الآخر سنة ست وثلاثين ، وبابع أهل البصرة طاحنة والزبير ، فقال الزبير : ألا ألف فارس أسير بهم إلى على أقتله بيئاً أو صباحاً قبل أن يصل إلينا ؟ فلم يجبه أحد ، فقال : إن هذه للفتنة

بنا إلى عسكر على ، فخرجوا في عبد القيس وبكر بن وائل ، فعدلوا إلى عسكر على ، وأقاموا ثلاثة أيام لم يكن بينهم قتال ، فكان يرسل على إليهم يكلمهم ويدعوهم ، وكان نزولهم في النصف من جمادى الآخرة سنة ٣٦ (١)

وفي مروج الذهب : كان مسير الإمام إلى البصرة سنة ٣٦ ، وفيها كانت وقعة الحمل ، وذلك في يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الأولى منها . ويؤيد ذلك الطبرى وابن الأثير وإن كان المسعودى يقول إن الوقعة كانت قبل ذلك التاريخ بخمسة أيام .

وكان جنود عائشة رضى الله عنها ثلاثين ألفاً وعسكر الإمام عشرين ألفاً ، وافترق أهل البصرة ثلاث فرق ، فرقة مع الإمام وفرقة مع أم المؤمنين وفرقة اعتزلوا .

وفي المنقذ أن الإمام علياً رضى الله عنه قال لأصحابه يحرضهم على القتال : « عباد الله ، انهضوا إلى هؤلاء القوم منشرة صدوركم بقناهم ، فإنهم نكثوا بيعتى ، وأخرجوا ابن حنيفة عاملى بعد الضرب المبرح والعقوبة الشديدة ، وقتلوا السابجة ، وقتلوا حكيم بن جبابة العبدى ، وقتلوا رجالاً صالحين ، ثم تتبعوا منهم من يحبى ، يأخذونهم في كل حائط وتحت كل رابية ، ثم يأتون بهم فيضربون رقابهم ، قاتلهم الله

(١) الطبرى وابن الأثير .

أنى يؤفكون ، انهضوا إليهم وكونوا أشداء عليهم والقوم صابرين محتسبين تعلمون أنكم منازلهم ومقاتلوهم ، وقد وطنتم أنفسكم على الطعن والضرب ومبارزة الأقران ، وأى امرئ منكم أحسن من نفسه رباطة جأش عند اللقاء ، ورأى من أحد من إخوانه فشلا فليذب عن أخيه الذى فضل عليه كما يذب عن نفسه ، فلو شاء الله لجعله مثله .

وخطب الإمام عليه السلام لما توقف الجمعان فقال : « لا تقاتلوا القوم حتى يبدؤكم فإنكم بحمد الله على حجة ، وكفوا عنهم حتى يبدؤكم حجة أخرى ، وإذا قاتلتموهم فلا تجهزوا على جريح ، وإذا هزمتهم فلا تتبعوا مدبراً ، ولا تكشفوا عورة ولا تمثلوا بقتيل ، وإذا وصلتم إلى رجال القوم فلا تهكوا سراً ولا تدخلوا داراً ، ولا تأخذوا من أموالهم شيئاً ، ولا تهيجوا امرأة بأذى وإن شتمن أعراضكم وسبين أمراءكم وصلحاءكم ، فإنهن ضعاف القول والأنفس والعقول ، لقد كنا نؤمر بالكف عنهن ولأنهن لمشركات ، وإن كان الرجل ليتناول المرأة بالهراوة والجريدة فيعير بها وعقبه من بعده » .

وروى الحاكم فى المستدرک بسنده عن أبى بكر . قال : عصمنى الله بشيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما هلك كسرى قال : من استخلفوا ؟ قالوا ابنته . فقال : لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة . فلما قدمت عائشة ذكرت قوله صلى الله عليه وسلم فعصمنى الله به . وروى أيضاً أن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها كانت خطيبة

القوم وهم لها تبع ، فلما تراءى الجمعان خرج الزبير على فرس عليه السلاح فقيل لعل هذا الزبير . فقال : أما إنه أحرى الرجلين إن ذكر بالله أن يذكر .

وخرج طلحة فخرج إليهما على^٢ فذنا منهما حتى اختلفت أعناق دوابهم .

قال علي : لعمرى لقد أعددتما سلاحاً وخيلاً ورجالا ، إن كنتم أعددتما عند الله عذراً فأتقيا الله سبحانه ولا تكونا كالتى نقصت غزوها من بعد قوة أنكاثا ، ألم أكن أخاكما فى دينكما تحرمان دى وأحرم دماءكما ؟ ! فهل من حدث أحل لكما دى ؟ !
قال طلحة : ألتبت الناس على عثمان .

قال علي : (يَوْمَئِذٍ يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ) . يا طلحة تطلب بدم عثمان ، فلعن الله قتلة عثمان ، يا طلحة جئت بعرس رسول الله صلى الله عليه وسلم تقاتل بها وخبأت عرسك ، أما بايعتنى ؟ !

قال : بايعتك والسيف على عنق .

قال الطبرى :

وقال علي للزبير أتطلب منى دم عثمان وأنت قتلتته ؟ ! سلط الله على أشدنا عليه اليوم ما يكره ، يا زبير أتذكر يوم مررت مع

رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني غنم فنظر إلى فضحكك وضحكك إليه ، فقلت : لا يدع ابن أبي طالب زهوه ! فقال لك : صه ، إنه ليس به زهو ، ولتقاتلنه وأنت له ظالم .

فقال : اللهم نعم ! ولو ذكرت ما سرت مسيرى هذا ، والله لا أقاتلك أبداً ورجع الزبير إلى أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها فقال لها : ما كنت في موطن منذ عقلت إلا وأنا أعرف فيه أمرى غير موطنى هذا . قالت فما تريد أن تصنع ؟ قال أريد أن أدعهم وأذهب ، فقال له ابنه عبد الله : جمعت بين هذين العسكرين حتى إذا حدد بعضهم لبعض أردت أن تتركهم وتذهب لكأنك خشيت رايات ابن أبي طالب . وعلمت أنها تحملها فتية أنجاد ، وأن تحتها الموت الأحمر فجنبته . فأحفظه دمك وقال : إني حلفت ألا أقاتله ، قال : كفر عن يمينك وقاتله . فأعتق غلامه مكحولاً . فقال عبد الرحمن بن سليمان التميمي :

لم أركا اليوم أخا إخوان أعجب من مكفر الأيمان

بالعتق في معصية الرحمن

ترك الزبير الحرب ولم يخارب مع على وتوجه إلى وادى السباع قاصداً المدينة . وقتله ابن جرموز وأخذ فرسه وخاتمه وسلاحه .

ويقول ابن أبي الحديد في شرح النهج : قيل إن ابن جرموز دخل

على الإمام وأخبره بقتل الزبير ، فدعا بالسيف فهزه فقال : سيف طالما كشف الكرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ! وفي رواية أخرى — أنه قال له : أنت قتلتني ؟ ! قال نعم ، قال والله ما كان ابن صفية جباناً ولا لثيماً . وقال ابن جرّموز : الجائزة يا أمير المؤمنين . فقال : أما إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : بشر قاتل ابن صفية بالنار .

وروى أبو مخنف : أنه لما تراحم الناس يوم الحمل قال الإمام على عليه السلام لأصحابه : « لا يرمين رجل منكم بسهم . ولا يطعن أحدكم فيهم برمح حتى يبدءوكم بالقتال وبالقتل » .

فرمى أصحاب الحمل عسكر الإمام بالنبل رمية شديدة متتابعاً ، فضج إليه أصحابه وقالوا : عقرتنا سهامهم يا أمير المؤمنين . وجيء إليه برجل فقيل له : هذا فلان قد قتل . فقال : اللهم اشهد : ثم قال : اعذروا إلى القوم . فأتى برجل آخر فقيل : وهذا قد قتل ، فقال اللهم اشهد : اعذروا إلى القوم . ثم أقبل عبد الله بن ورقاء الخزاعي وهو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يحمل أخاه عبد الرحمن قد أصابه سهم فقتله ، فقال يا أمير المؤمنين ، هذا أخى قد قتل ، فاسترجع على عليه السلام . ودعا بدرع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات الفضول فلبسها . فتدأت على بطنه ، فرفعها بيده . وقال لبعض أهله فحزم وسطه بعمامة . وتقلد ذا الفقار : ودفع

إلى ابنه محمد راية رسول الله السوداء وتعرف بالعقاب ، قال للحسن والحسين عليهما السلام « إنما دفعت الراية إلى أخيكما وتركتهما لمكانكما من رسول الله صلى الله عليه وسلم » . ثم طاف الإمام على أصحابه وهو يقرأ :

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمْ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ) . ثم قال أفرغ الله علينا وعليكم المصبر ، وأعز لنا ولكم النصر ، وكان لنا ولكم ظهيراً في كل أمر . ثم رفع مصحفاً بيده فقال : « من يأخذ هذا المصحف فيدعوهم إلى ما فيه وله الجنة » . فقام غلام شاب اسمه مسلم عليه قباء أبيض ، فقال : أنا آخذه ، فنظر إليه الإمام وقال : « يا فتى إن أخذته فإن يدك اليمنى تقطع ، فتأخذه بيدك اليسرى فتقطع ، ثم تضرب بالسيف حتى تقتل » . وبعد محاورة بين الإمام والغلام نادى الغلام : هذا كتاب الله بيننا وبينكم . فضربه رجل فقطع يده اليمنى ، فتناوله باليسرى ، فضربه أخرى فقطع يده اليسرى ، فاحتضنه ، وضربوه بأسياقهم حتى قتل . فقالت أم ذريح العبدية في ذلك :

يا رب إن مسلماً أتاهم بمصحف أرسله مولاهم
للعدل والإيمان قد دعاهم يتلو كتاب الله لا يخشاهم

فخضبوا من دمه ظباهم وأمرهم واقفة تراهم
تأمرهم بالغى لا تنهاهم

ويروى الطبرى هذه القصة فيقول «أخذ على مصحفاً يوم
الحمل ، فطاف به فى أصحابه وقال : من يأخذ هذا المصحف يدعوه
إلى ما فيه وهو مقتول ، فقام إليه فتى من أهل الكوفة عليه قباء أبيض
اسمه مسلم بن عبد الله ، فقال : أنا ، فأعرض عنه ، ثم أعاده ثانياً
فقال الفتى : أنا ، فأعرض عنه ثم أعاده الثالثة فقال : أنا ، فدفعه
إليه ، فدعاهم فقطعوا يده اليمنى ، فأخذه بيده اليسرى فدعاهم ،
فقطعوا يده اليسرى ، فأخذه ب صدره وبأسنانه والدماء تسيل منه فقتل ،
فكان أول قتيل بين يدى أمير المؤمنين وأم المؤمنين ، فقال على : الآن
حل قتالهم ، وقالت أم الفتى ترثيه :

لا همَّ إن مسلماً دعاهم يتلو كتاب الله لا يخشاهم
وأمرهم قائمة تراهم يأتمرون الفتى لا تنهاهم
قد خضبت من علق الحام

واقترل الناس ، وركبت عائشة الحمل ^(١) المسمى عسكرياً ،
وكان الحمل لواء أهل البصرة ، وقالت أم المؤمنين : «أما بعد ، فإننا
كنا نقيمنا على عثمان ضرب السوط ، وإمرة الفتیان ، وموقع السحابة

(١) اشترى هذا الحمل يعلى بن أمية فى مكة بمائتى دينار .

المحمية ، ألا وإنكم استعبتموه ، فلما مصصتموه كما يماص الثوب
الرخيص عدوتم عليه فارتكبتم منه دماً حراماً ، وإيم الله إن كان لأحصنكم
فرجاً وأتفاكم لله .

وأخذ قاضى البصرة « كعب بن سور » بخطام الحمل ، وأخذ
يقول :

يا أمنا عائش لا تراعى كل بنيك بطل المصاع

ينعى ابن عفان إليك ذاعى كعب بن سور كاشف القناع

فارضى نبصر السيد المطاع والأرد فيهم كرم الطباع

وقتل كعب وكان أول قتيل بين يدي أم المؤمنين من أهل البصرة
والكوفة ، واقتتلوا إلى آخر النهار وانهمز عسكر عائشة .

ويقول الطبرى : ضرب محمد بن الحنفية يد رجل من الأرد فقطعها

فنادى يا معشر الأرد فروا ، واستحرق القتل في الأرد فنادوا : نحن

على دين على بن أبى طالب . وأقبل المهزمون يريدون البصرة ، فلما

رأوا الخيل أحافت بالحمل عادوا إلى الحرب .

أما طلحة فيقول ابن الأثير إن مروان ابن الحكم هو الذى رماه

بسهم ومات طلحة فى دار خربة فى البصرة .

وحضت أم المؤمنين الناس ، وكانت راية على عليه السلام يوم

الحمل مع ولده محمد بن الحنفية . ويقول ابن أبى الحديد إن الإمام

دفع إلى محمد الراية يوم الحمل وقد استوت الصفوف . وقال له
احمل : فتوقف قليلا ، فقال له : احمل . فقال : يا أمير المؤمنين ،
أما ترى السهام كأنها شأبيب المطر ؟ فدفع في صدره وقال : أدركك
عرق من أمك . ثم أخذ الراية فهزها ثم قال :

اطعن بها طعن أبيك محمد لا خير في الحرب إذا لم توقد
بالمشرقي والقمنا المسدد

ثم حمل وحمل الناس خافه فطحن عسكر البصرة .

وقيل لمحمد لم يغرر بك أبوك في الحرب ولا يغرر بالحسن والحسين ؟
فقال : « إنهما عيناه وأنا يمينه فهو يدفع عن عينيه بيمينه » .
وتسلم محمد الراية ومعه خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين وكثير من
أهل بدر ، فحمل حملات كثيرة أزل بها القوم عن مواقعهم وأبلى
بلاء حسناً .

ويقول خزيمة بن ثابت في ذلك :

محمد ما في عودك اليوم وصمة	ولا كنت في الحرب الضروس معددا
أبوك الذي لم يركب الخيل مثله	على وسماك النبي محمدا
فلو كان حقاً من أبيك خليفة	لكنت ولكن ذاك ما لا يرى أبدا
وأنت بحمد الله أطول غالب	لساناً وأنداها بما ملكت يدا
وأقربها من كل خير تريده	قريش وأوفاها بما قال موعدا

وأطعنهم صدر الكمي برمح
سوى أخويك السيدين كلاهما
أبي الله أن يعطى عدوك مقعداً
من الأرض أوفى اللوح مرقى ومصعداً
وأكساهم للهام عضباً مهنداً
إمام الورى والداعيان إلى الهدى

نهاية معركة الجمل :

اختلف المؤرخون في المدة الفاصلة التي انتهت فيها المعركة ، فقد ذكر الطبرى أن الوقعة كانت يوم الخميس ، والمسعودى يقول إن وقعة الجمل كانت وقعة واحدة في يوم واحد . وبعض المؤرخين يقول إن الوقعة استمرت ثلاثة أيام . على أنه يمكن الجمع بأن الوقعة العظمى الفاصلة كانت في يوم واحد وغيرها كان مناوشات .

ويهمنا أن نذكر أنه في اليوم الثالث برز عبد الله بن الزبير ودعا إلى المبارزة فبرز إليه الأشتر ، فقالت أم المؤمنين : من برز إلى عبد الله ؟ قيل : الأشتر ، فقالت : واثكل أسماء ! وكان الأشتر طاوياً ثلاثة أيام ، وكانت هذه عادته في الحرب . فضرب الأشتر عبد الله على رأسه . فجرحه جرحاً شديداً ، وضربه عبد الله ضربة خفيفة واعتنق كل واحد منهما صاحبه . وسقطا إلى الأرض يعتركان ، فقال ابن الزبير اقتلوني ومالكاً واقتلوا مالكاً معي

فلو يعلمون من مالك لقتلوه . وإنما كان يعرف بالأشتر ، فحمل أصحاب على وعائشة فخلصوها ودخل الأشتر على أم المؤمنين بعد

حرب الجمل ، فقالت : أنت الذى صنعت بابن أختى ما صنعت ؟
قال : نعم ، ولولا أنى كنت طاوياً ثلاثة أيام لأرحت أمة محمد منه !
قالت : أما علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يحل دم
مسلم إلا بأحد أمور ثلاثة : كفر بعد إيمان ، أو زنى بعد إحصان ،
أو قتل نفس بغير حق » . فقال على بعض هذه الثلاثة قاتلناه يا أم المؤمنين ،
والله خائنى سيقى قبلها وقد أقسمت ألا يصحبني بعدها . وفى ذلك
يقول :

أعائش لولا أننى كنت طاوياً	ثلاثاً لألفيت ابن أختك هالكا
غداة ينادى والرماح تنوشه	كوقع الصياصي اقتلونى ومالكا
فلم يعرفوه إذ دعاهم ونعمه	خذب عليه فى العجاجة باركا
فنجاه منى أكله وشبابه	وأنى شيخ لم أكن مماسكا
وقالت على أى الحصال صرعته	بقتل أنى أم ردة لا أبالكا
أم المحصن الزانى الذى حل قتله	فقلت لها لا بد من بعض ذلكا

وفى الساعة الفاصلة من المعركة زحف الإمام نحو الجمل بنفسه
فى كنيسته الخضراء من المهاجرين والأنصار ، وحوله بنوه الحسن والحسين
ومحمد . ودفع الراية إلى محمد وقال : « أقدم بها حتى تركزها فى عين
الجمل ولا تمتن دونه » . فتقدم محمد فرشقته السهام ، فقال لأصحابه :
رويداً حتى تنفذ سهامهم . فلم يبق إلا رشقة أو رشقتان . فأنفذ على
إليه نخته ويأمره بالمناجزة ، فلما أبطأ عليه جاء بنفسه من خلفه فوضع

يده اليسرى على منكبه الأيمن وقال له : « أقدم لا أم لك ! » فكان محمد إذا ذكر ذلك يبكى ويقول لكأنى أجد ريح نفسه فى قفاى . والله لا أنسى ذلك أبداً . ثم أدركت علياً رقة على ولده فتناول الراية منه بيده اليسرى وذو الفقار مشهور فى اليمنى ، ثم حمل فغاص فى عسكر الحمل ، ثم رجع وقد انحنى سيفه فأقامه بركبته فقال له أصحابه وبنوه والأشتر وعمار : نحن نكفيك يا أمير المؤمنين فلم يجب أحداً منهم ، ولا رد إليهم بصره ، وظل يزأر زئير الأسد حتى فرق من حوله ، وإنه لطامح ببصره نحو عسكر البصرة ، لا يبصر من حوله ولا يرد حواراً ، ثم دفع الراية إلى محمد ، ثم حمل حملة ثانية وحده ، فدخل وسطهم فضربهم بالسيف قدماً قدماً ، والرجال تفر من بين يديه وتنحاز عمه حتى خضب الأرض بدماء القتلى ، ثم رجع وقد انحنى سيفه فأقامه بركبته ، وناشده أصحابه الله فى نفسه وفى الإسلام ، وقالوا إنك إن تصب يذهب الدين : فأمسك ، ونحن نكفيك ، فقال : « والله ما أريد بما ترون إلا وجه الله والدار الآخرة » .

ثم قال لمحمد : « هكذا تصنع يا ابن الحنفية » .

فقال الناس : من يستطيع ما تستطيع يا أمير المؤمنين ؟ !

وعن المدائنى والواقدى : نادى الإمام عليه السلام : اعقروا الحمل ؛

فإنه إن عقر تفرقوا عنه . وفى رواية : حتى لقد صرخ على بأعلى صوته :

ويلكم ! اعقروا الحمل فإنه شيطان : ثم قال : اعقروه وإلا فنيب

العرب ، ولا يزال السيف قائماً حتى يهوى هذا البعير إلى الأرض .
 روى أبو مخنف قال : لما رأى الإمام أن الموت عند الحمل ، وأنه
 ما دام قائماً فالحرب لا تطفأ ، وضع سيفه على عاتقه وعطف نحوه ،
 وأمر أصحابه بذلك ، وسقط الحمل ، فكانت الهزيمة ، وفرت الرجال
 عنه كما يطير الجراد في الريح الشديدة الهبوب .

وجاء محمد بن أبي بكر ومعه عمار بن ياسر فاحتملا الهودج
 ووضعاه ، وأدخل محمد يده فقالت أم المؤمنين : من هذا ؟

قال : أخوك محمد .

فقالت : مذم .

قال : يا أختي هل أصابك شيء ؟

قالت : ما أنت من ذلك ؟

قال : فمن إذا ؟ الضلّال ؟ !

قالت : بل الهداة .

وأمر الإمام نفرّاً من أصحابه أن يحملوا الهودج من بين القتلى ،
 ولأنه كما القنفذ لما فيه من الدمام ، وأمر أخاها محمد بن أبي بكر أن
 يضرب عليها قبة ، فلما كان الليل أدخلها البصرة فأنزلها في دار عبد الله
 ابن خلف الخزاعي ، وكان الإمام يقول في ذلك اليوم بعد الفراغ من
 القتال .

إليك أشكو عجرى ويجرى ومعثراً غَشَوَا عَلَى بَصْرِى
قتلت منهم مضرّاً بمضرى شفيت نفسى وقتلت معشرى

مع الإمام بعد المعركة :

عن ابن أبي الحديد أن الإمام ركب بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم المنهباء ، وكانت باقية عنده ، وسار في القتلى يستعرضهم .

ويقول المفيد : ومن كلامه عند طوافه على القتلى : « هذه قريش ، جدعت أنفى ، وشفيت نفسى ، لقد تقدمت إليكم أحذرکم عض لسيف ولكنه الحين وسوء المصرع ، وأعوذ بالله من سوء المصرع .

ثم مر على معبد بن المقداد ، فقال : رحم الله أباه هذا لو كان حياً لكان رأيه أحسن من رأى هذا . ، فقال عمار بن ياسر : « الحمد لله الذى أوقعه وجعل خده الأسفل » .

ومر بعبد الله بن ربيعة بن دراج ، فقال : هذا البائس ما كان أخرجه أدين أم نصر لعثمان ؟ ! والله ما كان رأى عثمان فيه ولا فى أبيه بحسن .

ثم مر بكعب بن سور ، فقال : هذا الذى خرج علينا فى عنقه المصحف يزعم أنه ناصر أمه يدعو الناس إلى ما فيه ، ثم استفتح فخاب كل جبار عنيد ، أما إنه دعا الله أن يقتلنى فقتله الله . أجلسوا كعب بن سور فأجلس ، فقال له أمير المؤمنين : « يا كعب لقد وجدت

ما وعدني ربي حقاً ، فهل وجدت ما وعدك ربك حقاً . ثم قال :
أضجعوه ، فأضجعوه .

ويقول المفيد : مر على طلحة فقال هذا الناكث بيعتي والمنشئ
الفتنة في الأمة : والمجلب على : والداعي إلى قتلى وقتل عترتي ،
أجلسو طلحة ، فأجلس فقال له : « يا طلحة قد وجدت ما وعدني
ربي حقاً . فهل وجدت ما وعدك ربك حقاً » ، أضجعوا طلحة ،
وسار ، فقال له بعض من كان معه : يا أمير المؤمنين أتكلم كعباً وطلحة
بعد قتلها ؟ ! فقال أما والله لقد سمعاً كلامي كما سمع أهل القلب
كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر .

قال ابن أبي الحديد : مر الإمام بعد الرحمن بن عتاب ، فقال :
أجلسوه ، فأجلس ، فقال : هذا يعسوب قريش ، هذا لباب المحضر
من عبد مناف ، ثم قال شفيت نفسي وقتلت معشري إلى الله أشكو
عجري ويجري . قتلت الصناديد من بني عبد مناف ، وأفلتني الأعياء
من بني جمح ، فقال له قائل : لشد ما أطريت هذا الفتى منذ اليوم ،
يا أمير المؤمنين .

وأقام الإمام عليه السلام بظاهر البصرة ثلاثاً ، وأذن للناس في دفن
موتاهم ، فخرجوا إليهم فدفنوه .

وفي مروج الذهب : خرجت امرأة من عبد القيس تطوف بالقتل

رم الحمل ، فوجدت ابنين لها قد قتلًا ، وقد كان قتل زوجها وأخوان
 ا فيمن قتل قبل مجيء على البصرة فأنشأت تقول :

شهدت الحروب فشيئني فلم أريوما كيوم الحمل
 أضر على مؤمن فتنة وأقتله لشجاع بطل
 فليت الطعينة في بيتها وليتك عسكر لم ترنحل

عدد قتلى المعركة

كانت القتلى خمسة عشر ألفاً ، قتل من أهل البصرة في المعركة
 لأولى خمسة آلاف ، وفي المعركة الثانية مثلها ، وقتل من أهل الكوفة
 خمسة آلاف . وقيل كان جميع القتلى عشرة آلاف ، نصفهم من
 أصحاب على ، ونصفهم من أصحاب عائشة . وقيل إنه قد قتل من
 سبة ألف رجل ، وقتل من بني عدى حول الحمل سبعون .

الإمام في مسجد البصرة

بعد الوقعة بثلاثة أيام دخل الإمام البصرة وتوجه إلى المسجد فصلى .
 يقول المفيد : إن الإمام حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ،
 إن الله ذو رحمة واسعة ، ومغفرة دائمة ، وغفر جم ، وعقاب أليم ،
 خي أن رحمته ومغفرته وغفوه لأهل طاعته من خلقه ، وبرحمته اهتدى
 لمهتدون ، وقضى أن نقمته وسطوته وعقابه على أهل معصيته من خلقه ،

وبعد الهدى والبيّنات ما ضل الضالون ، فما ظنكم يا أهل البصرة وقد
نكثتم بيعتي وظاهرتم علىّ عدوى .

فقام إليه رجل فقال نطن خيراً . ونراك قد ظهرت وقدرت .
فإن عاقبت فقد اجترمنا ، وإن عفوت فالعفو أحب إلى الله تعالى .
فقال : قد عفوت عنكم ، فإياكم والفتنة ، فإنكم أول الرعية نكث البيعة
وشق عصا هذه الأمة .

ثم جلس للناس فبايعوه ويقول الطبرى إنه لما فرغ أمير المؤمنين
من بيعة أهل البصرة نظر في بيت المال فإذا فيه ستمائة ألف وزيادة
فقسمها على من شهد معه فأصاب كل رجل منهم خمسمائة .

ويقول ابن أبي الحديد — عن أبي الأسود الدؤلى : قال لما ظهر
على عليه السلام يوم الحمل دخل بيت المال بالبصرة في أناس من
المهاجرين والأنصار وأنا معهم ، فلما رأى كثرة ما فيه قال : « غرى
غبرى » مراراً ، ثم نظر إلى المال وصعد فيه بصره وصوب . وقال :
اقسموه بين أصحابي خمسمائة خمسمائة . فقسم بينهم فلا والذي بعث
محمداً بالحق ما نقص درهماً إلا زاد درهماً . كأنه كان يعرف مبلغه
ومقداره . كان ستة آلاف ألف درهم . أى ستة ملايين . والناس
اثني عشر ألفاً .

ويقول ابن أبي الحديد اتفقت الرواة كلها على أنه عليه السلام
قبض ما وجد في عسكر الحمل من سلاح ودابة ومملوك ومتاع وعروض

نسمه بين أصحابه . وأنهم قالوا له : اقسم بيننا أهل البصرة فاجعلهم نيقاً . فقال : لا . فقالوا : كيف تحل لنا دماءهم وتحرم علينا سيبرهم ؟ !
نال : كيف يحل لكم ذرية ضعيفة في دار هجرة وإسلام ، أما ما
جاء به القوم في معسكرهم عليكم فهو لكم مغنم ، وأما ما دارت
ليه الدور وأغلقت عليه الأبواب فهو لأهله .

قال المفيد ثم كتب بالفتح إلى أهل الكوفة رسالة الإمام إلى
بل الكوفة : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله على بن أبي طالب
ير المؤمنين إلى أهل الكوفة ، سلام عليكم ، فإني أحمد إليكم الله
بى لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإن الله حكم عدل لا يغير ما بقوم
فى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ، وما
من دونه من وال . أخبركم عنا وعن سرنا إليه من جموع أهل البصرة ،
ن تأشب إليهم من قريش وغيرهم مع طالحة والزبير ونكثهم صفقة
انهم ، فنهضت من المدينة حين انتهى إلى خبر من سار إليها وجماعتهم ،
' فعلوا بعاملى عثمان بن حنيف حتى قدمت ذا قار ، فبعثت الحسن
، على وعمار بن ياسر وقيس بن سعد ، فاستنفرتكم بحق الله وحق
رل الله صلى الله عليه وسلم وحق ، فأقبل إلى إخوانكم سراً حتى
موا على ، فسرت بهم حتى نزلت ظهر البصرة ، فأعدت بالدعاء ،
ت بالحجة ، وأقلت العثرة والزلة من أهل الردة من قريش وغيرهم ،
ستبهم من نكثهم يبعثي وعهد الله عليهم ، فأبوا إلا قتلى وقتال من

معى والتمادى فى الغى ، فناهضتهم بالجهاد فقتل الله من قتل منهم ناكثاً ، وولى من ولى إلى مصرهم ، وقتل طلحة والزبير وخذلوا وأدبروا ، وتقطعت بهم الأسباب ، فلما رأوا ما حل بهم سألونى العقو عنهم فقبلت منهم ، ونعمدت السيف عنهم ، وأجريت الحق والسنة فيهم واستعملت عبد الله بن عباس على البصرة ، وأنا سائر إلى الكوفة إن شاء الله تعالى ، وقد بعثت إليكم زحر بن قيس الجعفى لتسألوه فيخبركم عنا وعنهم ، وردهم الحق علينا ، ورد الله لهم ، وهم كارهون ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الإمام علي والسيدة عائشة

يقول الطبري : توجه الإمام علي إلى أم المؤمنين علي بخلته ، فلما
بى إلى دار عبد الله بن خلف وجد النساء يبكين على عبد الله وعثمان
بن خلف ، وكان عبد الله قتل مع عائشة وعثمان قتل مع علي ، وكانت
نمية بنت الحارث تبكى ، فلما رآته قالت له : يا علي ، يا قاتل
حبة يا مفرق الجمع : أيتم الله منك بنيك كما أيتمت ولد عبد الله
.. فلم يرد عليها شيئاً .

ودخل علي عائشة رضى الله عنها فسلم عليها وقعد عندها . وفي
ية - أنه لم يسمع أحد من قول علي شيئاً إلا أن عائشة كانت امرأة
ية الصوت : قالوا فسمعنا كهيئة لمعاذير إني لم أفعل : ثم قال :
بتنا صفية ، أما إني لم أرها منذ كانت جارية ، فلما خرج علي
دت عليه القول فكف بخلته وقال : أما لهمت ، وأشار إلى الأبواب
الدار أن افتح هذا الباب واقتل من فيه . وكان بعض الجرحى
لجأوا إلى أم المؤمنين ومن بينهم مروان بن الحكم في حجرة ومعه
لاعة ، وعبد الله بن الزبير في حجرة ومعه جماعة وآخرون في حجرة ،
بر علي بمكانهم عندها فتغافل عنهم : فسكت : فخرج علي ،

فقال رجل من الأزد : « والله لا تغلبنا هذه السيدة » . فغضب الإمام وقال : « صه لا تهتكن سترأ ولا تدخلن دارأ ولا تهبجن امرأة بأذى ، وإن شتمن أعراضكم وسفهن أمراءكم وصلحاءكم فإنهن ضعاف . ولقد كنا نؤمر بالكف عنهن وإنهن لمشركات وإن الرجل ليكافئن المرأة ويتناولها بالضرب فيعير بها عقبه من بعده ، فلا يبلغني عن أحد عرض لامرأة فأنكل به شرار الناس .

ويقول ابن أبي الحديد . في شرح النهج : بعث الإمام رضى الله عنه بعد وقعة الجمل عبد الله بن عباس إلى أم المؤمنين يرجوها بتعجيل الرحيل وقلة العرجة ، ويقول ابن عباس : فأتيها وهى فى قصر بنى خلف فى جانب البصرة ، فطلبت الإذن عليها ، فلم تأذن ، فدخلت من غير إذن ، فإذا بيت قفار لم يعدلى فيه مجاس ، فإذا هى من وراء ستر فضربت ببصرى فإذا فى جانب البيت رجل عليه طنفسة ، فددت الطنفسة فجلست عليها ، فقالت من وراء الستر : يا بن عباس أخطأت السنة . دخلت بغير إذن ، وجلست على وسادتنا بغير إذننا ، فقال لها ابن عباس : نحن أولى بالسنة منك ، ونحن علمنا السنة ، وإنما بيتك الذى خلقت فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرجت منه ، فإذا رجعت إلى بيتك لم ندخله إلا بإذنك ، ولم نجاس على وسادتك إلا بأمرك إن أمير المؤمنين على بن أبى طالب يطلب منك الرحيل إلى المدينة وقا العرجة .

قالت : وأين أمير المؤمنين ذاك عمر بن الخطاب ؟ !

قال : وهذا على بن أبي طالب .

قالت : أبيت أبيت .

قال : أما والله إن كان إباؤك فيه إلا قصير المدة عظيم التبعة
ظاهر الشؤم بين النكد ، وما كان إباؤك فيه إلا حلب شاة . حتى
صرت ما تأمرين ولا تنهين ولا ترفعين ولا تضعين ، وما كنت إلا كما
قال أخو بني أسد :

ما زال إهداء القصائد بيننا شتم الصديق وكثرة الألقاب
حتى تركت كأن صوتك بينهم في كل مجمعة طنين ذباب

قالت : إني معجلة الرحيل إلى بلادى والله ما من بلد أبغض
إلى من بلد أنتم فيه .

قال : ولم ذاك وقد جعلناك للمؤمنين أمماً ؟

قالت : يابن عباس تمنن على برسرل الله .

ودار حوار بين ابن عباس والسيدة عائشة رضى الله عنها ، وتوجه
ابن عباس وذكر ما دار بينه وبين أم المؤمنين ، فقال له الإمام « ذرية
بعضها من بعض والله سميع علم » .

عودة أم المؤمنين :

روى الطبرى : أن عمار بن ياسر قال للسيدة عائشة رضى الله عنها ، حين فرغ القوم ، يا أم المؤمنين ، ما أبعد هذا المسير من العهد الذى عهد إليك ! وجهز الإمام على أم المؤمنين بكل شئ ينبغى لها من مركب أو زاد أو متاع ، وأخرج معها كل من نجا ممن خرج معها إلا من أحب المقام ، واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات ، وأرسل معها أخاها محمداً وكان ذلك فى يوم السبت لغرة رجب سنة ٣٦ .

ويقول المسعودى : إنه وكل بأأم المؤمنين نساء ملثات أركبهن الخيل . وعن هشام الكلبي أنه بعث معها أخاها عبد الرحمن فى ثلاثين رجلا وعشرين امرأة ألبسن العمام وقلدهن السيوف ، وقال : لا تَقْلُنْ إنكن نسوة ، وتلثمن ، ولا يقرب منها رجل ، فلما وصلت إلى المدينة عرفها أنهن نسوة .

وفى كامل المبرد قال عمرو بن العاص لعائشة : « لوددت أنك كنت قتلت يوم الجمل » .

فقالت : ولم ؟ لا أبالك !

فقال : كنت تموتين بأجلك ، وتدخلين الجنة ، ونجعلك أكبر التشنيع على على .

لماذا خرجت أم المؤمنين :

عندما تزوج الرسول صلى الله عليه وسلم ، من جويرية ، بنى لها منزلها إلى جانب منازل نسائه في جوار المسجد ، وأصبحت بذلك من أمهات المسلمين ، وبينما هو في شغله بها كان قوم قد بدءوا حديث الإفك المشهور ، ويقولون إن الرسول استشار علياً وأسامة بن زيد ، فأما أسامة فنفى كل ما نسب إلى أم المؤمنين على أنه الكذب والباطل ، وأما على فقال : « يارسول الله إن النساء كثير » وفي رواية أخرى : « يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء غيرها كثير » . ثم أشار باستجواب جارية عائشة لعلها تصدقه ، ودعيت الجارية وقيل إن علياً ضربها ضرباً مروعاً وهو يقول : « أصدق رسول الله » ، والجارية تقول : « والله ما أعلم إلا خيراً » وتنفي عن عائشة قالة السوء ، ثم كان أن نزل الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم ونادى الرسول الكريم وقال : أبشرى يا عائشة قد أنزل الله براءتك — قالت عائشة : « الحمد لله » .

يقول الله سبحانه وتعالى : (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ . بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ) .

هل كان رأى على « إن النساء كثير » هو السبب ؟ وهل وصل أم المؤمنين هذا الرأى ؟ أغلب الظن أنها علمت بهذا الرأى كما سنرى بعد قليل .

والذى لا شك فيه أن أم المؤمنين كانت لا تميل إلى الإمام على ، فعندما قتل عثمان كانت السيدة عائشة في مكة ، رفى طريقها إلى المدينة عرفت بمقتل الخليفة : وقال لها فريق من الناس إن طلحة قد بويع فأظهرت بذلك ابتهاجاً فقد كان طلحة مثلها تيمناً ، ولكنها لقيت في طريقها من أنبأها بحقيقة الأمر . وبأن علياً هو الذى تمت له البيعة في المدينة ، فضافت بذلك ضيقاً شديداً ، وأعلنت أنها كانت تؤثر انطباق السماء على الأرض قبل أن ترى علياً وقد أصبح للمسلمين إماماً ، ثم قالت لمن معها ردوني . فرجعوا بها أدرأجهم إلى مكة ^(١).

ويقول أستاذنا عبيد الأدب العربى الدكتور طه حسين : إنه كان معروفاً أن عائشة رحمها الله لم تكن تحب علياً ولا تهواه ، بل كان معروفاً أنها كانت تجدد عليه موجدة شديدة منذ حديث الإفك ، حين أراد على أن يواسى النبى صلى الله عليه وسلم فأشار عليه بأن يطلقها وقال له : « إن النساء غيرها كثير » . وكان ذلك قبل أن ينزل الله براءتها في القرآن . فلم تنس لعل قوله ذاك . وكانت عائشة شخصية من أقوى الشخصيات التى عرفها تاريخ المسلمين فى ذلك العهد لم تكن رقيقة كأبيها ، وإنما كانت شديدة كعمر على احتفاظ منها بكثير مما ورثت العرب عن جاهليتها ، فكانت تحفظ الشعر وتكثر من حفظه وإنشاده . والتمثل به ، حتى إنها رأت أباهما وهو يحتضر فتمثلت قول الشاعر :

(١) الفتنة الكبرى لعبد الأدب العربى الدكتور طه حسين .

لعمرك ما يغنى الثراء عن الفقى إذا حشرت يوماً وضاق بها الصدر
وسمعتها خليفة رسول الله أبوها فقال لها كالمنكر عليها « بخ بخ
يا أم المؤمنين ! هلا تلوت قول الله عز وجل » :

(وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ نَحِيدُ) .

وكانت من أشد نساء النبي إنكاراً على عثمان ، لم تخرج أن تصيح
به من وراء سترها وهو على المنبر حين عاب عبد الله بن مسعود فأسرف
في عيبه ، ولم تكن تتحفظ من الاعتراض على كثير من أعمال عثمان
ومن سيرة عماله ، حتى ظن كثير من الناس أنها كانت من المحرضين
على الثورة به .

ويعتقد الأستاذ العميد أن أم المؤمنين عائشة كانت تنكر على عليّ
مرتين آخرين : أحدهما لم يكن لعلى فيه خيرة ، فقد تزوج فاطمة بنت
بسر الله ورزق منها الحسن والحسين ، فكان أبا الذرية الباقية للنبي ،
لم يتح لها هي الولد من رسول الله مع أنه قد أتيح للمارية القبطية أم
إبراهيم في أواخر أيام النبي فكان هذا العقم يؤذيها في نفسها بعض الشيء
لا سيما أنها كانت أحب نساء النبي إلى النبي .

أما الأمر الآخر فهو أن عليّاً قد تزوج أسماء الخثعمية بعد وفاة
بكر رحمه الله ، وأسماء الخثعمية هي أم محمد بن أبي بكر الذى نشأ
، حاجر على ..

الإمام عل

ويقول المرحوم الأستاذ عباس العقاد : إنه لما بويع على في المدينة لم تكن السيدة عائشة من أنصاره ولا مع الباقين على الحيدة بينه وبين خصومه ، ولعلها لم تنس بعد نصيحته للنبي عليه الصلاة والسلام في مسألة الإفك التي قيل إنه أشار فيها بتطبيقها ، فخرجت إلى البصرة مع المطالبين بثأر عثمان . .

أما السيدة الدكتورة زاهية قدورة^(١) فرى أن بين الإمام على والسيدة عائشة خصومة ترجع إلى أسباب كثيرة منها :

١ - كانت عائشة أول زوجة بنى بها الرسول صلى الله عليه وسلم بعد وفاة السيدة خديجة رضى الله عنها أم فاطمة ، ولقيت منه دلالاً وحباً ، فأثار ذلك في نفس فاطمة الزهراء زوجة الإمام على الألم والامتناع ، ولا شك أن ذلك انتقل بواسطتها إلى الإمام على ، وكانت السيدة عائشة تشعر بهذا التوتر في العلاقات بينها وبين فاطمة ، ثم بالتالى مع على ، ولم يكن الأمر يخلو من دعاة سوء الذين ينقلون الكلام من جهة إلى أخرى فتزداد العلاقات توتراً فتجد فاطمة من زوجها ملجأ تشكو إليه وتجد عائشة في أبيها مرجعاً تتألم لديه .

٢ - إلى جانب هذا العامل سبب يماثله ذلك أن الرسول صلى الله عليه

(١) السيدة الدكتورة زاهية قدورة هي رئيسة قسم التاريخ وعميدة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجامعة اللبنانية .

يسلم كان يحب فاطمة حباً شديداً وقد وضعها في مقام مريم^(١) بنت عمران ، فقال فيها (سيدة نساء العالمين) وإنها عذيلة مريم بنت عمران — قال فيها أيضاً : (يؤذيني ما يؤذيها ويغضبني ما يغضبها وإنها بضعة نبي يربني ما رابها) .

ولا شك أن ذلك يثير في نفس عائشة ألماً فقد كانت تود ألا يشاركها ، منزلتها أحد وألا يفوقها شخص في مكانتها .

٣ — وقد كان (لحديث الإفك) أبعد الأثر وأعظمه في نفس عائشة فقدت على كل الذين اتهموها وكان الإمام منهم حتى إنه أشار على النبي صلى الله عليه وسلم بتطبيقها قائلاً : (والنساء سواها كثير) ، قبل أن يجرى الأمر تحقيق عادل — في حين أنه وقف موقفاً يختلف كل الاختلاف عن هذا الموقف يوم اتهمت مارية القبطية بالتهمة التي انتهت بها عائشة في (حديث الإفك) فإنه اهتم ببراءتها حتى أثبت ذلك — فكان وقف الإمام سبباً في أن يثير في نفس عائشة ألماً وحقدًا وكان في رأيها انبساط العدل والحق لأنه كان بكيلين مختلفين .

٤ — وزاد الأمر تعقداً ما نقل لعائشة عن علي وفاطمة أيام محنتها حديث الإفك من أنهما أظهرتا شامة سرّاً وقد ردت عليها يوم نزلت براءتها ، عند الله وهو ما يفعله المتهم ضد الذين اتهموه وآذوه إذا ما برأه القضاء مدد .

(١) بينت ذلك تفصيلاً في الجزء الأول من أهل البيت (فاطمة الزهراء)

وإذا كان الأمر كذلك فلا شك أن يؤذيها تقريب الرسول لعلی، يدفعها في ذلك الحسد والغيرة وقد كان يسوء علياً وفاطمة ما تلقاه عائشة من حب الرسول وما يلقاه أبوها أيضاً من تفضيل ولاكرام .

٥ - وقد لعبت العوامل النفسية دورها العظيم في هذا الخلاف فلم ترزق عائشة أولاداً وقد كان الرسول يحب أن يرزق أولاداً - ورزقت فاطمة البنين والبنات - وكان الرسول يحبهم حباً جمماً حتى إنه تبناهم وكان يسميهم أولاده ، فيثير ذلك في نفس الزوجة التي لم يرزقها الله بالولد الغيرة الشديدة .

٦ - اختار الرسول صلى الله عليه وسلم في مرضه الأخير بيت عائشة يعرض فيه وكان ذلك سبباً تفخر به في اختيارها وتفضيلها ، وكانت بقية الزوجات ترجو أن تنال هذا الشرف - وكانت فاطمة وعلى يرجوان أن ينالهما فخر إقامة الرسول عندهما ليعدهما - فالفخر الذي نالته عائشة بهذا الاختيار قابله حقد عليها من فشل في تحقيق هذا الذي كان يرجوه .

٧ - وقد كانت خلافة أبي بكر سبباً في إثارة عاملين مختلفين عند عائشة من جهة وعند فاطمة وعلى من جهة أخرى - أما عائشة فقد زهت بما أصابها من خير فهي زوجة حبيبة الله من ناحية وهي ابنة خليفة رسول الله من ناحية أخرى ، وبالنسبة لعلی وفاطمة كانت مبايعة أبي بكر خيبة أمل وصدمة لهما - ذلك أن علياً كان يظن أنه لن ينازعه أحد في هذا الأمر ، وقد قال له عمه : (وقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم امدد يدك

أبايعك ؛ فيقول الناس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم بايع ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يختلف عليك اثنان - قال : (يا عم وهل يطمع فيها طامع غيري !) - ولما تم الأمر لأبي بكر تلكاً على في بيعته وكانت فاطمة خلال ذلك تناضل في سبيل علي وتجادل في خلافة أبي بكر وكان علي وأنصاره يذيعون أن النبي أوصى لعلي فكانت عائشة ترد (متى أوصى إليه فقد كنت مسندته إلى صدرى ؟ أو قالت في حجري - فدعا بالطست فلقد انخنث في حجري وما شعرت أنه مات فتى أوصى إليه ؟) .

لا شك أن أمراً كهذا لا يمكن أن يمر دون أن يزرع في النفوس - عند الفريقين - جفاء وقد زاد الأمر حدة حين أوصى أبو بكر لعمر ؛ فكان ذلك عاملاً جديداً في نفس عليّ على أبي بكر وأثار شتاة في نفس عائشة وجدت لها رد الفعل الكافي في نفس الإمام علي .

٨ - اتهام علي لعائشة في أنها دبرت أمر إمامة أبي بكر الصلاة في مرض الرسول فنسب الإمام عليّ للسيدة عائشة أنها أمرت بلالاً مولى أبيها أن يأمره فليصل بالناس لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما روى قال : ليصل بهم أحدهم ولم يعين ؛ وكانت صلاة الصبح فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في آخر رمق يتهادى بين علي والفضل بن عباس حتى قام في المحراب ثم دخل فمات ارتفاع الضحى ؛ فجعل يوم صلاته حجة في صرف الأمر إليه وقال أيكم يطيب نفساً

أن يتقدم قدمين قدمهما رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة ولم يحملوا خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة لصرفه عنها بل لمحافظة على الصلاة مهما أمكن فبوجع على هذه النكته التي اتهمها على عليه السلام على أنها ابتدأت منها، وكان الإمام يذكر هذا لأصحابه في خلواته كثيراً ويقول : « إنه لم يقل صلى الله عليه وسلم إنكن لصويحات يوسف إلا إنكاراً لهذه الحال وغضباً منها لأنها وحفصة تبادرتا إلى تعيين أبييهما وأنه استدركها بخروجه وصرفه عن المحراب » - هذه هي رواية الشيعة أما رواية السيدة عائشة رضي الله عنها أن الرسول صلى الله عليه وسلم أصر على أن يؤم أبو بكر الصلاة - وهذا اختلاف جوهري له أثر في مجرى الأمور حتى تغلبت كما يظهر في ذلك الوقت رواية عائشة فباع المسلمون أبا بكر لما ثبت عندهم تقديم الرسول له .

٩ - وقد ظهرت نقمة عائشة على الإمام حينما توفيت السيدة فاطمة الزهراء - فيروى أن نساء الرسول صلى الله عليه وسلم ذهبن يعزين في وفاة الزهراء إلا عائشة، فإنها لم تذهب وادعت المرض وأنه نقل عن لسانها لعل كلام يدل على السرور، ولا شك في أن ذلك اتهام أملاه ما بينهما من أسباب الحقد؛ ولا نظن أنها كانت تتأخر عن أداء هذا الواجب الضروري لو لم تكن مريضة حقاً

هذه هي الأسباب التي ظهرت في شكل خصومة انتهت بسفك كثير من الدماء في موقعة الجمل .

ويقول الأستاذ عبد الفتاح عبد المقصود : « لقد زود الماضي السيدة عائشة بذخر من البغض ، ادخرته لابن أبي طالب منذ الساعة التي شهدته فيها لا يقف إلى جانبها حين حاكت حولها الألسن الباغية حديث الإفلك ، وهي أيضاً مشبوبة الغيرة ككل حواء ، لا تستطيع أن تحرر قلبها من سلطانها القاهر ، وكأية أنثى كان صدرها يجيش بعواطف أمومة مختزنة تنتظر أن يعينها الزمن على إطلاقها لتحبوبها صغيراً تسعد به ، فلم يسعفها القدر بتحقيق حلمها الجميل وبقيت طوال الأعوام التي عاشتها زوجاً عاقراً ، لا تستطيع أن توثق الزوجية برباط من البنوة ؛ لكم ودت لو دفعت إلى محمد طفلاً من دمها ومن صلبه يضئ عليه فيض حنانها ، وتعيش هي على مدى الأحقاب في ذراياه ، ولكنها نعمة حرمتها فأحزنها الحرمان ، وما أحسبها إلا كانت تشعر بشيء في صدرها يشبه الحسرة وهي تنقل بصرها فترى زوجها الحبيب يهب رعايته فتاته الزهراء ، ويوالها عطفاً كانت تود عائشة لو أولاه طفلة تمتاز في عروقها دماء الزوجين ، غير أن خديجة نعمت دونها بهذه الميزة ، وعاشت في ذرية محمد بعد الموت إلى نهاية الأبد . خديجة الزوج الأولى التي عاشت رسول الله ريع قرن لم تغضبه خلاله مرة ، وتزوجها وهو شاب وهي في طريقها إلى الكهولة ، فلم يجمع بينها وبين زوجة أخرى ، ولم تسعده امرأة بعدها بمثل ما أسعدته ، خديجة هذه تنال من حب محمد ما لم تستطع عائشة نواله ، وإن كانت فتاة حلوة صغيرة السن ؟ وتهبه من الولد وهي عجوز ما عجزت

عنه الجميلة . الصغيرة ، وتبقى على الدوام ماثلة في خاطره بعد موتها ، لأنها لم تبرح أبداً قلبه ، وما أكثر ما سمعت عائشة رسول الله يذكرها أمامها بعبارات إعزاز ، كانت تشعر معها أن هذه الغائبة عن وجه الدنيا تستأثر دونها بأكبر نصيب من حب زوجها العظيم . . . ولندع عائشة تفصح بلسانها عن شعورها الحقيقي إذ تقول : ” ما غرت على أحد من نساء النبي ما غرت على خديجة . . . وما رأيتها ، ولكن كان النبي يكثر ذكرها . وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ، ثم يبيعها في صداقتي خديجة ، وربما قلت له كأنه لم يكن في الدنيا إلا خديجة . . . فيقول إنها كانت . . . وكانت . . . وكان لي منها ولد “ ، فهي باقية وإن ذهبت . . . تعيش اليوم في خاطر محمد كما عاشت بالأمس في دنياه ، وتكاد تملأ عليه آفاق فكره لا يشغله عنها وجود عائشة ولا حسننها ولا صباها ، باقية أبداً في الزهراء الرقيقة وفي الحب الأبوي الكريم الذي يفيض به قاب رسول الله ، باقية أيضاً في خالجات نفس عائشة بقاء شعور الغيرة العجيب الذي لا ينبي براودها في كل لحظة ، وهل آلم على نفس الزوج الصغيرة من إحساسها بالخوف من امرأة ماتت . . . وضعفها أمام شبح يطل على بيتها من خلل الماضي ، ويلقي ظلالاً قائمة على سعادتها الزوجية . . . الزمن لم يستطع أن يشفيها من هذا الخوف أو يحجب عنها صورة ضررتها الخطرة وراء ستر النسيان . . . بل قد حالف خديجة ومضى يعيدها إلى الحياة مرات ومرات ، ويكررها في حفدتها كما كررها في بناتها

وأولادها . فإذا هي صور شتى تطالع عائشة كل يوم وتطوف عليها
 بيتها فتملاً سمعها وبصرها بعد أن كانت صورة واحدة لشبح يعيش
 في وهم الذهن . فأى خليط من المشاعر ، كان يحتاج نفسها كلما
 ألقت العين على محمد وهو يداعب حفدته ويوليه حنان قلبه الرحيب ،
 أهي الغيرة على الزوج الأولى التي صارت اليوم في أشخاص حقيقة
 تنجدد بعد أن قاربت أن تكون ذكرى . أم الحسرة على حرمانها الولد
 الذي حلمت أن يكون نسلًا لها من رسول الله تعيش خلاله على مدى
 الزمن السيار . أم الحقد على غريمها ابن أبي طالب وقد تفرد وحده
 بنقل سلالة زوجها الحبيب إلى الأحقاب ؟ !

كانت أنثى كأية أنثى : تسمع لوحى قلبها وتلبى نداءه . فما خالفت
 طبيعة المرأة حين غارت وحين ملكتها الحسرة ، وحين حقدت ، فإن هي
 إلا واعيتها التي تكلمت - برغمها - وتحركت ودفعتها إلى موقفها العدائي
 للإمام . وإذا نطقت الواعية فلها الكلمة المسموعة . وضاع صوت
 العقل الهادئ الخفيض في ضوضاء المشاعر الصخبية .

وعن علاقة الإمام على بالسيدة أم المؤمنين يقول^(١) سعيد الأفغانى :
 إنه إذا رجعنا ثلاثين سنة قبل مبايعة على بالخلافة نجد ثمة نقطة التحول
 التي فرضت على عائشة اتجاهها الذي اتجهته مع على . ولم تستطع
 الإفلات منه ولا من عاطفتها العنيفة التي لم يخفف تتابع الأيام والسنين

من حزنها ، فاثابت أنه لم يجتمع أزواج النبي صلى الله عليه وسلم على شئ اجتماعهن على الغيرة الشديدة من السيدة عائشة ، لما خصها النبي صلى الله عليه وسلم من محبة إذ حلت من قلبه في المتزلة التي لا تسامى ، والغيرة بين الضرائر أمر فطرى مألوف قل أن تتنزه عنه امرأة ، وكان على وزوجه السيدة فاطمة بنت الرسل يحاولان حمل الرسول صلى الله عليه وسلم على التخفيف من حبه لعائشة ، ويسفران لبقية أزواجه بما يرضين ويغضب عائشة ، وأظن أن مثل هذه السفارة مما لا تغفره أنثى البتة .

ذكر الرواة أن الغيرة اشتعلت يوماً في صدر أم سلمة لمشهد لمست فيه شدة حب النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة ، فأخذتها الغيرة وجعلت تسب عائشة وجعل النبي صلى الله عليه وسلم ينهاها فتأبى ، وعابن النبي غليظاً في صدر عائشة على هذا العدوان ، فرأى من الحكمة أن ينفس عنه بالقصاص العادل ، فأمر عائشة بسبها كما سبها ؛ فانطلقت أم سلمة إلى علي وفاطمة — وكانا يخاصنها بعطف ورعاية ، وبقيت أم سلمة في حزب علي حتى ماتت فقالت : إن عائشة سبها « وقالت لكم وقالت لكم » . فكره ذلك علي وقال لفاطمة : اذهبي إلى النبي فقولي « إن عائشة قالت لنا وقالت لنا . . . » . فأتته فذكرت ذلك له ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنها حبيبة أبيك ورب الكعبة » .

وكأن هذا الدرس لم يرق لعلي ، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم :

« أما كفالك الآن : قالت لنا عائشة وقالت لنا ، حتى أتتك فاطمة فقلت لها : إنها حبة أبيك ورب الكعبة ؟ »^(١) . وأعل مثل هذه السفارة قد تكرر فحفظت عائشة ذلك كله لعلی وفاطمة .

وينبغي ألا ننسى ونحن نذكر ما يقع مثله عادة بين الأحماء أن نشير إلى أمر آخر مهم كانت السيدة عائشة نفسها هي التي تغار ، ذلك أنها على شدة حظوتها عند الرسول صلى الله عليه وسلم وكثرة محبتها له لم ترزق منه الولد ، وكان عليه الصلاة والسلام كبير الشغف والفرح بأولاد بنته فاطمة كثير الرعاية لهم والحدب عليهم ، وكانت تشهد عائشة من مباسطته لهم العجب العجائب فتشتعل الغيرة في صدرها من الحسن والحسين وتمتد حتى تغار من أبييهما على وفاطمة ، وهذا — وإن كان مبعثه الفطرة ومستفيضاً في كل الأسر — مما لا يجوز إهماله عند محاولتنا الرجوع في الخصومة بينهما إلى آثارها البعيدة الأولى .

ولئن كان من القريب الممكن أن نعتذر لعلی في هذه البوادر التي يكون مثلها في كل أسرة والتي رددنا أمرها إلى ما يكون عادة بين الأحماء ، إن الذي لا نستطيع الاعتذار له هو موقف علی من عائشة في حادث الإفك — لقد وقف منها علی — مع علمه ببراءتها — موقفاً غاية في القسوة . أفصح أبلغ إفصاح عما في نفسه نحوها من تأثر ، وإن مع عائشة الحق كل الحق في ألا تنسى له تلك البادرة التي كادت

نعصف بروحها عصفاً لولا أن لطف الله فأنزل براءتها تنلى في القرآن حتى يوم الناس هذا .

روَّج المنافقون والموتورون من اليهود من أهل المدينة أمر الإفك شفاء لما يمزق قلوبهم من غيظ على نصره الإسلام ودخول المدينة في حكمه ، وتحمل الرسول أذيتهم بصبر بالغ وحكمة واسعة ، ولم يكن يخفى عليه طهر عائشة وبراءتها ونيات المرجفين ، لكنه أمل أن ينزل الله عليه في أمرهم وحياً فلما استبطأ الوحي دعا على بن أبي طالب وأسامة بن زيد يستأمرهما في فراق أهله فأتيا ، فأما أسامة فأثنى خيراً وأشار على رسول الله بالذي يعلم من براءة أهله ، فقال : « يا رسول الله أهلك ولا نعلم إلا خيراً » . وهذا الجواب هو الجواب الوحيد الذي توحى به البدية والروية معاً ، لكن علياً ذهب مذهباً آخر إذ أشار على الرسول صلى الله عليه وسلم أن يطلق عائشة فقال له : « لم يضيّق الله عليك والنساء غيرها كثير . واسأل الجارية تصدقك » . ولم يكتف بذلك بل قام إلى الجارية فضربها^(١) ضرباً شديداً وهو يقول : « أصدقني رسول الله » ، فتقول الجارية : « والله ما أعلم إلا خيراً » ، ولعل علياً ظن هذا الرأي خيراً للرسول مهما جر على عائشة من سوء وظلم ، ولكن إنعام النظر يوحى بأن رأى على لو عمل به لأعقب عواقب جد وخيمة ، تحطيم حياة عائشة البريئة وفجيرة قلب النبي بأحب الناس إليه وحزنه

طول حياته كلما ذكر هذا الحادث ، وأين لأحد أن ينساه ؟ الحق أن من لطف الله بالنبي وآله أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يأخذ رأى الإمام عليه السلام ، وإن مثل هذا الموقف لا ينسى ولا ينتزع ثره من القلب مهما جاهد المرء نفسه ، ولم تنس عائشة - مع كل جهودها المبذولة في كبح عاطفتها - بادرة على هذه حتى واراها التراب ، إقد تفاقم في نفسها أثره مع السنين ووجهها - من حيث لا تشعر - جهة كان فيها للمسلمين أذى بالغ وهي ترى أن فيها الخير لهم كل الخير ، نعم لقد كانت الأيام لا تزيده إلا نمرًا في نفسها حتى رأيناها مندفعة بقوة لا تغالب نحو حرب الحمل بعد ثلاثين سنة من هذا الحادث .

ويقول ابن أبي الحديد كما جاء في شرح نهج البلاغة^(١) : لما خرجت سيدة عائشة رضى الله عنها على على في خلافته جعلت أم سلمة تذكروها هذا الحادث وتقول : « أتذكرين يوم أقبل عليه السلام ونحن ٤٠٠ - نتي إذا هبط من قديد ذات الشمال خلا بعلى يناجيه فأطال ، فأردت أن تهجمي عليهما ، فنهيتك فعصيتني ، فهجمت عليهما فما لبثت أن رجعت باكية فقلت : ما شأنك ؟ فقلت : إني هجمت عليهما لما يتناجيان . فقلت لعلى : ليس لى من رسول الله إلا يوم من تسعة ام . أفما تدعنى يا بن أبى طالب ويومى ؟ فأقبل رسول الله صلى الله

(١) يشكك كثير من الكتاب في صحة هذا القول .

عليه وسلم على وهو غضبان محمر الوجه فقال : ارجعي وراءك ، والله لا يبغضه أحد من أهل بيتي ولا من غيرهم من الناس إلا وهو خارج من الإيمان ، فرجعت نادمة ساخطة ؟

قالت : نعم - أذكر لك . . .

كذلك لما بويع أبوها أبو بكر الصديق قيل إن الإمام علياً امتنع هو وبنو هاشم حتى إذا انقضت على البيعة ستة أشهر وماتت السيدة فاطمة أقبل يبايع^(١) ، ومن طبيعة الأشياء أن تضطغن عائشة على من تخلف عن بيعة أبيها ورأى أنه أحق بالخلافة منه وألا تطيب له نفسها بخير .

وقد كتبنا في الجزء الأول من أهل البيت قصة « فذك » بالتفصيل وقلنا إنه لما قبض الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام وآل الأمر إلى أبي بكر الصديق جاءت فاطمة تطلب من أبي بكر ميراثها : فاعتذر أبو بكر واختلف على وفاطمة مع الخليفة وكان ذلك موضع استياء من السيدة عائشة .

وهناك إشارات عارضة ، فعن عطاء بن يسار قال : جاء رجل فدفع في عليّ وفي عمار رضي الله عنهما عند عائشة فقالت : « أما عليّ فلست قائلة لك فيه شيئاً ، وأما عمار فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا يخير بين أمرين إلا اختار أَرشدهما » .

(١) يراجع الكتاب الأول من أهل البيت « فاطمة الزهراء » .

كذلك عندما سئلت السيدة عائشة في مسألة الوصاية وكان السؤال :
 أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى إلى علي ؟ فقالت : لقد كان
 رأسه في حجرى ، فدعا بالطست فبال فيها ، فلقد انحنث في حجرى
 وما شعرت به ، فتى أوصى إلى علي ؟ (١) .

وروى الطبرى أنه روى عن عائشة أنها قالت : لما اشتد بالرسول
 رجعه دعا نساءه فاستأذنهن أن يمرض في بيتى فأذنّ له ، فخرج رسول
 الله صلى الله عليه وسلم بين رجلين من أهله أحدهما الفضل بن العباس
 ورجل آخر تخط قدماه الأرض عاصباً رأسه حتى دخل بيتى ، قال
 راوى الحديث : فحدثت بهذا الحديث عنها عبد الله بن عباس فقال :
 « هل تدري من الرجل الآخر ؟ » قلت : « لا » قال : « على بن
 أبى طالب ، ولكنها لا تقدر على أن تذكره بخير وهى تستطيع » .

وحتى بعد انقضاء حرب الجمل وانتهاء الأمر بينهما على خير
 م يزل ما بنفسها نحوه ، فقد ذكروا أنه لما انتهى إلى عائشة نزل على
 نالت متمثلة :

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عيناً بالإياب المسافر

فمن قتله ؟ فقيل : رجل من مراد . فقالت :

فإن يك نانياً فلقد نعاها غلام ليس في فيه التراب

فذكروا أن زينب بنت أبي سلمة كانت حاضرة فقالت : « ألعلى تقولين هذا ؟ » فقالت : « إني أنسى فإذا نسيت فذكروني »

وبعض المعاصرين ومنهم الشيخ محمد أحمد فرج السنهوري يذكر أن السيدة عائشة ما خرجت لقتال ، وما خرجت إلا لإقامة الحد على البغاة قتلة عثمان الذين أشعلوا الفتنة وسعوا في الأرض فساداً ولإطفاء الفتنة والإصلاح بين الناس ، استأذن عليها عمران بن حصين وأبو الأسود الدؤلي رسولا أمير البصرة عثمان بن حنيف وهي بالحفير فأذنت لهما ، فدخلوا وسلموا وقالوا إن أميرنا بعثنا إليك لنسألك عن مسيرك هذا ، أعهد عهده إليك رسول الله صلى الله عليه وسلم أم رأى رأيته ؟ فقالت ؟ ما مثلى يغطي لبنة الخير وإن هذا الرأي رأيته ، وإن الغوغاء ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستوجبوا لعنة الله ولعنة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين بلا عذر فاستحلوا الدم الحرام وسفكوه ، وانتهبوا المال الحرام وأحلوا البلد الحرام وحرمة الخلافة وحرمة الشهر الحرام ، فخرجت في المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء وما الناس فيه وراءنا وما ينبغي لهم من إصلاح ، وقرأت : (لا خير في كثير من نجواهم . . .) الآية . فهذا شأننا إلى معروف نأمركم به ومنكر نهاكم عنه - غضبنا لكم من سوط عثمان ولا نغضب لعثمان من سيوفكم ، فقال لما أبو الأسود : فما أنت وسيوفنا وسوط عثمان وأنت حبيس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أملك أن تقرى في بيتك

فجئت تضربين الناس بعضهم ببعض ، فقالت : وهل أحد يقاتلنى ؟
أو تقول غير هذا ؟ فقال الرسول نعم - فهى لم تأت لقتال والقوم هم
الذين يهددون به من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويطالب بإقامة
حُدود الله ، وهو فرض على الناس كافة الرجال والنساء ، وأولى به العلماء
ذوو المكانة وفى طليعهم أم المؤمنين ، ولكن ما للأسود وهذا فليس
اسماً وفعلاً وحرماً وما الأسود وما فقه أم المؤمنين .

ويستمر الشيخ السهوى فى قوله ؛ فيذكر أن أم المؤمنين رضى الله
عنها لم تعص الله ولم تقترف إثماً بهذه الواقعة ، ولا ريب فى أنها ندمت
بعدها وما كان ندمها من أجل ذنب اقترفته ، وإنما كان لإخفاق قصدها
النبيل ولقتل من قتل من الجانبيين ولا استمرار الفتن مشتعلة بين المسلمين ،
وما كانت تعنى شيئاً من هذا حينما استأذن عليها ابن عباس وهى فى
كرب الموت وغمه فقالت له : إني أجد عمّاً وكرباً وأنا مشفقة مما
'خاف أن أهجم عليه ، فقال لها أبشرى فوالله لرسول الله أكرم على
الله من أن يزوجه جمره من جمر جهنم ، فقالت له : « فرجت عنى
نرج الله عنك » ، فما كان إشفاقها من وقعة الحمل وما كان إشفاقها
لا من أجل حساب الحياة كلها ؛ وهذا شأن الأبرار المقربين ، ولقد
سبقها فى ذلك أبوها . وقد روى عن البخارى عن هشام بن عروة عن
أبيه أنها أوصت ابن الزبير أن يدفنها مع صواحبها بالبيع .

ويختتم الشيخ السهوى بحثه بقوله : إن وقعة الحمل لم تنل من

نفسها إلا بقدر ما ذكرت ، ولم تمس مكانتها بين المسلمين أى مساس ، وبقيت طول حياتها العاملة المجتهدة التى يرجع إليها الجميع ذات المكانة الرفيعة ، وكانت تتحدث بفضل الله عليها غير مفاخرة ، وتقول السيدة عائشة : « فى سبع خصال ليست فى أحد من أزواج النبی صلى الله عليه وسلم : تزوجنى النبی صلى الله عليه وسلم بكرًا ، ولم يتزوج أحدًا من نسائه بكرًا غيرى ، ونزل إليه جبريل بصورتى قبل أن يتزوجنى ، ولم ينزل بصورة أحد من نسائه غيرى ، ورأيت جبريل ، ولم يره أحد من أزواجه غيرى ، وكنت من أحبهن إليه نفساً والداً ، وكان جبريل ينزل عليه بالوحي وأنا معه فى شعار ، ولم يكن يأتيه وهو مع أحد من أزواجه غيرى ، ونزل فى آيات من القرآن كاد يهلك فى فقام من الناس ، ومات فى يومى وليلتى وبين سحرى ونحرى .

وروى ابن سعد وابن أبى شيبه أنها قالت أعطيت تسع خلال ما أعطيتها امرأة : والله ما أقول هذا فخرًا — نزل الملك بصورتى ، وتزوجنى لسبع ، وأهديت إليه تسع ، وتزوجنى بكرًا ، وكان الوحي يأتيه وأنا وهو فى لحاف واحد ، وكنت أحب الناس إليه وبنت أحب الناس إليه ، ولقد نزلت فى آيات من القرآن وقد كادت الأمة تهلك فى ، ورأيت جبريل ولم يره أحد من نسائه غيرى ، وقبض فى بيتى لم يله أحد غيرى وغير الملك . . أما الشيعة فيرون أن السيدة عائشة أخطأت بخروجها على الإمام العادل مظهرة الطلب بدم عثمان ، وهى كانت من أعظم المحرضين

عليه ، وكانت تقول ما هو معروف مشهور ، وتخرج قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد تركت عثمان وهو محصور لم تنصره ولم تحرض على نصره ، وخرجت إلى مكة فبقيت فيها حتى قتل ، ثم خرجت من مكة تريد المدينة وهي لا تعلم بقتله ، روى الطبرى وابن الأثير أنها لما كانت بسرف لقيها ابن أم كلاب وهو من أخوالها فقالت له : مهيم ؟ قال : قتل عثمان ، قالت : ما صنعوا ؟ قال : أخذها أهل المدينة بالاجتماع ، فجازت بهم الأمور إلى خير مجاز ، وحارت بهم خير محار ، اجتمعوا على بيعة على : فقالت : ليت هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك ، ردوني ، ردوني . فانصرفت إلى مكة وهي تقول : قتل والله عثمان مظلوماً . والله لأطلبن بدمه ، فقال لها : ولم والله ؟ إن أول من أمال حرفه لأنت ، ولقد كنت تقولين : اقتلوا نعثلاً فقد كفر ، قالت : إنهم استتابوه ثم قتلوه ، وقد قلت وقالوا ، وقولى الأخير خير من قولى الأول ، فقال لها ابن أم كلاب :

فمنك البداء ومنك الغير	ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الإمام	وقلت لنا إنه قد كفر
فهينا أطلعناك فى قتله	وقاتله عندنا من أمر
ولم يسقط السقف من فوقنا	ولم تنكسف شمسنا والقمر
وقد بايع الناس ذا تدرا	يزيل الشبا ويقيم الصعر
ويلبس للحرب أثوابها	ومامن وفى مثل من قد غدر

وقد أمرت أن تقر في بيتها بقوله تعالى : (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى) .

ويعتذر المعتذرون لها بأنها اجتهدت فاخطأت أو أذنبت فتابت ورحمة الله واسعة ، ويصعب علينا^(١) التصديق بأن هذا كان اجتهاداً . وإذا جردنا أنفسنا عن التقليد ونظرنا نظراً لم يتأثر بشيء وجدناه بعيداً عن الاجتهاد غاية البعد ، وقد قال البعض من الشيعة :

عائش ما نقول في قتالك سلكت فيه سبل المهالك

ويا حميرا سبك محرم ولأجل عين ألف عين تكرم

وروى أبو الفرج الأصبهاني في مقاتل الطالبيين بسنده أنه لما جاءها قتل علي بن أبي طالب سجدت ، وروى فيه أبو الفرج أيضاً ومحمد ابن سعد في الطبقات وذكره المرزباني في معجم الشعراء والطبري في تاريخه وابن الأثير في الكامل : أنه لما أتاها نعيه تمثلت :

فألقت عصاها واستقرت بها النوى كما قر عيناً بالإياب المسافر

ثم قالت : من قتله ؟ قيل : رجل من مراد : فقالت :

فإن يك نائياً فلقد نعاه غلام ليس في فيه التراب

قال أبو الفرج : ثم تمثلت :

ما زال إهداء الصغائر بيننا شتم الصديق وكثرة الألقاب

(١) أعيان الشيعة (السيد محسن الأمين) الجزء الأول - القسم الثاني .

حتى تركت كأن قولك فيهم في كل مجتمع طنين ذباب

إل هنا أجدنى قد أجبت عن السؤال الذى طرحته عن سبب خروج
 لسيدة عائشة رضى الله عنها ، ثم أجدنى أ طرح السؤال الثانى والأخير ،
 هو : على من تقع تبعة حرب الحمل المشتومة ؟ ويحيب عن هذا
 لسؤال الأستاذ سعيد الأفغانى فيقول : إن الذى يحمل شر هذه الفتنة
 مباشرة هم الذين حملوا لثم قتل عثمان والمأليب عليه ، فالسبئيون هم
 الذين ائتمروا بالحيثين وقد أشرفوا على الصلح وأسرعوا فباغتوا الطرفين
 نشاب القتال - وأعجلوها عن التروى والتثبت ، فعابهم إذن وحدهم
 بريئة هذه الألوف الخمسة عشر من الدماء المهرقة ، كما كان عليهم
 حدهم لثم قتل عثمان مباشرة ، فإذا بلغنا من عليهم التبعات الثانوية
 غير المباشرة فمن قصر أو أخطأ فى اجتهاده أو انصاع إلى طموح
 سه أو غلبته منافسته لأخيه ؛ وجدنا ترتيب أنصباهم من البيعة فى حرب
 لحمل على ترتيبها فى الحملة على الخليفة عثمان رحمه الله : من غش
 استثنائاً بالمنافع ؛ أو تقصير فى حقه أو خذلان له أو مجاهرة بنقده ،
 وفاهم فصياً منها الأيوون ثم طلحة فالزبير فعائشة فعلى :

١ - أما الأيوون فكانوا قد استغلوا قرابة عثمان أسوأ استغلال ،
 بدلوه بما كان يجب له عليهم من المناصحة والعفة : احتكاراً للأعمال
 متشئراً بالأموال وإبعاداً لمن كرهوا من أهل الكفايات ، حتى كانت
 لهم هذه أشد ما أرث على عثمان ، فلما أن قتل انسلوا من أطراف

البلاد ، واجتمعوا بمكة بعددهم وعددهم وما حملوا من أعمالهم من أموال الله : ينفخون في الشر ويحرضون على الطلب بدم عثمان ويستغلون أهواء كل من أحسوا منه كرهاً لعلى أو منافسة له ، وأظهروا ذلك كله ، وأضمرؤا من ورائه أمراً آخر : قتل طلحة والزبير ورؤوس الناس من سواهم ، وودوا أن يقتل غيرهم عائشة . . . ليخلص لهم الأمر ويرجع في بنى أمية وقد خلت الأرض من منافس لهم .

ويعد يوم الجمل بالنسبة للأمويين هو اليوم الذى كان لهم ما بعده : بحيث تولوا من قاتلوا فيه علياً وكافأوهم ، ولم يغتفروا لمن قصر فيه ، وهذا معاوية وقد صار خليفة يدخل عليه الأحنف بن قيس سيد أهل البصرة فيجبهه بهذا القول : أنت الشاهر علينا السيف يوم صفين والمخذل أم المؤمنين .^(١) وبحق يعد الأمويون ، ورأسهم في هذه الفتنة مروان ، حلقة وسطى تلى السبثيين أصحاب التبعة المباشرة في هذه الدماء .

٢ - وأما طلحة - فكما كان أشد أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله عليه وسلم على عثمان^(٢) ، كان هنا أيضاً أشد الناس على على وأكرههم لخلافته وأوفرهم سعيًا في التأليب عليه . وأطولهم يداً في تحريض الجماهير على المطالبة بدم عثمان وسوقهم إلى البصرة ، وقد علم : أن إقامة الحدود من حق الإمام لاحق الغوغاء ، وأن أولياء عثمان - وليس هو منهم - أولى

(١) تهذيب تاريخ ابن عساکر .

(٢) كلمة محمد بن سيرين (العقد الفريد ٨٦/٣) .

منه بهذه الدعوى ، وأن هذا الطلب لم يكن في وقته المناسب وأن ثمرته
إضعاف أمر عليّ لا الثأر الحقيقي لعثمان .

٣- وأما الزبير فأمره قريب من أمر طلحة وإن لم يبلغ مبلغه
في لدد الحصومة والقوة فيها ، ولعل ابنه عبد الله أرفى منه نصيباً من
التبعة .

٤- وأما السيدة عائشة رضى الله عنها فتقدّمها عثمان كان أشد عليه
لا لها من الحرمة والإجلال ونفاذ الكلمة ، وقد عرف الأمويون وطلحة
والزبير ما يكون لدعواهم من القوة إذا نهضت بها معهم عائشة ، وعرفوا
ما تكن من الكره لخلافه علي ، فما زالوا يفتلون لها في الذروة والغارب
حتى نهضت لما أنهضوها ، وحملت من هذه الفتنة نصيبها ، ويكاد
يكون من المقطوع به أن الأمور لم تكن لتصل إلى العاقبة السيئة التي
ننت بها هذه المأساة لو غابت أم المؤمنين عن فتنة الجمل ، ولقد عرف
الإمام مصيبته فيها حق المعرفة حين قال : « حاربت خمسة
طوع الناس في الناس : عائشة » ^(١) ، لقد كانت السيدة لهذه الفتنة -
من حيث لا تريد - روحها ، وكان مقامها فيها أقوى ما حفز الجماهير
على النطوع لها ، وعلى تهاقهم على الاستماتة بين يدي جمل عائشة ،
قد كان في طبعها ولوع عظيم بالبطولة وإعجاب بالشجاعة ومقت
لمجبن ، لذلك لم تكن تنفك عن تحريض الناس وتقوية قلوبهم ،

وكان لهذا التحريض والتقوية أثرهما البالغ في الاستماتة بين يديها على ما مر بك ، ولقد أثر عنها قولها : « إن الله خلقاً قلوبهم كقلوب الطير - كلما خفقت الريح خفقت فأفّ للجناء » . هذا وقد أكثر الناصحون من أخواتها أمهات المؤمنين وأصحاب رسول الله الأجلاء وعقلاء أهل المصرين : البصرة والكوفة ، فلم تستجب لنصح أحد ، ونفذ قضاء الله ، والله سبحانه أعفى النساء من الدخول فيما هو من شأن الرجال ، فلم يكلفهن سياسة ولا إدارة ولا إثارة جماهير ولا تجبيش جيوش ولا تأليباً على الخلفاء ، فإن باشرن شيئاً من هذا كان ذلك هو الفتنة عينها ، وكان المجتمع حينئذ يعالج داء دخيلاً في كيانه ينذر بالشر المستطير .

هـ - وأما الإمام فالحق أنه لا يحمل هنا من التبعة شيئاً - لقد فر من الشر فراراً - صبر عليه وطاوله ، وغاب عن وجهه والشر يلاحقه ، وكان أكره الجميع للفتنة وإلراقة الدماء ، لكن المحافظة على وحدة الأمة وواجب القضاء على الفتن ألزمه المبادرة إلى المخالفين ، فأرسل الرسل والمفاوضين وبذل من نفسه خير ما يبذل امرؤ بعيد عن الشر هرباً منه ، وقد وجه الفريقين إلى الصلح حتى كاد يتم لولا عنصر الشر في جيشه : السبثيون .

بقي أن أقول قبل أن أختم هذا الموضوع إنه ليس شيء أدل على استفظاع الناس ما قامت عنه فتنة الجمل من حال أصحاب الجمل أنفسهم كما سيأتي بيانه :

١ - لقد ندم طلحة ، وأصابته حيرة قاتلة ، وكان يكثر التفكير ويقول : « اللهم خذ مني لعثمان حتى يرضى » .

٢ - وكان الزبير أكثر ندماً ويقول : « مغلوب مطلوب يغلبني ابني ويطلبني ذنبي » ، حتى لقد هم بترك القتال في أوله لولا تعيير ابنه عبد الله وتعيير عائشة . ثم ترك القتال واعتزل .

٣ - أما علي فقد بينت حسرته لما رأى القتلى وعظم الخسارة بهم .

٤ - أما السيدة عائشة فقد قلبت صفحات التائبين والنادمين فما رأيت حسرة أشد من حسرتها ، ولا توبة أصدق ولا أخلص من توبتها ، ولا ندماً أعظم لإلاماً من ندمها ، لقد قتلها الندم قتلاً ، فما أكثر ما تمنّت أن لم تكن خلقت ، وما أكثر ما تمنّت أن تكون حجراً أو مدرة ، وكانت تقول : « لأن أكون قعدت في منزل عن مسيرى لي البصرة أحب إلى من أن يكون لي عشرة من الولد - كلهم مثل عبد الرحمن بن الحارث بن هشام » .

والظاهر أنها كانت تكثر من هذه الحسرة ، فقد روى الدينوري أنها مثل هذا الحديث ؛ قالت : « وددت لو قعدت في بيتي ولم أخرج ، هذا الوجه "تغني إلى البصرة" ، لكان أحب إليّ من عشرة أولاد ورزقهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم على فضل عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وعقله وزهده » .

ولقد ذكر عندها يوم الحمل مرة فبكّت حتى ظنوا أنها لن تسكّت ،

وكانت إذا قرأت قوله تعالى: « وقرن في بيوتكن . . . » بكت حتى تبلّ خمارها . وعندما وافاها أجلها وقالوا لها : « تدفين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم » ؟ قالت : « لا — إني قد أحدثت بعده ، ادفنوني مع أزواج النبي في البقيع » — ^(١) وكانت أم المؤمنين تقول أيضاً : « ليتني لم أخلق » ، « يا ليتني كنت شجرة أسبح وأقضي ما على » ، « والله لوددت أني كنت شجرة — والله لوددت أني كنت مدرة » ، « لوددت أن الله لم يكن خلقتي شيئاً قط » ، « ليتني مت قبل يوم الحمل بعشرين سنة » .

المأساة الثانية

إمام ومعاوية

نقدم لهذه المأساة بما قاله أستاذنا العميد الدكتور طه حسين ن المسلمون من أهل المدينة يعرفون مكان العمال الذين أمرهم عثمان بـ الأمصار . ويقدرّون أنهم جميعاً ، أو أن بعضهم على الأقل ، ينكرون الخلافة الجديدة ويجادلون الخليفة في سلطانه غضباً لعمان بـ ولاهم ، وكانوا يخافون من هؤلاء العمال بنوع خاص معاوية ، أبي سفيان عامل عثمان على الشام ، يعرفون قرابته من الخليفة المقتول ، يعرفون طاعة أهل الشام له لطول إقامته فيهم وإمرته عليهم منذ عهد ر . وكانوا يعرفون مكانة معاوية من بني أمية ، ويعرفون الحصومة ديمة بين بني أمية وبني هاشم قبل أن يظهر الإسلام . وحين انتقل بـ صلى الله عليه وسلم وأصحابه بدينهم الحديد إلى المدينة أصبح سفیان قائد قریش بعد أن قتل قادتها وسادتها يوم بدر . وهو الذى بـ بقریش يوم أحد فنأر لقتلى بدر من المشركين ، وامراته هند معاوية هى التى اعتقت وحشياً أن قتل حمزة ، فلما قتله أقبلت ميدان الموقعة . وبحث عن حمزة حتى وجدته بين القتلى ، فبقرت

بطنه واستخرجت كبده فلاكها . وأبو سفيان هو الذى قاد قريشاً يوم الخندق ، وألب العرب على النبي وأصحابه ، وأغرى اليهود حتى نقضوا عهدهم مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ؛ وأبو سفيان هو الذى ظل يدبر مقاومة قريش للنبي وكيدها له ومكرها به حتى كان عام الفتح ، فأسلم حين لم يكن له من الإسلام بد .

ومهما يقل الناس فى معاوية من أنه كان مقرباً إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بعد إسلامه ، ومن أنه كان من كتاب الوحي ومن أنه أخلص للإسلام بعد أن ثاب إليه ، ونصح للنبي صلى الله عليه وسلم وخلائه الثلاثة ، مهما يقل الناس فى معاوية من ذلك ، فقد كان معاوية هو ابن أبي سفيان قائد المشركين يوم أحد ويوم الخندق ، وهو ابن هند التى أغرت بحمزة حتى قتل ، ثم بقرت بطنه ولاكت كبده ، وكادت تدفع الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه إلى الجزع على عمه الكريم ، وكان المسلمون يسمون معاوية وأمثاله من الذين أسلموا بأخرة ومن الذين عفا النبي عنهم بعد الفتح والطلاق ، لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

هذه مقدمة لا بد منها للمأساة الثانية التى جاءت الإمام علياً من بلاد الشام ، وكانت بدون شك أشد هولاً ، ولا تزال آثارها باقية إلى الآن ، فالحصم^(١) فى الشام عنيف يحيط به جند أو لو قوة وأولو بأس

(١) الفتنة الكبرى - عيد الأدب العربى الدكتور طه حسين .

شديد ، فأما عنف هذا الخصم وهو معاوية فيمكن أن نقدره حين نلاحظ أنه ابن أبي سفيان الذى حارب النبي بعد بدر فأبلى في حربه أشد البلاء وأقواه ، وأظهر في هذه الحرب قوة وقسوة وكيداً ودهاء ، ولم يسلم إلا بأخرة حين لم ير من الإسلام بدءاً ، وحين لم يكن له إلا أن يخنار بين الإسلام والموت ، وقد ورث معاوية عن أبيه قوته وقسوته وكيده ودهاءه ومرونته كذلك ، ولم تكن أم معاوية بأقل من أبيه تنكراً للإسلام وبغضاً لأهله وحفيظة عليهم ، وهم قد وتروها يوم بدر ، فثار لها المشركون يوم أحد ، ولكن ضعفها لم يهدأ وحفيظتها لم تسكن حتى فتحت مكة ، فأسلمت كارهاً كما أسلم زوجها كارهاً .

وزيادة على ذلك أن معاوية كان ينظر الإمام فى ثبات وثقة واطمئنان ، وكان معاوية يسير سيرة أقل ما توصف به - كما يقول أستاذنا العميد الدكتور طه حسين - أنها سيرة الرجل العربى الجواد الداهية ، يعطى الناس ما وسعه إعطاؤهم ، ويصل الذين يريد أن يتألفهم من الرؤساء والقادة لا يجد فى ذلك بأساً ولا جناحاً ، فكان الطامعون يجدون عنده ما يريدون ، وكان الزاهدون يجدون عند على ما يحبون ، أما الإمام فقد كان مؤمناً بالخلافة كما تصورها المسلمون أيام أبى بكر وعمر ، وفى الصدر الأول من خلافة عثمان ، يرى أن من الحق عليه أن يقيم العدل بأوسع معانيه بين الناس لا يؤثر منهم أحداً على أحد ، ويرى أن من الحق عليه أن يحفظ على المسلمين ما لهم ،

لا ينفقه إلا بحقه ، فهو لا يستبيح لنفسه أن يصل الناس من بيت المال ، بل هو لا يستبيح لنفسه أن يأخذ من بيت المال لنفسه وأهله إلا ما يقيم الأود لا يزيد عليه . جاءه أخوه عقيل بن أبي طالب مسترفداً فقال لابنه الحسن : إذا خرج عطائي فسر مع عمك إلى السوق فاشتر له ثوباً جديداً ونعلين جديدتين .

وكما بينت كان معاوية ينتظر في اطمئنان لم يتعرض للحرب ، على حين يهتم الإمام بأمر المؤمنين ومن معها يريد أن يردهم إلى الطاعة ، وكانت نتيجة حرب الحمل كما بينت أن اقتتل الشيوخ من المهاجرين والأنصار ، فقتل طلحة والزبير وعادت أم المؤمنين إلى المدينة ، وكثر القتل في أهل البصرة والكوفة ، وبذلك يكون الإمام قد خاض حرباً منكراً قتل فيها من شيعته ومن عدوه خلق كثير .

وكانت سياسة معاوية تعظيم قتل عثمان ، وكان معاوية قد أشار على عثمان قبل قتله برأى قال فيه : « الرأي أن تأذن لي بضرب أعناق هؤلاء القوم ، قال : من ؟ قال : علي وطلحة والزبير . قال عثمان : سبحان الله ! . أقتل أصحاب رسول الله بلا حدث أحدثوه ، ولا ذنب كبوه ؟ قال معاوية : فإن لم تقتلهم فلأنهم سيقتلونك . قال عثمان : لا أكون أول من خلف رسول الله في أمته بإهراق الدماء .

قال معاوية : فاختر مني إحدى ثلاث خصال .

عثمان : ما هي ؟

معاوية : أرتب لك ههنا أربعة آلاف من خيل أهل الشام ،
يكونون لك رداءً وبين يديك بدءاً .

عثمان : من أين أرزقهم ؟

قال : من بيت المال .

عثمان : أرزق أربعة آلاف من الجند من بيت مال المسلمين
لحرز دمي ؟ لا فعلت هذا !

قال : فثانية .

قال : وما هي ؟

قال : فرقهم عنك فلا يجتمع منهم اثنان في مصر واحد ، واضرب
عليهم البعوث والندب حتى يكون دبر بعير أحدهم أهم عليه من صلاته .

قال عثمان : سبحان الله ! شيوخ المهاجرين وكبار أصحاب رسول
الله وبقية الشورى أخرجهم من ديارهم وأفرق بينهم وبين أهليهم وأبنائهم ؟
لا أفعل هذا .

قال معاوية : فثالثة .

قال : وما هي ؟

قال : اجعل لي الطلب بدمك إن قتلت .

قال عثمان : نعم هذه لك . إن قتلت فلا يطل دمي^(١) .
وفي رواية أخرى أن معاوية قال له غير ذلك : أخرج معي إلى الشام
قبل أن يهجم عليك مالا تطيقه . قال : لا أبتغي بجوار رسول الله
بدلاً .

ويعلق الأستاذ العلامة المرحوم العقاد على الآراء التي أشار بها
معاوية على الخليفة فيقول : ما من رأى منها إلا النفع فيه ثابت لمعاوية
غير ثابت لعثمان ، وربما كان في معظمها ما يضره ولا يجديه ، فليس
قتل على وطلحة والزبير بالأمر الهين الذي يدفع الشر عن الخليفة ،
وليس هو بالخطئة التي يختارها معاوية لنفسه لو كان في موضع عثمان ،
وقد أعنى معاوية نفسه من التضيق على صعصعة ورهطه كما ضيق عليهم
عبد الرحمن بن خالد ، فليس من خطئه التي يختارها لنفسه ويحمل
تبعها على عاتقه أن يقتل ثلاثة من أقطاب الصحابة كعنى وطلحة والزبير ،
كما أشار على عثمان ، وإنما يبوء عثمان بتبعها ويترك الأمر من بعده
لمعاوية بغير منافس ينافسه عليها بعد مقتل الثلاثة الذين كانوا مرشحين
لها عند أهل الحجاز وأهل الكوفة وأهل مصر ، أما أهل الشام فهم
في ولايته لا يعرفون أحداً غيره ينافسه باسمهم عند اختلاف المختلفين ،
وليس ثمة مختلفون إذا نفذ القضاء في الأقطاب المقتولين .

وأما الإشارة على عثمان بإقامة أربعة آلاف من خيل الشام بحرسونه ؛

(١) الإمامة والسياسة .

فهو تسليم الحجاز إلى يدى معاوية فى حياة الخليفة وبعد حياته ، فلا يقدر أحد على بيعه فيه غير البيعة التى يرضاها ، ولا تقع هذه البيعة أصلاً لمن يستجيب لها أولاً يستجيب ، والخروج من المدينة إلى الشام مع معاوية ينقل العاصمة إلى دمشق ، ويجعل القول الفصل بعد موت الخليفة لصاحب القول الفصل فيها ، وما من أحد قط ينتفع من العمل بهذه النصائح غير معاوية فى جميع الحالات ، والدليل على منفعة معاوية بتلك المطالب التى عرضها على الخليفة فى شدته مطلبه أن تكون له ولاية الدم بعد مقتله ، فإنه بمثابة ولاية العهد بإذن صاحب الأمر ؛ إذ كان القصاص إنما يتولاه القائم بالشرعية حيث تقام حدود الدين ، ولم يكن عثمان ليخشى عليه القتل من فرد يعتدى عليه غيلة فيكون عمل ولى الدم أن يقتاده إلى الحاكم القائم بالشرعية ، ولكنه خشى عليه القتل من جماعات ثائرة لا يتولى إدانتها والقصاص منها غير صاحب سلطان أقوى من سلطانها وسلطان من تؤيده وتطيعه على شرطها ، فإذا كان معاوية قد طلب ولاية الدم بعد مقتل عثمان فقد طلب ولاية العهد ، وفارقه وهو يعلم أنه مقتول .

وأوشك الخليفة أن يقتل ، فإذا نظرنا فى أرجاء العالم الإسلامى يومئذ لم نجد أحداً أقدر على نجده من معاوية ، لأنه الوالى المستقر ولايته منذ عشرين سنة يقصى عنها كل من يعاديه ويبقى فيها كل من يواليه ، وغيره من الولاة فى ذلك العهد بين معزول أو معتزل أو الإمام على

مهدد في سلطانه كما هدد الخليفة في عاصمته ، ومن كان حول الخليفة من أسرياء المدينة لم يكن في وسعه أن ينصره بقوة أقوى من الدولة وحراسها وأشياعها ، فإذا جمح السفهاء جماعهم الذي يغلب الدولة على قوتها وهيبتها فحرى ألا يصده زاجر ولا ناصح ممن لا يملكون غير الزجر والنصيحة ، وفي تاريخ الخلفاء للسيوطي أن ذوى الحرأة من المعارضين لعثمان يلقون معاوية بهذا اللوم كلما أخذهم باللوم لأنهم لم ينصروه ، ومن هؤلاء أبو الطفيل عامر بن واثلة الصحابي .

قال له معاوية : ألسنت من قتلة عثمان ؟

قال أبو الطفيل : لا ، ولكنني ممن حضره فلم ينصره .

قال : وما منعك من نصره ؟

قال : لم ينصره المهاجرون والأنصار .

قال معاوية : أما لقد كان واجباً عليهم أن ينصروه ؟

فقال أبو الطفيل : فما منعك يا أمير المؤمنين من نصره ومعك أهل الشام .

فقال معاوية : أما طلبي بدمه نصره له ؟

فضحك أبو الطفيل ثم قال أنت وعثمان كما قال الشاعر !

لا ألفينك بعد الموت تندبني وفي حياتي ما زودتني زادي

ووقعت الواقعة . ومات الخليفة قتيلاً . وذهب معاوية يطالب

بدمه ، وينكر على عليّ بيعته لأنه لا يسلمه قتلة عثمان ممن يذكرهم إجمالاً أو يسميهم بأسمائهم ، وآل الأمر كله بعد حين إلى معاوية يصنع بهؤلاء ما يشاء ، فلم يأخذ واحداً منهم بجريرة مشهودة ، ولم يحاسب أحداً على جريرة مستورة تتطلب الإشهاد ، وكان يلقي الرجل منهم فلا يزيد على أن يسأله كما سأل أبا الطفيل : ألسنت من قتلة عثمان ؟ ثم يصرفه في أمان ، وقد يسكت عن سؤاله ويصرفه مزوداً بالعطاء .

وظهر من مبدأ الخصومة أن الغيرة على عثمان لم تكن تلك الغيرة لللاعجة التي تثير الثائرة وتضرم الحروب ، فإن معاوية قد حالف عمرو بن العاص وكافأه بولاية مصر ، وهي ولاية عزله منها عثمان .

ولم يخف هذا الموقف الذي لا خفاء به على أبناء عثمان وبناته ، فقد قدم معاوية بعد عام الجماعة فدخل دار عثمان بن عفان ، فصاحت عائشة ابنة عثمان وبكت ونادت أباها ، فقال معاوية : يا بنة أخى ، ن الناس أعطينا طاعة وأعطيناهم أماناً ، وأظهرنا لهم حلماً تحت غضب ، أظهروا لنا ذلاً تحت حق ، ومع كل إنسان سيفه ويرى موضع أصحابه ، إن نكثناهم نكثوا بنا ، ولا ندرى أعلينا تكون أم لنا ، ولأن تكوني بنة عم أمير المؤمنين خير من أن تكوني امرأة من عرض الناس^(١) .

فالمطالبة بدم عثمان إنما كانت — كما يقول المرحوم الأستاذ عباس

العقاد - قضية قائمة حين كانت لازمة للتحريض على عليّ وبث الدعوة والتمكين لمعاوية ، فلما تمكن واستطاع ما لم يكن في وسع علي أن يفعله سكت عن الثأر وحديثه ، إلا ما كان من قبيل الحوار العقيم في المجالس ، وقبل من نفسه العذر ضعيفاً هزيباً ، ولم يكن يقبله قوياً معزراً بالواقع والبيئة ممن لا لوم عليه ؛ وأخيراً فإن كل ما فعله معاوية من نصرة عثمان قبل مقتله وبعده ثابت النفع لمعاوية غير ثابت النفع لعثمان ، وبذلك تكون الثورة التي ثارها معاوية باسم عثمان ثورة في طلب الملك أعوزتها الحجة فالتمسها من مقتل الخليفة الشهيد !

رسول الإمام إلى معاوية :

بعث الإمام علي جرير بن عبد الله البجلي إلى معاوية ، وانطلق جرير حتى أتى الشام ، ودخل على معاوية فقال : « أما بعد يا معاوية فقد اجتمع لابن عمك أهل الحرمين وأهل المصريين وأهل الحجاز واليمن ومصر وأهل العروض وعمان وأهل البحرين واليامة ، ولم يبق إلا هذه الحصون التي أنت بها لو سال عليها سيل من أوديته غرقها ، وقد أتيتك أدعوك إلى ما يرشدك ويهديك إلى مبايعة هذا الرجل ، ودفع إليه كتاب الإمام علي وفيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم » سلام عليك . أما بعد فإن بيعتي بالمدينة لزمته وأنت بالشام ، لأنه بايعني الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان،

على ما بويعوا عليه ، فلم يكن للشاهد أن يختار ، ولا للغائب أن يرد ، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار ، فإذا اجتمعوا على رجل وسموه إماماً كان ذلك لله رضى ، فإن خرج عن أمرهم خارج بطعن أو رغبة دوه إلى ما خرج منه ، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين وولاه الله ما تولى ، وأصله جهنم وساءت مصيراً ، وإن طلحة والزبير بايعانى ثم نقضا بيعتى وكان نقضهما كردهما ، فجاهدتهما بعد ما أعذرت إليهما ، حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ، فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، فإن أحب الأمور إلىّ قبولك العافية ، إلا أن تتعرض للبلاء ، فإن تعرضت له قاتلتك واستعنت الله عليك ، وقد أكرمت فى قتلة عثمان ، فأدخل فيما دخل فيه الناس ، ثم حاكم القوم إلىّ أحملك وإياهم على كتاب الله ، وأما تلك التى تريد فخدعة الصبي عن اللبن ، ولعمري لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدننى أبرأ قريش من دم عثمان ، واعلم أنك من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة ولا يدخلون فى الشورى ، وقد أرسلت إليك وإلى من قبلك جرير بن عبد الله وهو من أهل الإيمان والهجرة ، فبايعه ، ولا قوة إلا بالله .

فكتب معاوية رسالة أرسلها إلى الإمام على مع أبى مسلم عبد الرحمن جاء فيها : « بسم الله الرحمن الرحيم . من معاوية بن أبى سفيان إلى على بن أبى طالب . أما بعد فإن الله اصطفى محمداً بعلمه ، وجعله الأمين على وحيه والرسول إلى خلقه ، ثم اجتبى له من المسلمين أعواناً

أيده بهم فكانوا في المنازل عنده على قدر فضائلهم في الإسلام ، وكان أنصحهم لله ورسوله خليفته ثم خليفة خليفته ثم الخليفة الثالث المقتول ظملاً عثمان ، فكلهم حسدت ، وعلى كلهم بغيت ، عرفنا ذلك في نظرك الشرر وقولك الهجر . وتنفسك الصعداء ، وإبطائك عن الخلفاء ، في كل ذلك تقاد كما يقاد الحمل المخشوش ، ولم يكن لأحد منهم أشد حسداً منك لابن عمك ، وكان أحقهم ألا تفعل به ذلك لقربته وفضله ، فقطعت رحمه ، وقبحت حسنه ، وأظهرت له العداوة ، وأبطنت له الغش ، وألبت الناس عليه حتى ضربت آباط الإبل إليه من كل وجه ، وقيدت الخيل من كل أفق ، وشهر عليه السلاح في حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقتل معك في المجلة وأنت تسمع الهائعة لا تدراً عنه بقول ولا فعل ، ولعمري يابن أبي طالب لو قمت في حقه مقاماً تنهى الناس فيه عنه وتقبج لهم ما اهتملوا منه ما عدل بك من قبلنا من الناس أحداً ، ولمحا ذلك عندهم ما كانوا يعرفونك به من المجانية له والبغى عليه ، وأخرى أنت بها عند أولياء ابن عفان ظنين : إيوائك قتلته فهم عضدك ويدك وأنصارك ، وقد بلغني أنك تنتفي من دم عثمان وتبرأ منه ، فإن كنت صادقاً فادفع إلينا قتلته نقتلهم به ، ثم نحن أسرع الناس إليك ، وإلا فليكن بيننا وبينك السيف ، والذى لا إله غيره لنظلمن قتلة عثمان في الجبال والرمال والبر والبحر حتى نقتلهم أو تلحق أرواحنا بالله ، والسلام .

ومن هذا الخطاب المملوء بالمغالطات نرى :

- ١ - أن معاوية لم يكن يريد السلم .
 - ٢ - أن معاوية اتهم الإمام بحسد الخلفاء وعدم الإسراع في بيعتهم ، وأنه لم يبايع إلا مضطراً .
 - ٣ - أنه يتهم أيضاً الإمام بحسد ابن عمته والقعود عن نجدة حتى ضيق عليه الناثرون به .
 - ٤ - يطلب معاوية من الإمام أن يثبت براءته من دم عثمان بتسليم قاتليه .
 - ٥ - أنه تحدى الإمام بزعمه للإمام أنه إذا دفع إليه قتلة عثمان أسرع ومعه أهل الشام إلى بيعته .
- وقد بينت فيما سبق بالتفصيل أن تلك الغيرة على عثمان لم تكن إلا حجة فقط لكي يستر بها مهاجمته للإمام ، كما بينت أن هذا الموقف لم يكن خافياً على أبناء عثمان ولا على الناس جميعاً .

الإمام يرفض ويرد :

وقد رفض الإمام ما طلبه معاوية ، ورد بالكتاب الذي قال فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله على أمير المؤمنين إلى معاوية ابن أبي سفيان : أما بعد ، فإن أخا خولان قدم على بكتاب منك تذكر

فيه محمداً وما أكرمته الله به من الهدى والرحمن ، فالحمد لله الذى صدق له الوعد ومكن له فى البلاد وأظهره على الدين كله ، وقمع به أهل العداوة والشنآن من قومه الذين كذبوه وشنعوا عليه ، وظاهروا عليه وعلى إخراج أصحابه ، وقلبوا له الأمور حتى ظهر أمر الله وهم له كارهون ، فكان أشد الناس عليه الأدنى فالأدنى من قومه إلا قليلاً ممن عصم الله .

وذكرت أن الله جل ثناؤه وتباركت أسماؤه اختار له من المؤمنين أعواناً أيده بهم فكانوا فى منازلهم عنده على قدر فضائلهم فى الإسلام ، فكان أفضلهم خليفته وخليفة خليفته من بعده ، ولعمري إن مكانهما من الإسلام لعظيم ، وإن المصائب بهما لرزة جليل . وذكرت أن ابن عفان كان فى الفضل ثالثاً ، فإن يكن عثمان محسناً فسيلقى رباً شكوراً يضاعف الحسنات ويجزى بها ، وإن يكن مسيئاً فسيلقى رباً غفوراً رحيماً لا يتعاضمه ذنب أن يغفره وإنى لأرجو - إذا أعطى الله المؤمنين على قدر أعمالهم - أن يكون قسمنا أوفر قسم أهل بيت من المسلمين .

إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم فدعا إلى الإيمان بالله والتوحيد له ، فكنا أهل البيت أول من آمن وأتاب ، فكثنا وما يعبد الله فى ريع سكن من أرباع العرب أحد غيرنا ، فبغانا قومنا الغوائل وهما بنا المموم ، وألحقوا بنا الوسائط ، واضطرونا إلى شعب ضيق وضعوا علينا فيه المراضد ، ومنعونا الطعام والماء العذب ، وكتبوا بينهم كتاباً ألا يؤاكلونا ولا يشاربونا ولا يُبايعونا ولا يناكحونا ولا يكلمونا أو ندفع إليهم نبينا فيقتلوه

أو يمثلوا به ، وعزم الله لنا على منعه والذب عنه وسائر من أسلم من قريش أخلياء مما نحن فيه ، منهم من حايث ممنوع وذى عشيرة لا تبغيه كما بغانا قومنا ، فهم من التلف بمكان نجوة وأمن . فكثنا بذلك ما شاء الله .

ثم أذن الله لرسوله فى الهجرة وأمره بقتال المشركين ، فكان إذا حضر البأس ودُعيت نزال قدم أهل بيته فوقى بهم أصحابه . فقتل عبيدة يوم بدر ، وحمزة يوم أحد ، وجعفر يوم مؤتة ، وتعرض من أو شئت أن أسميه سميته لمثل ما تعرضوا له من الشهادة ، لكن آجالهم حضرت ومنيته أخرت .

وذكرت لإبطائى عن الخلفاء وحسدى لهم ، فأما الحسد فعاذ الله ن أكون أسررتة أو أعلنته ، وأما الإبطاء فما أعتذر إلى الناس منه ، لقد أتانى أبوك حين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وباع الناس ما بكر فقال : ” أنت أحق الناس بهذا الأمر ، فابسط يدك أبايحك “ ، ند علمت ذلك من قول أبيك . فكنت الذى أبيت ذلك مخافة الفرقة نرب عهد الناس بالكفر والجاهلية ، فإن تعرف من حق ما كان أبوك رقه تصب رشذك ، وإلا تفعل فسيغنى الله عنك .

وذكرت عثمان وتألبي الناس عليه ، وإن عثمان صنع ما رأيت ، كبب الناس منه ما قد علمت ، وأنا من ذلك بمعزل إلا أن تتجننى ، جنّ ما بدا لك . وذكرت قتلته بزعمك وسألتنى دفعهم إليك وما أعرف

له قاتلاً بعينه ، وقد ضربت الأمر إلى أنفه وعينه فلم أره يسغى دفع من قبل ممّن اتهمته وأظنته إليك . ولئن لم تنزع عن غيك وشقائك لتعرفن الذين تزعم أنهم قتلوه طالين لا يكلفونك طلبهم في سهل ولا جبل . . والسلام» .

وظاهر من هذا الكتاب أن الإمام عليّاً رضى الله عنه يريد أن يبرز أن أهل البيت احتملوا في الإسلام ما لم يحتمل غيرهم وما لم يحتمل أبو بكر وعمر وعثمان خاصة ، فهم لم يحصروا ، ولم يهجروا ، ولم يضيق عليهم في الرزق ، فأهل البيت إذاً أولى الناس بالنبي ، وأحقهم بالأمر بعده . ثم ذكر الهجرة وما كان من القتال في سبيل الله وذكر أن النبي ، كان يقدم أهل بيته لحماية أصحابه في مواطن البأس^(١) .

الحروب

وأخيراً نبين لأهل الشام وأهل العراق أن الحرب قائمة لا شك فيها ؛ يرى أهل الشام أن يثاروا للخليفة المظلوم ، ويرى أهل العراق ومن معهم من المهاجرين والأنصار أن يكرهوا أهل الشام على البيعة والطاعة قبل كل شيء ، ويرى أهل الشام أن طاعة على لا تلزمهم لأن الناس لم يبايعوه عن رضا منهم جميعاً ولأنه عطل حدّاً خطيراً من حدود الله وهو القصاص ممن قتل الخليفة المظلوم ، ويرى أهل العراق ومن

(١) الفتنة الكبرى للأستاذ الدكتور طه حسين .

معهم من المهاجرين والأنصار أن كثرة المسلمين الضخمة قد بايعت علياً في الحرمين والمصرين وفي مصر أيضاً فأصبحت طاعته واجبة ، وأصبح أهل الشام طائفة باغية يجب أن تقاتل حتى تنفد إلى أمر الله .

رسالة الإمام إلى عماله

كتب الإمام على رضى الله عنه إلى عماله في الآفاق يأمرهم بالمسير إليه ، ويحث الناس على الجهاد معه ، فكتب إلى مخنف بن سليم عامله على أصبهان وهمدان : إذا أتيت بكتابي هذا فاستخلف على عملك أوثق أصحابك في نفسك وأقبل إلينا . وكتب إلى عبد الله بن عباس : أما بعد فأشخص إلى من قبلك من المسلمين والمؤمنين ، وذكرهم بلائي عندهم وعفوى عنهم ، واستبقائي لهم ، ورغبهم في الجهاد وأعلمهم الذى لهم في ذلك من الفضل . فقرأ عليهم ابن عباس كتاب على عليه السلام . وقال أيها الناس استعدوا للمسير إلى إمامكم وانفروا في سبيل الله خفافاً وثقالاً ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم .

وقال هاشم بن عتبة : « سر بنا يا أمير المؤمنين إلى هؤلاء القوم القاسية قلوبهم ، الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، وعملوا في عباد الله بغير رضا الله ، فأحلوا حرامه وحرموا حلاله ، واستولاهم الشيطان ، ووعدهم الأباطيل ، ومناهم الأمانى حتى أزاغهم عن الهدى ، وقصد بهم قصد الردى ، وجب إليهم الدنيا فهم يقاتلون على دنياهم رغبة

فيها كـرغبـتـنا في الآخرة ، وأنت يا أمير المؤمنين أقرب الناس من رسول الله صلى الله عليه وسلم رحماً ، وأفضل الناس سابقة وقدماً ، وهم يعلمون منك مثل الذي علمنا ، ولكن كتب عليهم الشقاء ، ومالت بهم الأهواء ، وكانوا ظالمين ، فأيدينا مبسوطه لك بالسمع والطاعة ، وقلوبنا منشحة ببذل النصيحة ، وأنفسنا بنورك جذلة على من خالفك وتولى الأمر دونك ، والله ما أحب أن لي ما في الأرض مما أقلت وما تحت السماء مما أظلت ، وأنى واليت عدواً لك أو عادية ولياً لك .

فقال على عليه السلام : « اللهم ارزقه الشهادة في سبيلك والمرافقة لنبيك صلى الله عليه وسلم » .

وصعد الإمام المنبر وقال : « اعلموا أن الله جعل أمارس الإسلام متينة ، وعراه وثيقة ، ونحن سائرون إن شاء الله إلى من سغه نفسه ، وتناول ما ليس له ، وما لا يدركه : معاوية وجنده الفئة الباغية الطاغية ، يقودهم إبليس ويدلهم بغروره ، فلا أعرفن أحداً منكم تقاعس عنى فإن الذود إلى الذود لإيل — ومن لم يزد عن حوضه يهدم . ثم إني آمركم بالشدة في الأمر والجهاد في سبيل الله وألا تغتابوا مسلماً وانتظروا النصر العاجل من الله إن شاء الله » .

ماذا قال الحسن والحسين

وقام الحسن بن على عليهما السلام خطيباً — وقال : « إن مما عظم الله عليكم من حقه ، وأسبغ عليكم من نعمه ما لا يحصى ذكره ، لا يؤدي

نره ولا تبلغه صفة ولا قول ، ونحن إنما غضبنا الله ولكم ، فإنه لم يجتمع
م قط على أمر واحد إلا اشتد أمرهم ، واستحكمت عقدتهم ،
تشددوا في قتال عدوكم معاوية وجنوده ، ولا تحاذلوا فإن الخذلان
لمع نياط القلوب ، وإن الإقدام على الأسنة نجدة وعصمة ، لأنه
بمنع قوم قط إلا رفع الله عنهم العلة ، وكفاهم جوائح الذلة ، وهداهم
، معالم الملة .

إلصاح تأخذ منه ما رضيت به والحرب يكفيك من أنفاسها جرع»
وقام الإمام الحسين فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « يا أهل
كوفة ، أنتم الأحبة الكرماء ، الشعار دون الدثار ، جدوا في إحياء
ثر دينكم ، وإسهال ما توعد عليكم ، ألا إن الحرب شرها ذريع ،
طعمها فظيع ، وهي جرع متحساة ، فمن أخذ لها أهبتها فذاك صاحبها ،
بن عاجلها قبل أوان فرصتها فذاك قمن ألا ينفع قومه ويهلك نفسه .

لقتال على الماء

سار الإمام على في جيشه الكبير ، وكان معاوية قد سبقه وأنزل
أصحابه في صفين ، ولكن أصحاب على لم يجدوا على الفرات شريعة
يستقون منها ، ودعا الإمام صعصعة بن صوحان فقال : ائت معاوية فقل
إننا سرنا مسيرنا هذا وأنا أكره قتالكم قبل الإعذار إليكم ، وإنك قد
قدمت بخيلك تقاتلنا قبل أن نقاتلك ، وبدأتنا بالقتال ، ونحن من

رأينا الكف حتى ندعوك ونحتج عليك . وهذه أخرى قد فعلتموه
 حلتم بين الناس وبين الماء ، فخل بينهم وبينه حتى ننظر فيما بيننا وبينك
 وفيما قدمنا له وقدمتم . وإن كان أحب إليك أن تدع ما جئنا له وندع
 الناس يقتتلون على الماء حتى يكون الغالب هو الشارب فعلنا . فقال
 معاوية لأصحابه : ما ترون ؟ قال الوليد بن عقبة : امنعهم الماء كما
 منعه ابن عفان ، حصروه أربعين يوماً يمنعونه الماء ولين الطعام ،
 اقتلهم عطشاً قتلهم الله . وقال عمرو بن العاص : خل بين القوم وبين
 الماء ، فإنهم لن يعطشوا وأنت ريان ، ولكن لغير الماء فانظر فيما بينك
 وبينهم . فأعاد الوليد مقالته ، وقال عبد الله بن سعد بن أبي سفيان وهو
 أخو عثمان من الرضاعة : امنعهم الماء إلى الليل فإنهم إن لم يقدرُوا عليه
 رجعوا ، وكان رجوعهم هزيمتهم ، امنعهم الماء منعهم الله إياه يوم
 القيامة .

فقال صعصعة : « إنما يمنعه الله يوم القيامة الكفرة الفجرة شربة
 الخمر » . فهاج عليه أنصار معاوية ، فقال لهم : كفوا عن الرجل
 فإنه رسول ، فقال صعصعة لمعاوية : هل لك أن ترد على ؟ قال :
 سيأتاكم رأيي . فوالله ما راعنا إلا تسوية الرجال والخيل والصفوف ،
 فأرسل إلى أبي الأعور : امنعهم الماء . وقال السليل ابن عمرو يخاطب
 معاوية :

امنع الماء من صحاب على أن يذوقوه والذليل ذليل

واقتل القوم مثلما قتل الش يخ ظمأً والقصاص أمر جميل
فامنع القوم ماءكم ليس للقو م بقاء وإن يكن فقليل
وفرح أهل الشام بالغلبة على الماء . فقال معاوية بأهل الشام
هذا والله أول الظفر ، لا سقاني الله ولا سقي أبا سفيان إن شربوا منه
أبدأ حتى يقتلوا بأجمعهم عليه . وتباشر أهل الشام ، فقام إلى معاوية
رجل من أهل الشام يقال له المعري الهمداني - وكان ناسكاً وكان له
لسان ، وكان صديقاً ومؤخياً لعمر بن العاص - فقال : يا معاوية ،
سبحان الله أن سبقتهم القوم إلى الفرات فغلبتهم عليه تمنعهم عنه ،
أما والله لو سبقوكم إليه لسقوكم منه ، أما تعلمون أن فيهم العبد والأمة
والأجير والضعيف ومن لا ذنب له ! هذا والله أول الجور . لقد شجعت
الجبان ، وبصرت المرتاب ، وحملت من لا يريد قتالك على كتفيك .
فأغلظ له معاوية وقال لعمر : اكفني صديقك . فأناه عمرو فأغلظ
له ، فقال الهمداني في ذلك :

لعمر أبي معاوية بن حرب	وعمر بن ما لدائها دواء
سوى طعن يحار العقل فيه	وضرب حين تختلط الدماء
فلست بتابع دين ابن هند	طوال الدهر ما أرسى حراء
لقد ذهب العتاب فلا عتاب	وقد ذهب الولاء فلا ولاء
وقولي في حوادث كل أمر	على عمرو وصاحبه العفاء
ألا لله درك يابن هند	لقد ذهب الحياء فلا حياء

أتحمون الفرات على رجال وفي أيديهم الأسل الظماء
 وفي الأعناق أسياف حداد كأن القوم عندكم نساء
 فترجو أن يجاوركم على بلا ماء ولا أحزاب ماء
 وتوجه الأشعث إلى الإمام على وقال : يا أمير المؤمنين ، أئمنعنا
 القوم ماء الفرات وأنت فينا ومعنا السيوف ، خل عنا وعن القوم ،
 فوالله لا نرجع حتى نرده أو نموت . ونادى الأشعث في الناس من كان
 يريد الموت أو الماء فبعاده الصبح فأبى ناهض إلى الماء ، فأناه من
 ليلته اثنا عشر ألف رجل ، وشد عليه سلاحه وهو يقول :

مبعادنا اليوم بياض الصبح هل يصلح الزاد بغير ملح
 لا لا ولا أمر بغير نصيح دبوا إلى القوم بطعن سمح
 لا صلح للقوم وأبى صلحي حسبي من الإقحام قاب ربح
 وطلب الأشعث من الجنود أن يقتحموا الخيل ، فاقتحموها حتى
 وضعت سنانها في الفرات ، وأخذت القوم السيوف فولوا مدبرين ،
 فقال الإمام هذا يوم نصرنا فيه الأشعث بالحمية ، وقال الأشعث :
 يا أمير المؤمنين ، قد غلب الله لك على الماء .

وقال عمرو بن العاص لمعاوية : ما أظنك بالقوم إن منعوك الماء
 اليوم كما منعتم أمس ! أترك ضاربهم عليه كما ضاربوك عليه ،
 وما أغنى عنك أن تكشف لهم السوأة .

قال : دع عنك ما مضى . ما ظنك بعلى ؟ قال ظني أنه لا يستحل

منك ما استحلتت منه ، وأن الذي جاء له غير الماء . فلما غلب على الماء ، فطرد عنه أهل الشام ، بعث إلى معاوية : إنا لا نكافيك صنعك ، هلم إلى الماء فنحن وأنتم فيه سواء ، فأخذ كل منهما بالشرية ما يليه . وقال على لأصحابه إن الخطب أعظم من منع الماء . وقال معاوية : لله در عمرو ما عصيته في أمر إلا أخطأت الرأي فيه .

الإمام يرسل معاوية بصفين

ودعا الإمام رضي الله عنه بشير بن عمرو الأنصاري وسعيد بن قيس الهمداني وشبث بن ربعي التميمي : وقال لهم : اتوا هذا الرجل ادعوه إلى الله عز وجل وإلى الطاعة والجماعة وإلى اتباع أمر الله تعالى . قال له شبث : ألا تطمعه في سلطان توليه إياه ومنزلة تكون له بها ثرة عندك إن هو بايعك ؟

قال على : اتتوه الآن فالقوه واحتجوا عليه وانظروا ما رأيه .

وتوجه رسل الإمام إلى معاوية — وقال له بشير بن عمرو : يا معاوية الدنيا عنك زائلة ، وإن الله مجازيك بعملك ، وإني أنشدك الله ن تفرق جماعة هذه الأمة وتسفك دماءها بينها . . .

فقطع معاوية عليه الكلام فقال : هلا أوصيت بذلك صاحبك ! فقال عمرو الأنصاري : سبحان الله ! إن صاحبي ليس مثلك ،

إن صاحبي أحق البرية بهذا الأمر في الفضل والدين والسابقة في الإسلام والقربة من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال معاوية : فيقول ماذا ؟

قال : أدعوك إلى تقوى ربك . وإجابة ابن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحق ، فإنه أسلم لك في دينك ، وخير لك في عاقبة أمرك . قال معاوية : ويطل دم عثمان ، لا والرحمن لا أفعل ذلك أبداً .

وقال شعث بن ربیع : يا معاوية . إنه لا يخفى علينا ما تقرب وما تطلب ، إنك لا تجد شيئاً تستهوى به الناس إلا أن قلت لهم قتل إمامكم مظلوماً فهلما نطلب بدمه ، فاستجاب لك سفهاء رذال ، وقد علمنا أنك أبطأت عليه بالنصر وأحببت له القتل لهذه المنزلة التي تطلب . ورب مبتغى أمراً يحول الله دونه . وربما أوقى المتمنى أمنيته وربما لم يؤثها ، والله ما لك في واحدة منهما خير ، والله إن أخطأك ما ترجو إنك لشر العرب حالاً . ولئن أصبت ما تتمناه لا تصيبه حتى تسحق صلا النار . فاتق الله يا معاوية ولا تنازع الأمر أهله .

معاوية : إني أول ما عرفت به سفهك وخفة حلمك قطعك على هذا الحسيب الشريف سيد قومه منطقته ، ثم عتبت بعد فيما لا علم لك به ، ولقد كذبت ولؤمت أيها الأعرابي الجلف الخافي في كل ما وصفت وذكرت . انصرفوا من عندي فليس بيني وبينكم إلا السيف .

واستمرت المراسلة بين الإمام علي ومعاوية ثلاثة أشهر ، وليس

عند معاوية شيء يقوله للإمام سوى مقتل عثمان وأن الإمام قتل عثمان يطلب تسليم قتله وقيل إن المراسلة بينهما استمرت خمساً وثمانين مرة ، ثلاثة أشهر إلى أن دخل أبو أمامة الباهلي وأبو الدرداء على معاوية قالا : علام تقاتل هذا الرجل ؟ ! فوالله هو أقدم منك ، وأحق هذا الأمر منك ، وأقرب من النبي صلى الله عليه وسلم ، فعلام تقاتله ؟ كان جوابه كالعادة : أقاتله على دم عثمان وأنه أوى قتله ، فقولا له ليقدنا من قتله وأنا أول من بايعه ، فانطلقا إلى علي فأخبراه فقال : هم الذين ترون ، فخرج عشرون ألفاً أو أكثر مسربلين في الحديد لا يرى منهم إلا الحدق فقالوا : كلنا قتله ، فإن شاءوا فليروموا ذلك منا ، رجع أبو أمامة وأبو الدرداء فلم يشهدا شيئاً من القتال ، حتى إذا كان هر رجب وخاف معاوية أن يبايع الناس علياً على القتال أخذ في لكر وأخذ يحتال .

على أنه بمجرد أن انسلخ شهر المحرم واستقبل صفر سنة ٣٧ ث على نفرأ من أصحابه حتى إذا كانوا في عسكر معاوية نادى مرثد ن الحارث الجشمي : يا أهل الشام ، إن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون لكم إنا والله ما كففنا نكم شكناً في أمركم ولا بغياً عليكم ، وإنما كففنا عنكم لخروج المحرم انسلخ ، وإنا قد نبذنا إليكم على سواء إن الله لا يحب الخائنين . وفي رواية) أمره فتنادى . يا أهل الشام ، ألا إن أمير المؤمنين يقول

لكم : إني قد استبذتكم واستأنيتكم لتراجعوا الحق وتنبؤوا إليه ، واحتججت عليكم بكتاب الله ودعوتكم إليه فلم تنهاؤا عن طغيان ، ولم تنجيؤا إلى حق ، وإني قد نبذت إليكم على سواء إن الله لا يحب الخائنين .

فثار الناس إلى أمراءهم ورؤسائهم ، وخرج معاوية وعمر بن العاص يكتبان الكتاب وأوقدوا النيران وجاءوا بالشموع ، وبات الإمام ليلته كلها يعي الناس ويكتب الكتاب ويدور في الناس ويحرضهم .

وكان الإمام يأمر عساكره في كل موطن لقوا معه عدوه فيقول : لا تقاتلوا القوم حتى يبدؤكم فإنكم بحمد الله على حجة وترككم إياهم حتى يبدؤكم ، وإذا قاتلتموهم فهزمتموهم فلا تقتلوا مدبراً ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تكشفوا عورة ، ولا تمشوا بقتيل ، فإذا وصلتم إلى رجال القوم فلا تهنكوا سراً ، ولا تدخلوا داراً إلا بإذني ، ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم إلا ما وجدتم في عسكرهم ، ولا تهيجوا امرأة إلا بإذني ، وإن شتمن أعراضكم وتناولن أمراءكم وصلحاءكم فإنهن ضعاف القرى والأنفس والعقول ، ولقد كنا لنؤمر بالكف عنهم وإنهن لمشركات ، وإن كان الرجل ليتناول المرأة في الجاهلية بالهراوة فيعير بها عقبه من بعده .

وسمع من الإمام على رضي الله عنه أيام الحمل وصفين والنهروان أنه كان يقول للناس : عباد الله ، اتقوا الله عز وجل وغضوا الأبصار واخفضوا الأصوات وأقلوا الكلام ، ووطنوا أنفسكم على المنازلة والمجادلة

والمبارزة والمعانقة والمكادمة ، واثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ،
ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين .
اللهم ألهمهم الصبر ، وأنزل عليهم النصر ، وأعظم لهم الأجر .

القتال

في يوم الأربعاء أول صفر سنة ٣٧ ابتدأ القتال العنيف فخرج
من أهل الكوفة الأشتر وعلى أهل الشام حبيب بن مسلمة ، فاقتلوا
قتالا شديداً جل النهار ثم تراجعوا وقد انتصف بعضهم من بعض ،
ثم خرج هاشم بن عتبة في خيل ورجالة حسن عددها وعدتها ، وخرج
إليه من أهل الشام أبو الأعور السلمي فاقتلوا يومهم ذلك تحمل الخيل
على الخيل والرجال على الرجال ثم انصرفوا وقد صبر القوم بعضهم لبعض ،
وخرج في اليوم الثالث عمار بن ياسر وخرج عمرو بن العاص فاقتتل
الناس كأشد القتال وجعل عمار يقول : يا أهل الإسلام ، أتريدون
أن تنظروا إلى من عادى الله ورسوله وجاهدهما وبغى على المسلمين
وظاهر المشركين ، فلما أراد الله أن يظهر دينه وينصر رسوله أتى النبي
صلى الله عليه وسلم فأسلم . وهو والله فيما يرى راهب غير راغب ،
وقبض الله رسوله صلى الله عليه وسلم ولأنا والله لنعرفه بعداوة المسلم ومودة
المجرم ، ألا وإنه معاوية . وكان مع عمار زياد بن النضر على الخيل ،
فأمره أن يحمل في الخيل فحمل ، وصبروا له ، وشد عمار فأزل عمرو

ابن العاص عن موقفه ، وبارز زياد بن النضر أخاً من أمه من بني عامر وهو معاوية بن عمرو العقلي ، وخرج محمد بن علي بن أبي طالب وخرج إليه عبيد الله بن عمر بن الخطاب في جمعين عظيمين ، فاقتتلوا كأشد القتال ، ثم إن عبيد الله بن عمر أرسل إلى محمد بن الحنفية أن اخرج إلى أبارذك ، قال له : نعم ، ثم خرج إليه يمشي ، فبصر به علي ، فقال : من هذان المتبارزان ؟ فقيل له : ابن الحنفية وابن عمر ، فحرك عليّ دابته ثم دعا محمداً فوقف له وقال : أمسك دابتي ، فأمسكها ثم مشى إليه علي فقال : أنا أبارذك ، قال ليس لي في مبارزتك حاجة ، وأخذ ابن الحنفية يقول لأبيه : منعتني من مبارزته ، فوالله لو تركتني لرجوت أن أقتله ، قال : يا بني لو بارزته أنا لقتلته ، ولو بارزته أنت لرجوت من أخذ بها لحق ومن تركها مرق ومن فارقها محق . نحن أهل بيت الرحمة وقولنا الصديق ومن فعالنا القصد ، ومنا خاتم النبيين وفيما قادة الإسلام ومنا قراء الكتاب ، ندعوكم إلى الله وإلى رسوله وإلى جهاد عدوه والشدة في أمره وابتغاء رضوانه ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصيام شهر رمضان وتوقير النّبي لأهله ، ألا وإن من أعجب العجب أن معاوية بن أبي سفيان الأموي وعمرو بن العاص السهمي أصبحا يحرضان الناس على طلب الدين يزعمهما ، وقد علمتم أني لم أخالف رسول الله صلى الله عليه وسلم قط ، ولم أعصه في أمر قط ، أقيه بنفسي في المواطن التي ينكص فيها الأبطال وترعد فيها الفرائص

نجدة أكرمني الله بها فله الحمد ، ولقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن رأسه لنى حجرى ولقد وليت غسله بيدي وحدى ثقله الملائكة المقربون معى ، وإيم الله ما اختلفت أمة قط بعد نبيها إلا ظهر أهل باطلها على أهل حقها إلا ما شاء الله .

وفى ليلة الأربعاء قال الإمام فى خطبة أخرى : ألا إنكم ملاقو العدو غدأ إن شاء الله ، فأطيلوا الليلة القيام ، وأكثروا تلاوة القرآن ، واسألوا الله الصبر والنصر ، والقوه بالجد والحزم وكونوا صادقين .

ثم انصرف ووثب الناس إلى سيوفهم ورماحهم يصلحونها ، ولما كان الليل بعث الإمام منادياً فنادى : يا أهل العراق ، اغدوا على مصافكم نصبح أهل الشام فى عسكرهم ، وناذى معاوية : أين الجند المتقدم ؟ فخرج أهل حمص فى راياتهم عليهم أبو الأعور السلمى ، ثم نودى : أين أهل الأردن ؟ فخرجوا فى راياتهم عليهم سفيان بن عمرو السلمى ، وفى اليوم الخامس خرج عبد الله بن العباس والوليد بن عقبة فاقتتلوا قتالا شديداً ، ودنا ابن عباس من الوليد فأخذ الوليد يسب بنى عبد المطلب ، فأرسل إليه ابن عباس أن ابرز إلى فأبى ، وقاتل ابن عباس يومئذ قتالا شديداً ، ثم انصرفوا ، ثم خرج شمر بن أبرهة بن الصباح الحميرى فى ذلك اليوم فلحق بعلى ، ومعه وفد من أهل الشام ، فلما رأى ذلك معاوية وعمرو بن العاص وما خرج إلى الإمام من قبائل أهل الشام فت ذلك فى عضد معاوية وعمرو ، وقال الأخير : يا معاوية ، إنك

تريد أن تقاتل بأهل الشام رجلا له من محمد صلى الله عليه وسلم قرابة قريبة ورحم ماسة وقدم في الإسلام لا يعتد أحد بمثلها ، ونجدة في الحرب لم تكن لأحد من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ؟ إنه قد سار إليك بأصحاب محمد المحدثين وقرائهم وأشرفهم ، وقدمائهم في الإسلام ولهم في النفوس مهابة ، ومهما نسيت فلا تنس أنك على باطل . وعندما سمع معاوية ذلك حاول أن يخطب في أهل الشام ، وكذلك حاول عمرو بن العاص بعده .

وعندما علم الإمام بما قاله معاوية وعمرو بات ليلته كلها يعي الناس حتى إذا أصبح زحف بالناس . وخرج إليه معاوية وأهل الشام ، وتقابل القوم ، فاقتتلوا قتالا شديداً ، وانصرفوا عند المساء ، وكل غير غالب ، وأخذ الإمام يحرص أصحابه ويوصيهم وصايا مهمة في الحرب فقال : « إن الله قد دلکم على تجارة تنجيکم من العذاب : إيمان بالله ورسوله وجهاد في سبيله ، وجعل ثوابه مغفرة الذنوب ، ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ، وأخبرکم بالذي يحب فقال : « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص . فسووا صفوفکم كالبنیان المرصوص ، وقدموا المدرع ، وأخروا الحاسر ، وعضوا على الأضراس فإنه أنبي للسيوف عن الهام ، وأميتوا الأصوات فإنه أطرء للفشل وأولى بالوقار ، والتوا في أطراف الرماح فإنه أمرر للأسنة ، وراياتکم فلا تميلوها ولا تزيلوها ولا تجمعنوها إلا في أيدي شجعانکم المانعي

الذمار ، وإيم الله لئن فررتم من سيف العاجلة لا تسلمون من سيف الآخرة ، واستعينوا بالصدق والصبر فإنه بعد الصبر ينزل النصر .

وطلب معاوية إلى عمرو بن العاص أن يسوي صفوف أهل الشام ، فقال له عمرو : على أن لي حكماً إن قتل الله ابن أبي طالب واستوسقت لك البلاد .

فقال معاوية : أليس حكمك في مصر ؟

قال عمرو : وهل مصر تكون عوضاً عن الجنة وقتل ابن أبي طالب ثمناً لعذاب النار ؟ !

معاوية : إن لك حكمك أبا عبد الله إن قتل ابن أبي طالب .
رويداً لا يسمع أهل الشام كلامك .

فقال عمرو موجهاً الكلام لأهل الشام : « سوا صفوفكم ، وأعيروا ربكم جماجمكم ، وجاهدوا عدو الله وعدوكم ، واقتلوهم قتلهم الله وأبادهم ، واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء والعاقبة للمتقين » .

ولم يكتف معاوية بذلك بل لجأ إلى « ذى الكلاع » وطلب منه أن يحرض الناس على قتال الإمام ، وكان من أخطر أصحاب معاوية ففعل وكان مما قاله : كان مما قضى الله أن ضم بيننا وبين أهل ديننا صفيين ، وإننا لنعلم أن فيهم قوماً كانت لهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سابقة ذات شأن . وخطر عظيم ، ولكنني ضربت الأمر ظهراً وبطناً فلم يسعني أن يهدر دم عثمان . . .

وأقبل ذو الكلاع في حمير ومن لف لفها ومعه عبيد الله بن عمر ابن الخطاب في أربعة آلاف من قراء أهل الشام ، قد بايعوا على الموت وهي ميمنة أهل الشام وعليها ذو الكلاع ، فحملوا على ربيعة وهي ميسرة أهل العراق وعليها عبد الله بن العباس حملة شديدة ، فتضعضت رايات ربيعة ، وانصرف أهل الشام فلم يلبثوا إلا قليلا حتى كروا وعبيد الله بن عمر يقول :

يأهل الشام هذا الحى من أهل العراق قتلة ابن عفان وأنصار على ، وقد أدركتم ثأركم في عثمان وهلك على وأهل العراق ، فشدوا على الناس شدة شديدة ، فثبتت لهم ربيعة وصبروا صبراً حسناً إلا قليلا من الضعفاء وثبت أهل الرايات وأهل البصائر منهم والحفاظ وقالوا قتالا شديداً ، حتى إذا كان يوم الخميس التاسع من صفر سنة ٣٧ خطب الناس معاوية وحرّضهم وكان مما قاله : يأهل الشام تلقون غداً أهل العراق فكونوا على إحدى ثلاث أحوال ، إما أن تكونوا قوماً طلبتم ما عند الله في قتال قوم بغوا عليكم فأقبلوا من بلادهم حتى نزلوا في بيضتكم ، وإما أن تكونوا قوماً تطلبون بدم خليفكم وصر نبيكم صلى الله عليه وسلم ، وإما أن تكونوا قوماً تذبون عن نساءكم وأبنائكم .

عمار بن ياسر وعمرو بن العاص

وفكر ذو الكلاع في أن يجمع بين عمرو وعمار بن ياسر عندما سمع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يلتقي أهل الشام وأهل العراق في إحدى الكتبتين الحق وإمام الهدى ومعه عمار بن ياسر » . واجتمع فعلا ذو الكلاع ومعه أبو نوح الكلاعي مع عمرو بن العاص عند معاوية ، وقال ذو الكلاع لعمرو : هل لك في رجل ناصح يخبرك عن عمار بن ياسر لا يكذبك ، قال من هو ؟

قال : ابن عمي هذا وهو من أهل الكوفة .

فقال له : إني لأرى عليك سياء أبي تراب .

فقال أبو نوح : على سياء محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وعليك سياء أبي جهل وفرعون .

وقال عمرو : أفياكم عمار بن ياسر ؟

قال نوح : ما أنا بمخبرك عنه حتى تخبرني لم تسألني عنه ، فإن معنا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عدة غيره وكلهم جادّ على قتالكم .

عمرو : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن عماراً تقتله الفئة الباغية ، وأنه ليس ينبغي لعمار أن يفارق الحق ، وإن تأكل النار منه شيئاً .

قال أبو نوح : لا إله إلا الله والله أكبر . والله إنه لفينا جاد على قتالكم » .

عمرو : والله إنه لجاد على قتالنا ؟

أبو نوح : نعم والله الذى لا إله إلا هو . لقد حدثنى يوم الجمل أنا سنظهر عليهم ، وحدثنى أمس أن لو ضربتمونا حتى تبلغوا بنا سعفات هجر لعلمنا أنا على حق وأنتم على باطل ، وكانت قتالنا فى الجنة وقتالكم فى النار .

عمرو : هل تستطيع أن تجمع بينى وبينه ؟

أبو نوح : نعم .

وجمع بينهما

وقال عمرو موجها الحديث إلى عمار بن ياسر إني رأيتك أطوع أهل هذا العسكر فيهم ، أذكرك الله إلا حققت دماءهم فعلام تقاتلنا ؟ !

عمار أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقاتل الناكثين وقد فعلت ، وأمرنى أن أقاتل القاسطين فأنتم هم ، وأما المارقون فما أدرى أأدركهم أم لا أيها الأبتى ، أأست تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلى : من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، وأنا مولى الله ورسوله وعلى بعده .

عمرو : لم تشتمنى يا أبا اليقظان ولست أشتمك ؟
 عمار : وجم تشتمنى ؟ أتستطيع أن تقول إني عصيت الله ورسوله يوماً قط ؟ !

عمرو : إن فيك أسباب سرى ذلك .
 عمار : إن الكريم من أكرمه الله ، كنت وضعياً فرفعني الله ،
 ومملوكاً فأعتقني الله ، وضعيفاً فقوانى الله ، وفقيراً فأغنانى الله ،
 عمرو : ما ترى فى قتل عثمان ؟
 عمار : فتح لكم باب كل سوء .

واشتد الحوار بينهما ، فقام أهل الشام وركبوا خيولهم ورجعوا ،
 فبلغ معاوية ما كان بينهم ، فقال هلكت العرب إذا أخذتهم خفة
 العبد الأسود (يعنى عمار بن ياسر) ، ومشى عبد الله بن سويد إلى ذى
 الكلاع فقال له : لم جمعت بين الرجلين ؟ قال لحديث سمعته من
 عمرو ، وذكر أنه سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يقول
 لعمار بن ياسر : « تقتلك الفئة الباغية » .

اشتداد القتال والمبارزة

اشتد القتال بين الفريقين . وكانت الغلبة لأهل العراق حتى بدأ اليأس يدب في نفس معاوية ، فقال لعمر بن العاص أما ترى يا أبا عبد الله إلى ما قد وقعنا فيه ؟ كيف ترى أهل العراق غداً صانعين ؟ إذا لقي خطر عظيم ، وخرج معاوية فاراً لائذاً إلى بعض مضارب العسكر فدخل فيه ، وبعث معاوية إلى خالد بن المعمر إنك قد ظفرت ولك إمرة خراسان إن لم تتم ، فطمع خالد في ذلك ولم يتم فأمره معاوية حين بايعه الناس على خراسان فمات قبل أن يصل إليها .

وبرز رجل من حمير اسمه كريب بن الصباح ليس في أهل الشام يومئذ رجل أشهر شدة بالبأس منه ، ثم نادى : من يبارز ؟ فبرز إليه المرتفع بن الوضاح الزبيدي فقتل المرتفع ، ثم نادى من يبارز ؟ فبرز إليه الحارث بن الجلاح فقتله ، ثم نادى : من يبارز ؟ فبرز إليه عايد بن مسروق الهمداني فقتل عايداً ، ثم رمى بأجسادهم بعضها فوق بعض ، ونادى : هل بقي من يبارز . فبدر إليه على عليه السلام ، ثم ناداه : ويحك يا كريب إني أحذرك وأدعوك إلى سنة الله ورسوله . ويحك لا يدخلنك ابن آكلة الأكباد ، وكان جوابه : « ما أكثر

ما سمعت هذا الكلام منك ! فلا حاجة لنا فيه . أقدم إذا شئت ، من يشتري سيفي وهذا أثره » . فقال على عليه السلام « لا حول ولا قوة إلا بالله » ، ثم مشى إليه فلم يمهله أن ضربه ضربة خر منها قتيلًا ، ثم نادى : من يبارز . فبرز إليه الحارث بن وداعة والمطاع بن المطلب قتلتهما ، وبعد ذلك نادى الإمام « يا معشر المسلمين (الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص . فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين) » . ثم قال موجهاً الكلام إلى معاوية : « ويحك يا معاوية . هلم فبارزني ، لا يقتلن الناس فيما بيننا » . فقال عمرو : « اغتنمه منتمزاً فقد قتل ثلاثة من أبطال العرب ، وإنى أطمع أن يظفرك الله به » . فقال له معاوية : يحك يا عمرو ! والله إن تريد إلا أن أقتل فتصيب الخلافة بعدى ، ذهب . إليك عنى . فليس مثلى يخدع

وطلب عمرو بن العاص من قومه أن يجدوا في القتال .

وقام عبد الله بن العباس خطيباً ، وقال فيما قال : إن اضطراب هذه الأمة سببه أن ابن آكلة الأكباد قد وجد من طعام أهل الشام عوناً على علي بن أبي طالب ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم عمره ، وأول ذكر صلى معه ، وقد شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كل مشاهدته ، على حين كان معاوية وأبو سفيان مشركين يعبدان

الأصنام ، لقد قاتل على مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والإمام يقول : « صدق الله ورسوله » ، ومعاوية وأبو سفيان يقولان كذب الله ورسوله ، فما معاوية في هذه بأبر ولا أنتى ولا أرشد ولا أصوب منه في تلکم ، والله إنکم لعلی الحق ، وإن القوم لعلی الباطل فلا یکنونأ أولى بالجد فی باطلهم منکم فی حقکم أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولکم » .

عمار بن یاسر

وقام عمار بن یاسر وقال : « امضوا یا عباد الله إلى قوم یطلبون فیما یزعمون بدم عثمان ، والله ما أظنهم یطلبون دمه ، ولكن القوم ذاقوا الدنيا فاستحبوها واستمرعوها ، وعلموا لو أن الحق لزمهم لحال بینهم وبين ما یرغبون فیہ منها ، ولم یکن للقوم سابقة فی الإسلام یرستحقون بها الطاعة والولاية ، فخذعوا أتباعهم بأن قالوا : قتل إمامنا مظلوماً ، لیکنونأ بذلك جبابرة وملوکاً ، وتلك مکيدة قد بلغوا بها ما ترون ، ولولا هی ما بايعهم من الناس رجالان .

ومضى عمار— ومضى معه أصحابه ، فلما دنا من عمرو بن العاص قال : یا عمرو ، بعث دینک بمصر ! تبناً لك ؛ وطالما بغيت الإسلام عوجاً .

وجعل عمار یقاتل ویقول صبراً عباد الله . وكان لواء أهل الشام

مع أبي الأعور السلمي ، ولم يزل عمار ينخسه حتى شب القتال واقتتل الناس قتالا شديداً لم يسمع بمثله ، وكثرت القتل ، وكان على عمار يوم هذه الواقعة درع وهو يقول : أيها الناس الرواح إلى الجنة . وقال حين نظر إلى راية عمرو بن العاص : والله إن هذه الراية قد قاتلتها ثلاث عركات وما هذه بأرشدن ثم قال :

نحن ضربناكم على تنزيله فالיום نضربكم على تأويله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله
أو يرجع الحق إلى سبيله

ثم استسقى عمار ، وقد اشتد ظمؤه وحين شرب قال : « الجنة تحت الأسنة . اليوم ألقى الأحبة محمداً وحزبه » . ثم حمل عليه ابن جؤن السكسكى وقتله

ولا بد هنا من وقفة لكي نستمع إلى ما قاله أستاذنا الدكتور طه حسين عميد الأدب العربي عن عمار بن ياسر ، قال : « لم يجئ أحد بعمار إلى صفين ، لم يستكرهه عليّ على الحرب ولا على الخروج معه ، وإنما كان عمار شيخاً نيف على التسعين ، شاخ جسمه ، ولكن قلبه وعقله وبصيرته ظلت بمأمن من الشيخوخة ، فكان شاباً الحديث ، وكان شاب المناظرة ، وكان شاب الجهاد ، وهو الذي سلم على عائشة بعد وقعة الجمل ، ثم قال لها : كيف رأيت ضرابنا يا أمه ! قالت : لست لك بأمر ، ولست لي بابن . قال متضحكاً : بل أنت أمي وأنا الإمام على

ابنك وإن كرهت . يريد أن القرآن قد نزل بأن أزواج النبي أمهات المؤمنين — فلن تستطيع عائشة أن تغير ما نزل به القرآن . وكان عمار أشد أصحاب على تحريضاً على الحرب ، وكان يقول لأصحابه حين رأى بعض انكشافهم والله لو ضربونا حتى يبلغونا سعفات هجر لعلمنا أنا على الحق وأنهم على الباطل .

وفي قتل عمار يقول الدكتور طه أيضاً : « ما زال قتله من الأحاديث الماثورة بين المسلمين ، فهو ابن أول شهيد في الإسلام . فتن أبو جهل أباه ياسراً وأمه سمية حتى قتلهما ، كما هو معروف ، وهو الذي قال له النبي : ويحك يا بن سُمَيَّة ! تقتلك الفئة الباغية . وقد أشفق الزبير من حرب عليّ حين عرف أن عماراً معه . وكان خزيمة بن ثابت الأنصاري يتبع عليّاً في صفين ، ولكنه لا يقاتل وإنما يتحرى أمر عمار ، فلما عرف أنه قد قتل قال : الآن استبانَت الضلالة ، ثم قاتل حتى قتل . رأى أن أهل الشام قد قتلوا عماراً . فعرف أنهم الفئة الباغية التي ذكرها النبي في حديثه ذلك .

ووقع قتل عمار من معاوية وأصحابه وقعاً أليماً مروعاً لم يشكوا في أن النبي قال له : تقتلك الفئة الباغية : وإنما حاولوا أن يخفوا علمهم بهذا الحديث ، فلما لم يجدوا إلى ذلك سبيلاً تألأوه . وقال معاوية : أنحن قتلناه ؟ إنما قتله الذين جاءوا به !

وبعد ذلك كانت وقعة مشهورة بوقعة الخميس ، وهى التى قتل فيها أعلام العرب . ويروى أن الإمام علياً رضى الله عنه نادى : يا معاوية — يكررها — فقال معاوية : أسأله ما شأنه ؟ قال : أحب أن يظهر لى فأكلمه كلمة واحدة ، فبرز معاوية ومعه عمرو بن العاص ، وقال لمعاوية متجاهلاً عمرأً : « ويحك علام يقتل الناس بينى وبينك ؟ ابرز إلى فأينا قتل صاحبه فالأمر له . فالتفت معاوية إلى عمرو ، فقال : ما ترى يا أبا عبد الله ؟ أبارزه ، فقال عمرو : لقد أنصفك الرجل ، وأعلم أنك إن نكلت عنه لم تزل سبة عليك وعلى عقبك مابقى عربى .

فقال معاوية : يا عمرو ليس مثلى يخدع عن نفسه . والله ما بارز ابن أبى طالب رجلاً قط إلا سقى الأرض من دمه .

ثم انصرف معاوية راجعاً إلى آخر الصفوف وعمرو معه ، وقال معاوية ويحك يا عمرو ! ما أحمقك وحقدتها معاوية على عمرو ، وقال : ما أظنك يا عمرو إلا مازحاً : فلما جلس معاوية مجلسه أقبل عمرو حتى جلس ، فقال معاوية :

يا عمرو إنك قد قشرت لى العصا	برضاك فى وسط العجاج برازى
ولقد أعدت فقلت مزحة مازح	والمزح يحمله مقال الهازى
فإذا الذى ممتلك نفسك خالياً	قتلى جزاك بما نويت الجازى

فرد عليه عمرو قائلا :

لک الويلات فانظر في المخازي	معاوى إن نكلت عن البراز
وكبش القوم يدعى للبراز	وما ذنبى بأن نادى على
حديد الثاب ينفذ كل بازي	فلو بارزته بارزت ليثاً
جزاني بالذى أضمرت جازي	وترعم أننى أضمرت غشاً
وعند الباه كالتيس الحجازي	أضيع في العجاجة يا بن هند

على أنه كان من رأى أبرهة بن الصباح بن أبرهة الحميري أن يبارز معاوية علياً ، ولكن معاوية رفض وكره مبارزة على فقال أبرهة في ذلك :

لقد قال ابن أبرهة مقالا	وخالفه معاوية بن حرب
وكم بين المنادى من بعيد	ومن يغشى الحروب بكل غضب
أيهجرنى معاوية بن حرب	وما هجرانه سخطاً لربي
وعمرو إن يفارقني بديني	لنى سعة إلى شرق وغرب

وبرز يومئذ عروة بن داود الدمشقي فقال : إن كان معاوية كره مبارزتك يا أبا الحسن فهلم إلى ، فتقدم إليه على ، فقال له أصحابه :
ذر هذا الكلب فإنه ليس لك بخطر ، فقال : والله ما معاوية اليوم بأغيب لي منه ، ثم حمل عليه فضربه فقطعه قطعتين سقطت إحداهما يمينه والأخرى يسرة وارتج العسكران لهول الضربة ، ثم قال يا عروة اذهب فأخبر قومك . أما والذي بعث محمداً بالحق لقد عاينت النار وأصبحت من النادمين

وكذلك طلب الوليد بن عقبة من معاوية مبارزته

معاوية يفاوض ابن عباس :

بدأ اليأس يدب في نفس معاوية فقال لعمر بن العاص إن رأس لناس بعد علي هو عبد الله ابن عباس ، فلو ألقيت إليه كتاباً فإنه ن قال شيئاً لم يخرج علي عنه ، وقد أكلتنا الحرب ولا أرانا نصل إلى لعراق إلا بهلاك أهل الشام . فقال له عمرو : إن ابن عباس لا ينجذع ، لو طمعت فيه لطمعت في علي ، وأصر معاوية على الكتابة إلى بن عباس ، فكتب إليه عمرو يقول : « أما بعد فإن الذي نحن أنتم فيه ليس بأول أمر قاده البلاء ، وأنت رأس هذا الجمع بعد علي ، انظر فيما بقى ودع ما مضى ، فوالله ما أبقت هذه الحرب لنا ولا لكم حياً ولا صبراً ، واعلموا أن الشام لا تملك إلا بهلاك العراق وأن العراق ؟ تملك إلا بهلاك الشام ، وما خيرنا بعد هلاك أعدادنا منكم ، وما حيركم بعد هلاك أعدادكم منا ، ولسنا نقول ليت الحرب عادت لكننا نقول ليتها لم تكن ، وإن فينا من يكره القتال كما أن فيكم من كرهه ، وإنما هو أمير مطاع أو مأمور مطيع أو مؤمن مشاور وهو نت . ونحتم كتابه بقوله :

طال البلاء وما يرجى له آسى	بعد الإله سوى رفق ابن عباس
يا بن الذي زمرم سقيا الحجيح له	أعظم بذلك من فخر على الناس

انظر فدى لك نفسى قبل قاصمة للظهر ليس لها راق ولا آس
إنى أرى الخير فى سلم الشام لكم والله يعلم ما بالسلم من باس
فيها التقى وأمور ليس يحهلها إلا الجهول وما النوكى كأكياس

فأتى ابن عباس بالكتاب إلى أمير المؤمنين فضحك وقال : قاتل
الله ابن العاص ! ما أغراه بك يابن عباس ، أجبته وايرد عليه شعره
الأفضل ابن العباس فإنه شاعر ، فكتب ابن عباس إلى عمرو
« أما بعد . فإنى لا أعلم رجلاً من العرب أقل حياء منك . لقد مال
بك معاوية إلى الهوى وبعته دينك بالثمن اليسير ، ثم خبطت بالناس
فى عشوة طمعاً فى الملك فلما لم تر شيئاً أعظمت الدنيا إعظام أهل
الذنوب ، وأظهرت فيها نزاهة أهل الورع ، فإن كنت ترضى الله بذلك
فدع مصر وارجع إلى بيتك . وهذه الحرب ليس فيها معاوية كعلى ،
ابتدأها على بالحق وانتهى فيها إلى الغدر . وبدأها معاوية بالبغى وانتهى
فيها إلى السرف ، وليس أهل العراق فيها كأهل الشام . بايع أهل العراق
عليه وهو خير منهم ، وبايع معاوية أهل الشام وهم خير منه ، وليس
أنا وأنت فيها بسواء ، أردت الله وأردت أنت فإن ترد شرّاً لا نسبقك
به وإن ترد خيراً لا تسبقنا إليه . ثم قال لأخيه الفضل يابن أم أجب
عمراً فقال الفضل :

يا عمرو حسبك من خدع ووسواس فاذهب فليس لداء الجهل من آسر
إلا تواتر طعن فى نحوركم يشجى النفوس ويشقى نخوة الراس

هذا الدواء الذى يشفى جماعتكم حتى يطيعوا علينا وابن عباس
 ما على فإن الله فضله بفضل ذى شرف عال على الناس
 ، تعقلوا الحرب تعقلها مخيبة أو تبعثوها فإننا غير أنكاس
 - كان منا ومنكم فى عجاجتها مالا يرد وكل عرضة الباس
 الى العراق بقتلى الشام ذاهبة هذا بهذا وما بالحق من باس
 بارك الله فى مصر فقد جلبت شرراً وحظك منها حسوة الكاس
 وعلق معاوية على كتاب ابن عباس وعلى الشعر بقوله : إن قلب
 ن عباس وقلب على قلب واحد وكلاهما ولدا عبد المطلب .

لله الهزير وانتهاء المعركة

وتبادل الإمام ومعاوية رسائل كثيرة لم تأت بنتيجة إلى أن كان يوم
 ثلاثاء العاشر من ربيع الأول سنة ٣٧ ، وفى ليلة شديدة الحر ترمى
 سريقان بالنبل حتى فئت نبالهم ، ثم نطاعنوا بالرماح حتى تقصفت
 نذقت ، ثم مشى بعضهم إلى بعض بالسيوف - وقد كسروا جفونها -
 محمد الحديد ، فلم يسمع السامع إلا نغمهم القوم وتكادم الأفواه وصليل
 سيوف ووقع الحديد بعضه على بعض ، وكان أشد هولاً فى صدور
 رجال من الصواعق ومن جبال تهامة يدك بعضها بعضاً ، وكسفت
 شمس ، ومرت مواقيت أربع صلوات لم يسجد لله فيهن سجدة ،
 يصلوا لله صلاة إلا التكبير ، واستمر القتال من نصف الليل إلى

ارتفاع الضحى وافترقوا على سبعين ألف قتيل فى ذلك اليوم وتلك الليلة ،
وهى ليلة الهرير ، والأشتر فى ميمنة الناس ، وابن عباس فى الميسرة ،
وعلى فى القلب ، والأشتر فى هذه الحال يسير فيما بين الميمنة والميسرة
فيأمر كل قبيلة أو كتيبة من القراء بالإقدام على التى تليها ، فلم يزل
يفعل ذلك حتى أصبح والمعركة خلف ظهره ، ونادت المشيخة فى تلك
الغمرات : يا معشر العرب الله الله فى الحرمات من النساء ، وجعل
الأشتر يقول لأصحابه وهو يزحف بهم نحو أهل الشام : ازحفوا قيد
رمى هذا ، فإذا فعلوا قال : ازحفوا قاب هذا القوس . فإذا فعلوا
سألهم مثل ذلك حتى مل أكثر الناس الإقدام ، وكان الأشتر يقول
لهم : ألا من يشرى نفسه لله ويقاتل مع الأشتر . وقاتل الأشتر أهل
الشام قتالا عنيفاً ، وانتقل الإمام عليه السلام إلى القبلة واتجه إلى الله
سبحانه وتعالى ورفع يديه ثم نادى الله : يا رحمن يا واحد يا صمد
يا الله ، يا إله محمد ، اللهم إليك نقلت الأقدام ، وأفضت القلوب ،
ورفعت الأيدي ، وامتدت الأعناق ، وشخصت الأبصار ، وطلبت
الحوائح ، إنا نشكو إليك غيبة نبينا صلى الله عليه وسلم ، وكثرة عدونا ،
وتشتت أهوائنا ، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين .
ثم توجه إلى جيشه قائلاً : أيها الناس قد بلغ بكم الأمر وبعثكم
ما قد رأيتم ، ولم يبق منهم إلا آخر نفس ، وإن الأمور إذا أقبلت اعتبر
آخرها بأولها ، وقد صبر لكم القوم على غير دين حتى بلغنا منهم ما
بلغنا وأنا غاد عليهم بالغداة أحاكمهم على الله عز وجل .

نتيجة وقعة الحرير وصيلة رفع المصاحف

كانت نتيجة وقعة الحرير أن حاقت الهزيمة بجيش معاوية ، استدعى عمرو بن العاص وقال له : يا عمرو ، إنما هي الليلة حتى دو على علينا بالفيصل ، فما ترى ؟ قال : « أرى أن رجالك لا يقومون جاله ، ولست مثله ، هو يقاتلك على أمر ، وأنت تقاتله على غيره ، ت تريد البقاء وهو يريد الفناء ، وأهل العراق يخافون منك إن ظفرت ، وأهل الشام لا يخافون علينا إن ظفر بهم ، ولكن ألق إليهم أمراً قبلوه اختلفوا ، وإن ردوه اختلفوا ، ادعهم إلى كتاب الله حكماً بينك وبينهم ، فلأنك بالغ به حاجتك في القوم ، فلإني لم أزل أؤخر الأمر لحاجتك إليه » .

فقال معاوية : صدقت .

وأصبح أهل الشام وقد رفعوا المصاحف على رؤوس الرماح ، وبادون يأهل العراق ، كتاب الله بيننا وبينكم .

اختلاف أصحاب الإمام

فى هذا الموقف قال الإمام على عليه السلام : « اللهم إناك تعلم أنهم ما الكتاب يريدون ، فاحكم بيننا وبينهم إناك أنت الحكيم الحق المبين » .

وكان أصحاب الإمام أربع طوائف :

١ - أهل البصرة المخلصون له فى الظاهر والباطن ، العارفون بحقه ، العالمون بأنها خدعة ، وهم القليل أمثال الأشتر وحجر بن عدى والخصين ابن المنذر .

٢ - المخلصون له بقلوبهم ، لكنهم خدعوا ، أو أحبوا البقاء ، أمثال حريث بن جابر ورفاعة بن شداد .

٣ - الذين ليس للإمام فى قلوبهم مكانته التى يجب أن تكون له : مضافاً إلى أنهم قد خدعوا ، وهم القراء أهل الجباه السود ، وهؤلاء كانوا وما زالوا فى كل عصر أضر من الفساق المتجاهرين بالفسق

٤ - المنافقون الذين يظهرون النصيحة ويبطنون الغش أمثال الأشعث بن قيس الذى يقول فيه المرحوم الأستاذ عباس العقاد

« كان الأشعث بن قيس أكبر سادات كندة وأخاطقهم أن ينصر حزبه على حزب أو خلصت نيته . وبرئت شيمته من القلب والغدر بأصحابه طمح هذا الرجل إلى الملك بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم . فداء

ه أن يتوجوه ، وحارب المسلمين مع المرتدين حتى حوَّصر في حصنه ماً ويئس من الغلبة ، فاستسلم على أن يصاب دمه ودم عشرة من مصائه ، ثم فتح الحصن ، فقتل كل من فيه ، ونجا بالعشرة الذين تارهم إلى أبي بكر رضى الله عنه ، فقبل توبته ، وزوجه أخته أم فروة ، ما نشبت الفتنة بين علي ومعاوية كان هو من حزب علي يتطلع بصة السانحة .

ويؤيد الدكتور طه حسين رأى العقاد في الأشعث فيقول واصفاً س أنصار الإمام : « وأكبر الظن أن بعض الرؤساء من أصحاب لم يكونوا يخلصون له نفوسهم ولا قلوبهم . ولم يكونوا ينصحون له ، هم كانوا أصحاب دنيا لا أصحاب دين ، وكانوا يندمون في دخائلهم على تلك الأيام الهيبة اللينة التي قضوها أيام عثمان ينعمون بالصَّلات نواثر والإقطاع ، واست أذكر من هؤلاء إلا الأشعث بن قيس ندى ذلك الذى أسلم أيام النبي ، ثم ارتد بعد وفاته ، وألب قومه ، ورطهم في الحرب ، ثم أسلمهم وأسرع إلى المدينة ثائباً ، فلم يم دمه من أبي بكر فحسب ، ولكنه أصر إليه وتزوج أخته ، خمل في أيام عمر ، وظهر في أيام عثمان ، فتولى له بعض أعماله في ن ، فلما هم على أن ينهض إلى الشام عزله عن ولايته . ويقال طالبه بشيء من مال المسلمين . »

واختلف فعلاً أصحاب الإمام رضى الله عنه وقد بينت آنفاً نموذجاً

فريداً في نوعه ، وهو الأشعث بن قيس ، وسنرى حالاً أنه كان النصير الأول للتحكيم بل سنرى أكثر من ذلك .

وأما من ربيعة - وهي الجهة الرئيسية - فقد قام كردوس بن هاني البكري فقال : « أيها الناس إنا والله ما تولينا معاوية منذ تبرأنا منه ، ولا تبرأنا من علي مذ تولىناه ، وإن قتلنا لشهداء ، وإن أحياءنا لأبرار ، وإن علينا أعلى بيعة من ربه ، وما أحدث إلا الإنصاف ، ونزل محق منصف ، فمن سلم له نجاً ، ومن خالفه هلك » .

وأما شفيق بن ثور البكري فقد قال كلاماً طويلاً ختمه بقوله : « وقد أكلتنا هذه الحرب ، ولا نرى البقاء إلا في الوداعة » .

وأما خالد بن المعمر - فقد قال : « يا أمير المؤمنين ، إنا لا نرى البقاء إلا فيما دعاك إليه القوم إن رأيت ذلك ، فإن لم تره فرأيك أفضل » . وقام الحضيض بن المنذر الرقاشي فقال : « أيها الناس ، إن لنا داعياً قد حمدنا ورده وصدده ، وهو المصدق على ما قال ، والمأمون على ما فعل ، فإن قال لا قلنا لا ، وإن قال نعم قلنا نعم » .

ماذا قال الإمام

روى أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال عندما رفع أهل الشام المصاحف يدعون إلى حكم القرآن : « عباد الله ، أنا أحق من أجاب

إلى كتاب الله ولكن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط وحبيب ابن مسلمة وابن أبي سرح ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، إني أعرف بهم منكم ، صحبتهم أطفالا ، وصحبهم رجالا ، فكانوا شر أطفال وشر رجال ، إنها كلمة حق يراد بها باطل ، إنهم والله ما رفعوها حقاً ، إنهم يعرفونها ولا يعملون بها ، وما رفعوها لكم إلا خديعة وكيدة ، أعيروني سواعدكم وجماعكم ساعة واحدة ، فقد بلغ الحق مقطعه ولم يبق إلا أن يقطع دابر الذين ظلموا » .

والذى لا شك فيه أن الإمام رضى الله عنه لم ينخدع برفع المصاحف ، وكرر قوله : « إن معاوية ليس بصاحب دين ولا قرآن ، وإن معاوية وأصحابه يكيدون ويخادعون ويتقرن حر السيف » .

وكان الإمام يرى ألا حكم إلا لله ، وأن السبيل إلى حكم الله هو القِبال حتى يدعن أهل الشام ، ولكن الأغلبية من أصحابه لم تذهب مذهبه .

ركتب معاوية رسالة إلى الإمام قال فيها : « فهل لك في أمر لنا ولك فيه حياة وعذر وصلاح للأمة وحقن للدماء وألفة للدين وذهاب المضغائن والفتن ، أن يحكم بيننا وبينكم حكمان أحدهما من أصحابي بالآخر من أصحابك فيحكمان بما في كتاب الله بيننا » .

اختيار الحكمين

جاء الأشعث بن قيس إلى الإمام رضى الله عنه ، وألح على الإمام في أن يختار على أبا موسى الأشعري وأكره الإمام إكراهاً على قبوله ، واختار معاوية عمرو بن العاص .

ومما قاله الإمام في اختيار الأشعري : « إني لا أرضى بأبى موسى ، ولا أرى أن أوليه » ، فقال الأشعث ويزيد بن حصين : نحن لا نرضى إلا به فإنه قد حذرنا ما وقعنا فيه ، فقال لهم الإمام : إنه ليس لى برضى ، وقد فارقنى وخذل الناس عني ، ثم هرب حتى أمنتته وبعد أشهر .

ولا يستبعد الدكتور طه حسين أن يكون الأشعث بن قيس — وهو ماكر أهل العراق وداهيتهم — قد اتصل بعمر بن العاص ماكر أهل الشام وداهيتهم ، ودبروا هذا الأمر بينهم تدبيراً ودبروا أن يقتل القوم ، فإن ظهر أهل الشام فذاك ، وإن خافوا الهزيمة أو أشرفوا عليها رفعوا المصاحف فأوقعوا الفرقة بين أصحاب على ، وجعلوا بأسهم بينهم شديداً ، وقد تم لهم ما دبروا إن كانوا قد دبروا شيئاً واستكره الأشعث ومن أطاعه علياً على كف القتال .

الإمام يرشح ابن عباس

وحاول الإمام ترشيح ابن عباس للتحكيم فقال مخاطباً الأشعث

ابن قيس ومن معه : « هذا ابن عباس أوليه التحكيم » ، فقالوا والله ما نبالي أنت كنت أو ابن عباس ، لا نريد إلا رجلاً هو منك ومن معاوية سواء ، فقال الإمام : فإنى أجعل الأشتر ، قال الأشعث : « وهل سعر الأرض علينا غير الأشتر ؟ وهل نحن إلا في حكم الأشتر ؟ » . قال : وما حكمه ؟ قالوا : حكمه أن يضرب بعضنا بعضاً بالسيف حتى يكون ما أردت وما أراد .

وعن أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام قال : لما أراد الناس عليّاً على أن يضع حكمين قال لهم : إن معاوية لم يكن ليضع أحداً هو أوثق برأيه ونظره من عمرو بن العاص ، وإنه لا يصلح للقرشي إلا مثله ، فعليكم بعبد الله بن عباس فارموه به فإن عمرأ لا يعقد عقدة إلا حلها عبد الله ولا يحل عقدة إلا عقدها ، ولا يبرم أمراً إلا نقضه ، ولا ينقض أمراً إلا أبرمه . فقال الأشعث بإصرار : لا والله لا يحكم فينا مضر يان حتى تقوم الساعة ، ولكن اجعله رجلاً من أهل اليمن إذا جعلوا رجلاً من مضر .

فقال الإمام عليه السلام « إني أخاف أن يندع يمنيكم فإن عمرأ ليس من الله في شيء إذا كان له في أمر هواه » .

وفي إصرار الأشعث على اختيار أبي موسى من الدلالة على عدم إخلاصه للإمام ما فيه ، وليس من المستبعد إطلاقاً أن يكون الأشعث قد اتصل بعمر بن العاص كما سبق أن ذكرنا .

وأخيراً — لما رأى الإمام إصرارهم وقلة أنصاره على رأيه بينهم — قال عليه السلام : قد أبيتم إلا أبا موسى ؟

قالوا : نعم .

قال : فاصنعوا ما أردتم .

فبعثوا إلى أبي موسى ، وكان معتزلاً بأرض من أرض الشام يقال لها عرض ، فأثاه مولى له ، فقال : إن الناس قد اصطلحوا ، قال : الحمد لله .

قال : وقد جعلوك حكماً .

قال : إنا لله وإنا إليه راجعون .

فجاء أبو موسى حتى دخل عسكر على عليه السلام .

كتاب الصلح

واجتمع المفوضون من الفريقين ، فكتبوا صحيفة هذا نصها كما رواه البلاذرى :

« بسم الله الرحمن الرحيم — هذا ما تقاضى عليه على بن أبى طالب معاوية بن أبى سفيان وشيعتهما ، فيما تراضيا به من الحكم بكتاب الله سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، قاضى على^١ على أهل العراق ومن كان من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين ، وقاضى معاوية على أهل الشام من كان من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين : أننا ننزل عند حكم الله ، بيننا كتاب الله فيما اختلفنا فيه من فاتحته إلى خاتمته ، نحى ما أحيا ، نحيى ما أمات ، فما وجد الحكماء فى كتاب الله فإنهما يتبعانه ، وما يجدها مما اختلفا فيه فى كتاب الله نصاً أمضيا فيه السنة العادلة الحسنة الجامعة غير المفرقة ، والحكماء عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص — أخذنا عليهما عهد الله وميثاقه ليحكمنا^٢ بما وجدنا فى كتاب الله نصاً ، لم يجدها فى كتاب الله يُسمى عملاً فيه بالسنة الجامعة غير المفرقة ، أخذنا من على ومعاوية ومن الجنديين كليهما ، ومن تأمرا عليه من الناس هداً الله ليقبلن ما قضيا به عليهما ، وأخذنا لأنفسهما الذى يرضيان به

من العهد ومن الثقة بالناس أنهما آمان على أنفسهما وأهليهما وأموالهما ،
وأن الأمة لهما أنصار على ما يقضيان به على على ومعاقبة وعلى المؤمنين
والمسلمين من الطائفتين كلتيهما ، وأن على عبد الله بن قيس وعمرو
ابن العاص عهد الله وميثاقه أن يصلحا بين الأمة ولا يرداهم إلى فرقة
ولا حرب ، وأن أجل القضية إلى شهر رمضان ، فإن أحبا أن يعجلها
دون ذلك عجلا ، وإن أحبا أن يؤخرها عن غير ميل منهما أخرها ،
وإن مات أحد الحكمين قبل القضاء فإن أمير كل شعبة وشيعته يختارون
مكانه رجلا لا يألون عن أهل المعدلة والنصيحة والإقساط ، وأن يكون
مكان قضيتهما التي يقضيانها فيه مكان عدل بين الكوفة والشام والحجاز ،
لا يحضرهما فيه إلا من أرادا ، فإن رضيا مكاناً غيره فحيث أحبا أن
يقضيا ، وأن يأخذ الحكمان من كل واحد من شاءا من الشهود ثم
يكبا شهادتهم في هذه الصحيفة أنهم أنصار على من ترك ما فيها : اللهم
نستنصرك على من ترك ما في هذه الصحيفة وأراد فيها إلحاداً أو ظلماً
أو حاول له نقضاً .

وشهد بما في الكتاب من أصحاب على : عبد الله بن عباس
والأشعث بن قيس والأشتر مالك بن الحارث وسعيد بن قيس الهمداني
والحصين والطنيل ابنا الحارث بن المطلب وأبو أسيد ربيعة بن مالك
الأنصاري وعوف بن الحارث بن المطلب القرشي وعقبة بن عامر الجهني
وعمر بن الحمق الخزاعي والإمام الحسن والإمام الحسين وعبد الله

ابن جعفر الهاشمي والنعمان بن عجلان الأنصاري وحجر بن عدى الكندى وربيعه بن شرحبيل وحجر بن يزيد والحارث بن مالك الهمداني وعقبة بن زياد .

ومن أهل الشام من أصحاب معاوية : حبيب بن مسلمة الفهري وأبو الأعور بن سفيان السلمى وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد المخزومي وحبيب بن مسلمة وبُسُسر بن أرطاة القرشي ومعاوية بن خديج الكندى حمزة بن مالك الهمداني ويزيد بن الحر الثقفي وعبد الله بن عمرو بن العاص ومروان بن الحكم والوليد بن عقبة القرشي وعتبة بن أبي سفيان محمد بن عمرو بن العاص ومحمد بن أبي سفيان وحمزة بن مالك ، غيرهم .

ويرى عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين أن ليس في كتاب أصلح الموضوع الأصلي الذى اختلفا من أجله فيقول : إن الخطير هو أن الفريقين قد حددا في صحيفتهما كل شيء إلا هذا الموضوع الذى اختلفا فيه ، والذى يجب أن يقضى فيه الحكمان ، ففيم كانا يختلفان بالفعل ؟ كان معاوية يطلب بدم عثمان . ويريد أن يسلم إليه على قتلته الخليفة المظلوم ، وكان على لا يعرف لعثمان قاتلا بعينه ، ولا يقدر على أن يسلم إلى معاوية جميع من ثاروا بعثمان حتى قتل . أفكان نمريقان يريدان من الحكمين أن يفصلا في هذه القضية ؟ وإذا فما لهما لم ينصا عليها ، بل لم يذكرنا عثمان وقتلته في الصحيفة أصلا ،

وكان معاوية يرى بعد مقتل طلحة والزبير ، وبعد أن استحصد أمره ، واشتد بأسه ، أن يكون أمر الخلافة شورى بين المسلمين ، وكان على يرى أنه قد بويع الخلفاء من قبله ، بايعه أهل الحرمين وهم أصحاب الحل والعقد ، وبايعه أهل الأمصار إلا الشام ، فقد اجتمعت له إذاً بيعة الكثرة الكثيرة من المسلمين عامة ، ومن المهاجرين والأنصار خاصة ، ولم يبق لمعاوية إلا أن يدخل فيما دخل فيه الناس ، ويدخل معه أصحابه من أهل الشام ، فإن لم يفعلوا فهم الفئة الباغية التي أمر المسلمون بقتالها إن أبت الصلح ، وكرهت العافية ، حتى تفيء إلى أمر الله . وإذاً فما بال الفريقين لم ينصا على ذلك في صحيفتهما ، بل لم يذكرنا الخلافة ولا الشورى في الصحيفة أصلاً ؟ ! .

ويرى كثيرون - وفي مقدمتهم الدكتور طه حسين - أن كتاب الصلح قد أرضى الفريقين المختصين ، وأن الذين كتبوا هذا الكتاب قد كرهوا الحرب وشموا القتال وتعجلوا السلم ، كذلك كانت نتيجة هذه الصحيفة اختلاف في صفوف أهل العراق واتلاف في صفوف أهل الشام .

اجتماع الحكمين بدومة الجندل

واجتمع الحكمان بدومة الجندل التي وقع عليها الاختيار لتكون وسطاً بين العراق والشام ، وأخذ عمرو يقدم أبا موسى في الكلام ، ويقول إنك قد صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلي ، وأنت

أكبر مني فتكلم ، وجعل يقدمه في كل شيء ، وهدفه في ذلك أن يبدأ بخلع الإمام ، وقال عمرو بن العاص : أخبرني يا أبا موسى ما رأيك؟ قال : رأي أن أخلع هذين الرجلين علياً ومعاوية ، ثم نجعل هذا الأمر شورى بين المسلمين يختارون لأنفسهم من شاءوا . فقال له عمرو : الرأي ما رأيته . فأقبلا إلى الناس وهم مجتمعون . وهنا المسألة الهامة : من يتكلم أولاً ؟ وقد ذكرت أن عمرأ كان دائماً يقدم أبا موسى ، وفي روايات كثيرة أن ابن عباس أشفق من خداع عمرو ، فأشار على أبي موسى أن يتأخر حتى إذا تكلم عمرو استطاع هو أن يتكلم بعده ، وقال له : « ويحك ! والله إنى لأظنه قد خدعك ، إن كنتم قد اتفقتم على أمر فقدمه قبلك فيتكلم بذلك الأمر قبلك ، ثم تتكلم أنت بعده ، فإن عمرأ رجل غدار ، ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه ، فإذا قمت به في الناس خالفك » .

وكان رد أبي موسى على ابن عباس : « إنا قد اتفقنا » . ولم يستمع إلى رأيه ، إنما قام فحمد الله وأثنى عليه وقال : إن رأي ورأي عمرو قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله به أمر هذه الأمة . ثم قال مخاطباً الجماهير : « أيها الناس ، إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة ، وقد أجمع رأي ورأي صاحبي على خلع علي ومعاوية ، ونستقبل هذا الأمر ، فيكون شورى بين المسلمين ، فيولون أمورهم من أحبوا ، وإنى قد خلعت علياً ومعاوية ، فاستقبلوا أمركم وولوا من رأيتم لها أهلاً » .

ثم تنحى فقعد ، وقام عمرو بن العاص مقامه فقال : « إن هذا قال ما سمعتم ، وخلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبي معاوية ، فإنه ولي عثمان ، والطالب بدمه ، وأحق الناس بمقامه » .

وهنا قال أبو موسى : « ما لك ! لا وفّقت الله ! قد غدرت وفجرت ، وإنما مثلك مثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث » .

فابتسم عمرو وهو يقول : « إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً ... »

وهنا أقبل شريح بن هانئ رئيس الوفد من أصحاب علي فقنع عمرأ بسوطه ، وقام محمد بن عمرو فقنع شريحاً بسوطه .

وصدق المرحوم الأستاذ العقاد إذ يقول : « كلب وحمار فيما حكما به على نفسيهما غاضبين ، وهما يقضيان على العالم بأسره ليرضى بما قضياه » .

وانتهت المأساة بهذه المهزلة ، أو انتهت المهزلة بهذه المأساة !

والتمس أصحاب عليّ أبا موسى ، فركب ناقته فلحق بمكة ، فكان ابن عباس يقول : قبح الله أبا موسى ! حذرته . . أمرته بالرأى فعا عقل . وكان أبو موسى يقول : قد حذرتني ابن عباس غدرة الفاسق ، ولكن اطمأننت إليه وظننت أنه لن يؤثر شيئاً على نصيحة الأمة .

بهذا تنتهى مهزلة التحكيم التي دبرها عمرو بن العاص ، وشرى دينه

بإمارة مصر التي عزله عنها معاوية في الوقت المناسب ، وولاهها عبد العزيز ابن مروان بن الحكم . ولنستمع إلى ما قال عمرو في كتاب أرسله إلى معاوية :

معاوية الحال لا تجهل	وعن طرق الحق لا تعدل
خلعت الخلافة من حيدر	كمخلع النعال من الأرجل
وألبسها لك يابن اللثام	كلبس الخواتم في الأثام
ولولاي كنت كمثل النساء	تعاف الخروج من المنزل
ولم تك والله من أهلها	ورب العباد ولم تكمل
فأين الحمى من نجوم السماء	وأين الحسام من المنجل
وأين الثريا وأين الثرى	وأين معاوية من على
وأعطيت مصراً لعبد العزيز	ولم تعطى حبة الخردل

الإمام بعد التحكيم

لم يدهش الإمام علي بن أبي طالب لما سمعه عن مهزلة التحكيم ، كما أنه كان يتوقعه ، وإنما ذكر تحذيره لأصحابه في صفين حين رفعوا المصاحف فقال لهم : « إن القوم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن » . وقد خطب الإمام بعد أن أتمه أمر الحكيمين فقال : « الحمد لله ، وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحدث الجلل ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله . أما بعد فإن معصية الناصح الشفيق المجرب تورث

الحسرة ، وتعقب الندم ، وقد كنت أمرتكم في هذين الرجلين وهذه الحكومة أمرى ، ونخلت لكم رأى ، لو يطاع لقصير رأى ، ولكنكم أبيتم إلا ما أردتم ، فكنت وإياكم كما قال أخو هوزان

أمرتهم أمرى بمنعرج الولى فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد
 ألا إن الرجلين اللذين اخترتموهما حكمين قد نبذا حكم الكتاب وراء
 ظهورهما ، وارتأيا الرأى من قبل أنفسهما — فأماتا ما أحيا القرآن ،
 وأحييا ما أمات القرآن ثم اختانا فى حكمهما ، فكلاهما لا يرشد ولا
 يسدد ، فبرئ الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين ، فاستعدوا للجهاد ،
 وتأهبوا للمسير ، وأصبحوا فى معسكركم يوم الاثنين إن شاء الله .

المأسة الثالثة

الخوارج وواقعة النهروان

من هم الخوارج ؟ هم الذين أنكروا التحكيم الذى وقع يوم صفين ، وقالوا لا حكم إلا لله ، ويقال لهم الحرورية ، نسبة إلى المكان الذى اجتمعوا فيه ، ويقال له حروراء ، ويسمرون أنفسهم الشراة ، لأنهم يزعمون أنهم - شروا أنفسهم وابتاعوا آخرتهم بدنياهم^(١)

وقد اجتمع الخوارج ، وأبرموا فيما بينهم ميثاقاً : « إن هذين الحكيمين قد حكما بغير ما أنزل الله ، وقد كفر إخواننا حين رضوا بهما ، وحكموا الرجال فى دينهم . ونحن على الشخوص من بين أظهرهم ، وقد أصححنا والحمد لله ونحن على الحق من بين هذا الخلق » .

وروى الطبرى أنه لما وقع التحكيم ورجع على من صفين رجعوا مباينين له ، فلما انتهوا إلى النهر أقاموا به ، ويؤيد ابن الأثير ذلك فيقول أيضاً إنه لما رجع على من صفين فارقه الخوارج ، وأتوا حروراء فنزلوا بها ، وكانوا اثني عشر ألفاً ، ونادى مناديتهم عبد الله بن الكواء : الأمر شورى بعد الفتح ، والبيعة لله عز وجل ، والأمر بالمعروف والنهى

(١) قال أحلم - وهو معدان الإيادى :

سلام على من بايع الله شاربياً وليس على الحزب المقيم سلام

عن المنكر : فقامت الشيعة فقالوا لعلی : فی أعناقنا بیعة ثانية ، نحن أولیاء من والیت وأعداء من عادیت .

فقاتل الخوارج استبقتم أنتم وأهل الشام إلى الکفر کفرسی رهان ، بايع أهل الشام معاوية علی ما أحبوا وكرهوا ، وبايعتم علیاً علی أنکم أولیاء من والی وأعداء من عادی ، فقال لهم زیاد بن النضر : أما والله ما بايعنا علیاً إلا علی کتاب الله وسنة نبيه ، ولكنکم لما خالفتموه وجاءته شيعته قالوا نحن أولیاء من والیت وأعداء من عادیت ، ونحن كذلك . وهو علی الحق والهدی ، ومن خالفه ضال مضل .

ويقول الطبری أن الإمام علیاً بعث إليهم ابن عباس ، فرجع ولم یصنع شیئاً .

وقال المبرد وغيره : لما وجه ابن عباس إليهم ليناظرهم قال لهم ما الذى نقيم علی أمير المؤمنين ؟ قالوا له : قد كان للمؤمنين أميراً ، فلما حکم فی دين الله خرج من الإيمان ، فليتبع بعد إقراره بالکفر نعدله . فقال ابن عباس : ما ينبغي للمؤمن لم يشب إيمانه بشك أن یقر علی نفسه بالکفر . قالوا : إنه حکم — قال : إن الله أمر بالتحکيم فی قتل صيد ، قال : (يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ) ، فكيف فی إمامة قد أشکلت علی المسلمين ؟ فقالوا : إنه حکم علیه فلم یرض ، فقال : إن الحكومة كالإمامة ، ومتى فسق الإمام وجبت معصيته ، وكذلك الحکمان لما خالفا نبذت أقاويلهما ، فقال بعضهم لبعض : جعلوا

احتجاج قریش حجة عليهم ، فهذا من الذين قال الله فيهم : (بَلَّغْهُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ) ، وقال جل شأنه : (وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا) .

قال المبرد ثم ناظرهم أمير المؤمنين بعد مناظرة ابن عباس . ولنقرأ ما دار بين الإمام وعبد الله بن الكواء قائد الخوارج :

الإمام على : ما الذى نقمتم على بعد رضاكم ولايتي ، وجهادكم معي ، وطاعتكم لي ؟ فهلا برثتم مني يوم الحمل ؟ !
ابن الكواء : لم يكن هناك تحكيم .

الإمام على : يا بن الكواء ، ويحك ! أنا أهدى أم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

ابن الكواء : بل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الإمام على : فما سمعت قول الله عز وجل : (قُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ) -
أكان الله يشك أنهم هم الكاذبون ؟

ابن الكواء : إن ذلك احتجاج عليهم . وأنت شككت في نفسك حين رضيت بالحكمين ، فنحن أخرى أن نشك فيك .

الإمام على : وإن الله تعالى يقول : (فَاتُّوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعُ) .

ابن الكواء : ذلك أيضاً احتجاج منه عليهم .

وبعد مناقشة طريفة قال ابن الكواء : « إنك صادق في جميع قولك ، غير أنك كفرت حين حكمت الحكيمين » .

الإمام علي : ويحك يا ابن الكواء ! إني إنما حكمت أبا موسى ، وحكم معاوية عمراً .

ابن الكواء : فإن أبا موسى كان كافراً .

الإمام علي : متى كفر ؟ أحين بعثته أم حين حكم ؟

ابن الكواء : بل حين حكم .

الإمام علي : أفلا ترى أنني إنما بعثته مسلماً فكفر في قولك بعد أن بعثته ؟ أرايت لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلاً من المسلمين إلى ناس من الكافرين ليدعوهم إلى الله فدعاهم إلى غيره - هل كان على رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك شيء ؟

ابن الكواء : لا .

الإمام علي : ويحك ! فما كان على أن ضل أبو موسى ؟ أفيجل لكم بضلالة أبي موسى أن تضعوا سيوفكم على عواتقكم فتعترضوا بها الناس .

وقال لهم الإمام علي : ألا تعلمون أن هؤلاء القوم لما رفعوا المصاحف

قلت لكم إن هذه مكيدة ، وإنهم لو قصدوا إلى حكم المصاحف
لأتوني ، وسألوني ؛ أفتعلمون أن أحداً كان أكره لكم للتحكيم مني ؟
قالوا : صدقت .

الإمام علي : هل تعلمون أنكم استكرهتموني على ذلك حتى أجهنكم
إليه ، فاشترطت أن حكمهما نافذ ما حكما بحكم الله ، فتي خالفاه
فأنا وأنتم من ذلك براء ، وأنتم تعلمون أن حكم الله لا يعدوني .

قالوا : اللهم نعم . حكمت في دين الله برأينا ، ونحن مقرون
بأنا كفرنا ، ولكننا الآن تائبون فأقر بما أقررنا به وتب نهض معك
الشام .

الإمام علي : أما تعلمون أن الله قد أمر بالتحكيم في شقاق بين
الرجل وامرأته ، فقال سبحانه وتعالى : (فَابْتَغُوا حُكْماً مِنْ أَهْلِهِ
وَحُكْماً مِنْ أَهْلِهَا) .

ولم تثمر المناقشة التي كان يرجوها الإمام بل تأثر .

ومن شعره الذي قاله وكان يردده لما ساموه أن يقر بالكفر ويتوب
حتى يسيروا معه إلى الشام أنه قال : أبعد صحبة رسول الله صلى الله
عليه وسلم والتنفقه في الدين أرجع كافراً . ثم أنشد :

يا شاهد الله على فاشهد أني على دين النبي أحمد

من شك في الله فإني مهتدي

ويقول ابن أبي الحديد : كل فساد في خلافة عليّ أصله الأشعث ، ولولا تصرفه مع الإمام ما كانت حرب النهروان . فقد حدث أن الإمام عليّاً خرج إلى الخوارج في حروراء وناشدهم فاستجابوا . فقالوا إنا أذنبنا ذنباً عظيماً بالتحكيم : وقد تبنا فتب إلى الله كما تبنا نعد معك ، فقال الإمام أنا أستغفر الله من كل ذنب . فرجعوا معه وهم ستة آلاف ، فلما استقروا بالكوفة أشاعوا أن عليّاً رجع عن التحكيم ورآه ضلالاً ، فأتى الأشعث عليّاً فقال : يا أمير المؤمنين : إن الناس قد تحدّثوا أنك رأيت الحكومة ضلالاً والإقامة عليها كفرآ فقام على يخطب الناس فقال :

من زعم أني رجعت عن الحكومة فقد كذب ، ومن رآها ضلالاً فقد ضل . ومن هذا يتبين أن الإمام أراد أن يسلك مع الخوارج مسلك التعريض ، فقال لهم كلمة مجملة يقوفا الأنبياء والمعصومون فرضوا بها ، فألجأه الأشعث إلى التصريح حيث سأله بحضور من لا يمكنه معه إلا التصريح فانتقض ما دبره .

ويقول الطبري : لما وصل الإمام على إلى النهر بعث إليهم : ادفعوا لنا قتلة إخواننا منكم تقتلهم بهم . ثم أنا تارككم وكاف عنكم حتى ألقى أهل الشام . ففعل الله يردكم إلى خير مما أنتم عليه . فقالوا كلنا قتلهم ، وكلنا نستحل دماءهم ودماءكم . وخرج إليهم قيس بن سعد بن عبادة

فوعظهم ، واحتج عليهم ، وقال لهم : ركبتم عظيماً من الأمر . تشهدون علينا بالشرك ، وتسفكون دماء المسلمين . فلم ينجح ذلك فيهم ، وخطبهم أبو أيوب الأنصاري فقال : إنا وإياكم على الحال الأولى التي كنّا عليها ، فعلام تقالوننا ؟ فقالوا : إنا لو تابعتناكم اليوم حكمتم غداً ، قال : فإنني أُنشدكم الله أن تعجلوا فتنة العام مخافة ما يأتي في القابل . وقال لهم الإمام على أيتها العصاة التي أخرجها عداوة المراء واللجاجة وصدّها عن الحق الهوى ، ألم تعلموا أني نهيتكم عن الحكومة ، وأخبرتكم أن طلب القوم إياها منكم مكيدة ، ونبأتكم أن القوم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، وأنّي أعرف بهم منكم ، عرفتهم أطفالاً ورجالا ، وهم أهل المكر والغدر ، وأنكم إن فارقتم رأيي جانبتم الحزم ، فعصيتُموني ، حتى إذا أقررت بأن حكمت . فلما فعلت شرطت واستوثقت ، فأخذت على الحكمين أن يحيا ما أحيا القرآن ويميتا ما أمات ، فاختلفا وخذلنا حكم الكتاب والسنة . فنبذنا أمرهما . ونحن على أمرنا الأول ، فما الذي بكم ؟ ومن أين أتيتم ؟ قالوا : إنا حكمنا ، فلما حكمنا أثمنا ، وكنا بذلك كافرين . وقد تبنا . فإن تبت كما تبنا فنحن منك ومعلك ، وإن أبيت فاعتزلنا فإذا منا بدوك على سواء . إن الله لا يحب الخائنين . فقال الإمام على أصابكم حاصب (والحاصب هي الريح الشديدة التي تشير الحصباء) ، ولا بقى منكم أبر ، أبعد إيماني برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهجرتي معه ، وجهادى في سبيل الله . أشهد على

نفسى بالكفر ؟ ! لقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين . ثم انصرف عنهم . فتنادوا لا تخاطبوهم ولا تكلموهم وتهيئوا للقاء الرب - الرواح الرواح إلى الجنة .

وخرج الإمام على فعياً أصحابه ، وعبأت الخوارج ، ورفع الإمام رايته مع أبى أيوب فناداهم : من جاء هذه الراية ممن لم يقتل فهو آمن ، ومن انصرف إلى الكوفة أو المدائن فهو آمن . فانصرف خمسمائة فارس منهم . وبقي مع الإمام ألفان وثمانمائة وزحفوا إلى على ويقول المسعودى إن الإمام وقف عليهم بنفسه فدعاهم إلى الرجوع والتوبة فأبوا ، ورموا أصحابه ، فقتل له قد رمونا . فقال كفوا . فكرر القول عليه ثلاثاً وهو يأمرهم بالكف حتى أتى برجل قتيل متشحط بدمه ، فقال الإمام الله أكبر ! الآن حل قتالهم . احملوا على القوم . فحمل رجل من الخوارج على أصحاب على فخرج فيهم وجعل يغشى كل ناحية ويقول :

أضربهم ولو أرى علياً ألبسته أبيض مشرفياً

فحمل عليه الإمام وقتله ثم خرج منهم آخر فحمل على الناس ففتك فيهم وجعل يكر عليهم وهو يقول :

أضربهم ولو أرى أبا حسن ألبسته بصرى ثوب غبن

فخرج إليه على وهو يقول :

يأيها المبتغى أبا حسن إليك فانظر أينما يلتقى الغبن

وحمل عليه وشكه بالرمح وترك الرمح فيه . وانصرف على وهو يقول : لقد رأيت أبا حسن فرأيت ما تكره .

روى أبو عبيدة معمر بن المثنى قال التفت على إلى أصحابه فقال لهم : شدوا عليهم ، فأنا أول من يشد عليهم : وحمل بذى الفقار حملة عنيفة ثلاث مرات : كل حملة يضرب به حتى يعوج منه ثم يخرج فيسويه بركبتيه : ثم يحمل به حتى أفنأهم ولم يبق منهم سوى أربعمائة أصيبوا بجراح وعجزوا عن القتال .

قال ابن الأثير : ولما فرغ على من أهل النهر حمد الله وأثنى عليه وقال إن الله قد أحسن بكم ، وأعز نصركم : فتوجهوا من فوركم هذا إلى عدوكم بالشام . قالوا يا أمير المؤمنين . نفدت نبأنا . وكات سيوفنا : ونصلت أسنة رماحنا ، فارجع بنا إلى مصرنا ، لنستعد . ولعل أمير المؤمنين يزيد في عدتنا وكان المتصدى للإمام كالعادة الأشعث ابن قيس .

تسلل الجند ودخلوا الكوفة . ولاذ من لاذ بالمدن القريبة منهم ، وأيقن الإمام أن القوم مارقون من يده : ولا طاعة له عليهم ، فانكسر عليه رأيه في المسير ، وحاول للمرة الأخيرة أن يخطبهم فقال : « أيها الناس استعدوا للمسير إلى عدوكم ، ومن جهاده القرية إلى الله عز وجل ، ودرك الوسيلة عنده . حيارى عن الحق ، جفاة عن الكتاب ، فأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، وتوكلوا على الله : وكفى بالله وكيلا ، وكفى الإمام على

بالله نصيراً» فلم ينفروا . وكان السلم محبباً إليهم . ومضى أصحاب الإمام في إثارة الراحة والدعة والتكوص عن الحرب كلما دعوا إليها . أما معاوية فقد علا نجمه بين قومه : وأعانه طلاب المنافع عامدين . وأعانه الخوارج غير عامدين ، واشترى ضمائر الرؤساء . وأفسدهم على إمامهم ، وجعلهم بالقياس إليه منافقين . يعطونه الطاعة بأطراف ألسنتهم ، ويطوون قلوبهم على المعصية والخذلان .

بقى الإمام في الكوفة يائساً منعزلاً عن الناس يتمنى الموت كما قال في بعض خطبه ، ويوجس شراً من أقرب المقربين إليه ، وانتهى بقبول المهادنة بينه وبين معاوية على أن تكون له العراق ولعواوية الشام ، ويكفها السيف عن هذه الأمة فلا نزاع ولا قتال .

المائة الأخيرة

١٠٠

يقول الطبرى فى تاريخه وابن الأثير فى الكامل اجتمع زعماء الخوارج ، ومنهم عبد الرحمن بن ملجم المرادى ، والبرك بن عبد الله التميمى الصريمى واسمه الحجاج ، وعمرو بن أبى بكر التميمى السعدى ، وتذاكروا أمر الناس . وعابوا الولاة . ثم ذكروا أهل النهر فترحموا عليهم وقالوا ما نصنع بالبقاء بعدهم . فلو شرينا أنفسنا لله ، وقتلنا أئمة الضلال ، وأرحنا منهم البلاد ! فقال ابن ملجم : أنا أكفيكم علياً ، وقال البرك بن عبد الله : أنا أكفيكم معاوية . وقال عمرو بن بكر أنا أكفيكم عمرو بن العاص . فتعاهدوا ألا ينكص أحدهم عن صاحبه الذى توجه إليه حتى يقتله أو يموت دونه ، وأخذوا سيوفهم فسموها . وأتى ابن ملجم الكوفة فلقى أصحابه بها ، وكتبهم أمره ، ورأى يوماً أصحاباً له من تيم الرباب ، ومعهم امرأة منهم اسمها « قطام » ، قتل أبوها وأخوها يوم النهر ، وكانت فائقة الجمال فخطبها ، فقالت : لا أتزوجك لا على ثلاثة آلاف وعبد وقينة وقتل على .

فقال : أما قتل على فما أراك ذكرته وأنت تريدني .

قالت : بل التمس غرته . فإن أصبته شقيت نفسك ونفسي .

ونفعلك العيش معي ، وإن قتلت فما عند الله خير من الدنيا وما فيها .

قال : والله ما جاء بي إلا قتل علي ، فلك ما سألت .

قالت : سأطلب لك من يشد ظهرك ويساعدك .

وبعثت إلى رجل من قومها اسمه وردان فأجابها . وأتى ابن ملجم

شبيب بن بحرة ، فقال : هل لك في شرف الدنيا والآخرة . قال :

وما ذاك ؟ قال : قتل علي بن أبي طالب .

قال شبيب : ثكلتك أمك ! لقد جئت شيئاً إداً ، كيف تقدر

على قتله ؟ !

قال : أكن له في المسجد . فإذا خرج إلى صلاة الغداة شددنا

عليه فقتلناه .

قال : ويحك ! لو كان غير علي لكان أهون . قد عرفت سابقته

وفضله وبلاءه في الإسلام وما أجدني أنشرح لقتله .

قال : أما تعلمه قتل أهل النهر العباد الصالحين ؟ !

قال : بلى .

قال : فلهقتله بمن قتل من أصحابنا . فأجابه . فلما كانت ليلة

الجمعة — وهي الليلة التي واعد ابن ملجم فيها أصحابه على قتل علي

ومعاوية وعمر — جاءوا قطام وهي في المسجد الأعظم معتكفة ، فدعت

لهم بالحرير وعصبتهم به .

وخرج الإمام رضى الله عنه ونادى : الصلاة الصلاة ، فضربه شبيب بالسيف فوق سيفه بعضادة الباب ، وضربه ابن ملجم على قرنه بالسيف وقال : الحكم لله لا لك يا على ولا لأصحابك . ويقول أبو الفرج فضربه ابن ملجم فأثبت الضربة فى وسط رأسه .

وفى الاستيعاب اختلفوا : هل ضربه فى الصلاة أو قبل الدخول فيها ، وهرب القوم نحو أبواب المسجد ، وتبادر الناس لأخذهم . قال أبو الفرج فأما شبيب فأخذه رجل فصرعه ، وقيل إن الذى قتله ابن عم له ، وأما ابن ملجم فلحقه رجل من همدان وقبض عليه ، يأخذ السيف من يده وجاء به أمير المؤمنين .

واحتمل الإمام فأدخل داره ، وجلست أم كلثوم عند رجله ، ففتح عينيّه ، فنظر إلى الحسن والحسين فقال : الرفيق الأعلى خير مستقراً أحسن مقيلاً . ثم عرق ، ثم أنعمى عليه ، ثم أفاق فقال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنى بالروح إليه عشاء ثلاث مرات .

يقول ابن الأثير : — وأدخل ابن ملجم على أمير المؤمنين وهو كتوف فقال : أى عدو الله ! ألم أحسن إليك ؟ قال : بلى . فما حملك على هذا ؟ قال : شحذته أربعين صباحاً وسألت الله أن يقتل به شر تلقه . قال على : لا أراك إلا مقتولاً به ، ولا أراك إلا من شر خلق الله ، قال النفس بالنفس . إن هلكت فاقتلوه كما قتلنى ، وإن بقيت

رأيت فيه رأي ، يا بني عبد المطلب لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين ،
وتقولون قتل أمير المؤمنين ألا لا يقتلن إلا قاتلي .

ثم وجه كلامه إلى نجله الإمام الحسن قائلا « انظر يا حسن إذا
أنا مت من ضربتي هذه فاضربه ضربة بضربة ، ولا تمثلن بالرجل ،
فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إياكم والمُثْلَةَ ولو
بالكلب العقور » .

وشاءت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يولد الإمام في الكعبة وأن يموت
شهيداً في بيت من بيوت الله . وكان ذلك في ليلة الجمعة ١٧ من رمضان
سنة ٤٠ هـ .

وفي قتل الإمام يقول ابن أبي مياس المروى^(١)

ولم أر مهراً ساقه ذو سباحة كمهر قطام من فصيح وأعجم
ثلاثة آلاف وعبد وقينة وضرب على بالحسام المسمم
فلا مهر أغلى من علي وإن غلا ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم

وطلب الإمام الحسن إحضار ابن ملجم ، فلما مثل بين يديه
قال له ابن ملجم : ما الذي أمرك به أبوك ؟

— أمرني ألا أقتل غير قاتله ، وأن أشيع بطنك ، وأنعم وطأك ،
فإن عاش اقتص أو عفا ، وإن مات ألحقك به .

(١) نسب البعض هذا الشعر للفرزدق .

فقال الأثيم « إن كان أبوك ليقول الحق ويقضى به في حالة الغضب والرضا » .

ثم ضربه الإمام الحسن ضربة بالسيف وقتله ولم يمثل به .
وقد اختلف المؤرخون في مسألة التمثيل به ، فذهب فريق من المؤرخين إلى أنه من الموضوعات الهامة ، وذلك لنهى أمير المؤمنين عنه مكرراً قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المثلة حرام ولو بالكلب العقور » . فكيف يسوغ لريحانة الرسول وسبطه أن يعرض عن وصية أبيه .
كما اختلف القائلون في الشخص الذى مثل بابن ملجم ، فالمحب الطبرى ذكر أن الذى مثل به الإمام الحسين ومحمد بن الحنفية ، وقد نهاهما الحسن عن ذلك فلم يذعنا له . وذكر أبو الفداء أن الذى قام بذلك عبد الله بن جعفر ، وذكر ابن أبي الحديد أن الحسن هو الذى نام به . وذكر الأستاذ العميد الدكتور طه حسين : « إن الشيء المحقق هو أن ولادة الدم لم ينفذوا وصية على في أمر قتله ، فهو قد أمرهم أن يلحقوه به ولا يعتدوا ، ولكنهم مثلوا به أشنع تمثيل فلما مات حرقوه النار » .

والذى أميل إليه أن التمثيل بابن ملجم لم يكن من أسباط الرسول .
بن الإمام على بن أبى طالب قال للحسن يوصيه : « يا بنى ارفق أسيرك وارحمه وأشفق عليه » . فقال له الحسن « يا أبتاه ، قتلك هذا للعين ، وفجعنا بك ، وأنت تأمرنا بالرفق به » .

فأجابه أمير المؤمنين : « يا بني نحن أهل بيت الرحمة والمغفرة ، أطمعنا مما تأكل واسقه مما تشرب ، فإن أنا مت فاقصص منه بأن تقتله ، ولا تمثل بالرجل ، فإنى سمعت جديك رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور » ، وإن أنا عشت فأنا أعلم ما أفعل به ، وأنا أولى بالعضو ، فنحن أهل بيت لا نزداد على المذنب إلينا إلا عفواً وكرماً .

ونعود إلى عمرو بن العاص ومعاوية لئرى مدى تنفيذ المؤامرة فيهما . فأما عمرو بن العاص فقد اشتكى بطنه تلك الليلة فلم يخرج من بيته ، وأمر خارجة بن حذافة صاحب شرطته أن يصلى بالناس ، فضربه عمرو بن بكير وهو يحسبه عمراً فقتله ، فقال عمرو : « أردتني وأراد الله خارجة » . وأمر بقتله ، وأما معاوية فضربه البرك بن عبد الله وقد خرج للصلاة فوقعت الضربة على إتيته ، وقيل إن الطعنة مسمومة لا يشفيها إلا الكى بالنار أو شراب يمنع النسل ، فجنح معاوية من النار ورضى بانقطاع النسل وهو يقول : « فى يزيد وعبد الله ما تقر به عينى » .

وأخيراً فهى المصادفة أن يتفق ثلاثة على قتل ثلاثة ، فيذهب الإمام وحده ضحية هذه المؤامرة ويفلت زميلاه منها : معاوية وعمرو بن العاص . والرواة يختلفون بعد ذلك فى قبر الإمام — يقولون إنه دفن بالكوفة وعُنى قبره حتى لا يبشه الخوارج ، وقوم يقولون إن الحسين نقله بعد ذلك إلى المدينة فدفنه إلى جانب فاطمة زوجها ، والغلاة من خصوم

شيعة يزعمون أنه نقل إلى الحجاز في تابوت وضع على بعير ولكن ناقليه ضلوا بعيرهم ذاك ، فأخذته جماعة من الأعراب ظنوا أن عليه مالا ، ذلك التابوت . فلما رأوا أن فيه جثة قتيل دفنوه في مكان مجهول ن الصحراء ، والكلام كما يقول الدكتور طه حسين في هذه الروايات مختلفة لا ينقضى ، وليس فيه طائل أو غناء .

وقد انتهى النبأ بموت على إلى أهل المدينة ، وبلغ السيدة عائشة سى الله عنها فتمثلت قول الشاعر :

وألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عيناً بالإياب المسافر

كأنها أرادت أن تقول : إن علياً قد أراح بموته واستراح ، وليس ن شك في أنه استراح بموته من شقاء كثير ، ولكن الشك كل الشك ، أنه أراح ، بل اليقين كل اليقين هو أن موت على رحمه الله لم يُرحَ تداً ، وإنما أورث المسلمين غناء وخلافاً لم ينقضيا بعد ، وما أرى هما سينقضيان قبل وقت يعلم الله وحده أيقصر أم يطول^(١) .

مية أمير المؤمنين عليه السلام :

ذكرها أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى في تاريخه وأبو الفرج 'صهبانى في مقاتل الطالبين : « بسم الله الرحمن الرحيم » هذا ما أوصى

(١) الفتنة الكبرى للعبد الدكتور طه حسين .

به أمير المؤمنين على بن أبي طالب ، أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، ثم إن صلاتي ونسكي ومحباي وجماعتي لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ، أوصيكم بتقوى الله وألا تبغيا الدنيا وإن بغتكما ، ولا تأسفا على شيء منها زوى عنكما ، وقولا بالحق واعملا للأجر (الآخرة) ، وكونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً ، أوصيكم بجميع ولدى وأهل بيتي ومن بلغهم كتابي هذا من المؤمنين بتقوى الله ونظم أمركم وصلاح ذات بينكم ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام ، وإن البغضة حائلة الدين ولا قوة إلا بالله ، انظروا ذوى أرحامكم فصلوهم يهون الله عليكم الحساب ، والله الله في الأيتام ، لا تغيروا أفواههم ، ولا يضيعوا بحضرتكم ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من عال يتيماً حتى يستغنى أوجب الله له الجنة ، كما أوجب لآكل مال اليتيم النار ، والله الله في القرآن فلا يسبقكم إلى العمل به غيركم ، والله الله في جيرانكم فلأنهم وصية نبيكم ما زال يوصينا بهم حتى ظننا أنه سيورثهم ، والله الله في بيت ربكم فلا يخلون منكم ما بقيتم ، فإنه إن ترك لم تناظروا ، وإن أدنى ما يرجع به من أمه أن يغفر له ما سلف من ذنبه ، والله الله في الصلاة فلأنها خير العمل ولأنها عمود دينكم ، والله الله في الزكاة

لأنها تطفئ غضب ربكم ، والله الله في صيام شهر رمضان فإن صيامه جنة من النار ، والله الله في الجهاد في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، إنما يجاهد في سبيل الله رجالان : إمام هدى ، ومطيع له مقتد بهداه ، والله الله في ذرية نبيكم فلا يظلمن بين أظهركم ، والله الله في أصحاب بيكم الذين لم يحدثوا حدثاً ، ولم يؤثروا محدثاً ، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أوصى بهم ، ولعن المحدث منهم ومن غيرهم والمؤوى للمحدث ، والله الله في الفقراء والمساكين فأشركوهم في معاشكم ، والله الله في النساء ما ملكت أيمانكم ، فإن آخر ما تكلم به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : أوصيكم بالضعيفين : نسائكم وما ملكت أيمانكم ، ثم قال صلاة الصلاة ولا تخافن في الله لومة لائم يكفكم من أرادكم وبغى عليكم ، لولا للناس حسناً كما أمركم الله عز وجل ، ولا تتركوا الأمر بالمعروف ونهى عن المنكر فيؤلى الله الأمر شراركم ثم تدعون فلا يستجاب لكم ، ليكنم بالتواصل والتبازل والتبار ، وإياكم والتقاطع والتدابير والتفرق ، ماونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إن الله ليد العقاب ، حفظكم الله أهل البيت وحفظ فيكم نبيكم ، وأستودعكم ، خير مستودع وأقرأ عليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

ويقول ابن الأثير إن الإمام دعا الحسن والحسين عليهم جميعاً السلام ل لم نفس الوصية ، ثم نظر إلى محمد بن الحنفية فقال هل حفظت أوصيت به أخويك قال نعم قال : فإنى أوصيك بمثله ،

وأوصيك بتوقير أخويك العظيم حقهما عليك ، ولا تقطع دونهما
أمراً ، ثم قال أوصيكما به فإنه شقيقكما وابن أبيكما ، وقد
علمتما أن أباكما كان يحبه .

وقال للحسن : أوصيك أى بنى بتقوى الله ، وإقام الصلاة ،
وإيتاء الزكاة ، وغفر الذنب ، وكظم الغيظ ، وصلة الرحم ، والحلم
عن الجاهل ، والتفقه فى الدين ، والتعاهد للقرآن ، وحسن الجوار ،
والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، واجتناب الفواحش .

ثم كرر قوله فى شأن ضاربه ، وقال للحسن : « أبصروا ضاربى ،
أطعموه من طعامى ، واسقوه من شرابى » .

ثم قال : « إذا أنا مت فلا تغال فى كفى ، وصل على » وكبر
على سبعاً ، وفى رواية خمساً ، وغيب قبرى » .

قال ابن الأثير : ثم لم ينطق إلا بلا إله إلا الله حتى توفى عليه
السلام .

روائع من كلام أمير المؤمنين

١ - في حديث الإمام علي بن أبي طالب عن الدنيا يقول : إنها تغوى وتسلم . وتذل وتضر ، (والآخرة تسر) ، وهي أمد (والآخرة أبد) . ومحل الغيّر ودار المحن . وغنيمة الحمقى ، وضحكة المغتر . وأمنية الأرجاس . ومطلقة الأكياس . إذ هي ظل زائل . ومنقطعة . وعواربها مرتجعة وفانية . كيوم مضى وشهر انقضى ، وهي العاجلة : الفسّاح بها حُمقى . والاغترار بها خُرق . لأنها دار الغرباء . وسوق الخسران . لمواصل لها مقطوع . والكمال فيها مفقود : هي مصرع العقول . وعالم لنقائص والآفات ، الوله بها أعظم فتنة . وهي كما تجبر تكسر . وكما قبل تدبر . وهي بالآمل الكبير بها قُل ، والترغيب فيها يوجب المقت . لزهد فيها هو الراحة العظمى ! هي حلم ، والاغترار بها ندم ، وسُمّ كله من لا يعرفه . ومعدن الشر ومزرعته . ودار الأشقياء ومنيتهم وموطنهم : بأن الأمر قريب . والرحيل وشيك يقول : الموت مريح ، وهو مفارقة ر الفناء . وارتحال إلى دار البقاء . والأعمال الدنيا تجارة الآخرة . لحازم من ترك الدنيا للآخرة ، والرابح من باع العاجلة بالآخرة والفقر فني بعد العرض على الله . والجنة دار الأمان ودار الأتقياء ومعبرة الآخرة : ولذلك يذكر الإنسان بالموت ويقصر الأمل . ويقول : الحى لا يكتفى ،

والأمل حجاب الأجل ، وهو خادع ضار لا غاية له وبصرع ، الأمانى
 أشتات تخذعك . وعند الحقائق تدعك . وتدنى الآجال وتنقطع بها ! العمر
 أنفاس معدودة والساعات تنهب الأعمار . والذكر الجميل أحد العمرين !
 وروى عن الصادق عن آبائه - عنه - قال : إني كنت في (فلك) في
 بعض حيطانها حين صارت لفاطمة رضى الله عنها إذا أنا بامرأة قد هجمت
 على يدي مسحاة وأنا أعمل بها . فلما نظرت إليها طار قلبي مما
 تداخلني من جمالها فتشبهتها ببشينة بنت عامر بن الحمحى . وكانت من
 أجمل نساء قريش فقالت لى :

« يا بن أبى طالب فهل لك أن تتزوجني فأغنيك عن هذه المسحاة
 وأدلك على خزائن الأرض ويكون لك الملك » ؟
 فقلت لها من أنت حتى أتزوجك من أهلك ؟ .
 فقالت أنا الدنيا .

فقلت لها ارجعي واطلبي زوجاً غيري .
 وأنشأت :

فغرتى سوى إننى غير راغب لما فيك من عزّ وملك ونائل
 وقد قنعت نفسي بما قد رزقته فشأنك يا دنيا وأهل الغوائل
 فإنى أخاف الله يوم لقائه وأخشى عقاباً دائماً غير زائل !
 وفى التفسير المنسوب للإمام الزكى الحسن العسكرى قال : دخل

جابر بن عبد الله الأنصاري على أمير المؤمنين على كرم الله وجهه ،
فقال له :

يا جابر قوام الدنيا بأربعة : عالم يستعمل علمه . وجاهل لا يستنكف
أن يتعلم ، وغنى جواد بمعروفه ، وفقير لا يبيع دينه بدنيا غيره !
يا جابر من كثرت نعم الله عليه كثرت حوائج الناس إليه . فإن فعل
ما يجب لله عليه عرضها للدوام والبقاء . وإن قصر فيما يجب لله عليه عرضها
للزوال والفناء .
وأنشأ يقول :

ما أحسن الدنيا وإقبالها إذا أطاع الله من نالها !
من لم يواس الناس في فضله عرض للإدبار إقبالها
فاحذر زوال الفضل يا جابر وأعط من دنياك من سالها
ثم قال : إذا كتم العالم العلم لأهله . وزها الجاهل في تعلم ما لا بد
منه . وبخل الغنى بمعروفه . وباع الفقير آخرته بدنياء . حل البلاء وعظم
لعقاب :

وكم رأينا من ذوى ثروة لم يقبلوا بالشكر إقبالها
تاهوا على الدنيا بأموالهم وقيدوا بالبخل أقفالها
لو شكروا النعمة جازاهم مقالة الشكر التي قالها
لئن شكرتم لأزيدنكم لكنما كفرتم غالها

وقال الإمام رضى الله عنه : يا بن آدم أيامك ثلاثة . يوم أنت فيه
فاعمل فيه لنفسك واجهد لها ، وأمس ماض بخيره وشره لا تدركه إلى يوم
القيامة ، وغد مقبل بسعده ونحسه لا تدري أتبلغه أم لا . ثم أنشد :

مضى أمسك الماضى شهيداً معدلاً وأصبحت في يوم عليك شهيد
فإن كنت بالأمس اقترفت إساءة فنن يا إحسان وأنت حميد
ولا ترخ فعل الخير يوماً إلى غد لعلى غداً يأتى وأنت فقيد

ويقول رضى الله عنه :

فإن تكن الدنيا تعد نفيسة فإن ثواب الله أعلى وأنبل
وإن تكن الأرزاق حظاً وقسمة فقِّلْ لَهْ حِرْصَ المرءِ في الكسب أجمل
وإن تكن الأموال للترك جمعها فما بال متروك به الحر يبخل
وإن تكن الأبدان للموت أنشئت فقتل امرئ لله بالسيف أفضل

وذكر الثعلبي في تفسير قوله تعالى : (ويطعمون الطعام على حبه
مستكيناً ويؤتيهم أسيراً) ، أنها نزلت في « على » - قال : جاء مسكين ،
فقال : السلام عليكم أهل بيت محمد . مسكين من مساكين المؤمنين .
أطعموني يطعمكم الله ، فسمعه على فقال :

فاطم ذات المجد واليقين يا بنت خير الناس أجمعين
أما ترين البائس المسكين قد قام بالباب له حنين
يشكو إلى الله ويستكين يشكو إلينا جائع حزين

كل امرئ بكسبه رهين وفاعل الخيرات يستبين
 مواعده جنة عليّين حرمها الله على الضّنين
 وللبخيل موقف مهين تهوى به النار إلى سجين
 شرا به الحميم والغسلين

ويقول الإمام على حاثّاً على رعاية النعم :

إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم

ويقول الأستاذ العلامة العقاد معلقاً على قول الإمام : « يا دنيا غري
 غري . . . غري غري » : « وإنها لأكثر من كلمة وأكثر من دعاء —
 إنها لسان قدر وعنوان حياة ، فقد خلق الإمام وفي كل خليفة من خللائقه
 لكبار اجترأ على الدنيا على ضرب من ضروب الاجترأ ، خلق شجاعاً
 الغنى في الشجاعة ، وزاهداً بين الزهد ، ودارساً محبباً للحقيقة الدينية
 تحراها حيث اهتدى إليها ، والشجاع جرىء على الدنيا لأنه لا يبالي الحياة ،
 الزاهد جرىء على الدنيا لأنه لا يبالي النعم ، وطالب الحقيقة جرىء على
 دنيا لأنها طريق عنده إلى غاية من ورائها ، فأى مصير لهذا الرجل غير
 شهادة في زمن لم يعرف بطارئ من الطوارئ كما عرف بالإقبال على الدنيا ؟
 مام الناس قبله عن الدنيا ، ثم أقبلوا على الدنيا العريضة بخدافيرها ،
 دأت حماسة الدعوة النبوية وثابت الطبايع إلى مأوفها الذي أشربت
 له ، وتدفقت الأموال من الأمصار المفتوحة على نحو لم تعهده الخزيرة

العربية قط في تاريخها القديم ، وأقبل الناس على الدنيا ، بل هرولوا إلى الدنيا ، وإذا بخليفة جرى عليها زاهد فيها يقف لهم في طريقها ويصدهم عنها ، يصد ماذا ؟ يصد الطوفان وهو مندفع من وراء السدود ، يصد الطبيعة الإنسانية وهي منطلقة من عقال التقوى ، يصد ما لا سبيل إلى صده بحال ، فهو مستشهد لا محالة ولو مات على سريره ، فإن الإنسان قد يعيش عيشة الشهداء ولا يلزم بعد ذلك أن يموت ميتة الشهداء ، وقد لزمته آية الشهادة في كل قسمة كتبت له وكل حركة سعى إليها أوسعت إليه ، ومن آيات الشهادة ألا تغره الدنيا وقد غرت حوله كل إنسان .

وعن الدين ؛ يفهم من حديثه عنه : أن الدين ذخرك ، والعلم دليل ، ولا يصلحه إلا العقل ، وهو يعصم ويصد عن المحارم ويجل . ويصفه بأنه حبور وأفضل مطلوب وأقوى عماد ، وأنه شجرة أصلها التسليم والرضا ، وثمرتها الزهد . الصدق لباسه واليقين رأسه ، والإخلاص غايته ، والجهاد عماده ، والجدل فيه يفسد اليقين ، ويقرر أن الوفاء عذوان وفور الدين وقوة الأمانة ، وأن الشك يفسد الدين والمرتأب لا دين له ، والمصيبة بالدين أعظم المصائب ، وإخوان الدين أبقي مودة ، والدين أشرف النسب ، والمغبون من فسد دينه ، والحياة دليل على قلة الورع وعدم الديانة . ويقول رضى الله عنه :

إن المكارم أخلاق مطهرة فالدين أولها والعقل ثانيها
والعلم ثالثها والحلم رابعها والحدود خامسها والفضل سادسها

والبر سابعها والصبر ثامنها والشكر تاسعها واللين باقيةها
والنفس تعلم أنى لا أصادقها ولست أرشد إلا حين أعصيتها

وعن الإيمان يقول : إن الإيمان أمان ونجاة ، وأعلى غاية ، وشفيع
منج ، وشهاب لا يخبو ، وأمارات العز ، وأفضل الأمانين ، وأصح
الولائج ، وبرىء من الحسد والنفاق ، منزه عن الزيف والشقاق ، وهو
صبر فى البلاء وشكر فى الرخاء .

ويصفه بأنه إخلاص العمل ، وبأن الصبر رأسه وثمرته ، والصدق
حليته وأقوى دعائمه ، والفقر زينته ، واليقين عنوانه ، ولذا يقول :

« المرء بإيمانه ، والمؤمن بعمله ، آلف مألوف متعطف ، كيس
عاقِل : (إذ الكافر فاجر جاهل) ، الوجَل شعاره ، والرفق أخوه ،
والتقوى حصنه ، والحلم نظام أمره ، وهو منيب مستغفر تواب (إذ المرتاب
يستكبر ، والمنافق متكبر مصر مرتاب) ، لين هين ، سهل مؤتمن (إذ الكافر
خب ، شديد الخداع ، جاف خائن) ، ينصف من لا ينصفه ،
مغمور بفكرته ضنين بخلته ، لين العريكة ، سهل الخليفة ، (إذ الكافر
شرس الخليفة سيئ الطريقة) ، قليل الزلل كثير العمل (إذ المنافق قليل
العمل كثير الخطل) ، سيرته القصد ، وسنته الرشد ، يعاف اللهو ،
ويألف الجد ، صدوق اللسان ، بذول الإحسان ، ينتظر إحدى الحسينين
غريزته النصيح ، وسجيته الكظم ، وهو لا يظلم ولا يتأثم ، فالمؤمنون أعظم

أحلامًا ، خيراتهم مأمولة ، وشرورهم معدومة ، الوجل والخوف شعارهم ،
والشوق خاصة العارفين منهم ، والتجمل من أخلاقهم .

فالأمانة إيمان ، والنجاة مع الإيمان ، والفضل مع الإحسان ، (إذ
المكر السيئ والغل مجانبان للإيمان) .

ومن حديثه عن العلم : إن العلم عز وحرز ، وأعظم وأغلى كثر لا يفنى ،
وجمال لا يخفى ، ونسب لا يُخفى ، وحياة جلالة تنجى وتنجد ، وأجل
بضاعة ، ونعم الدليل ، وأشرف هداية ، ومكسب النبل وداعى الفهم ،
وزينة الأغنياء ، وغنى الفقراء ، ومصباح العقل ، وينبوع الفضل ،
وقائد الحلم وأصله ، ونزعة المتقين ، وخير دليل لا ينتهى ، العامل به
كالسائر على الطريق الواضح ، والعلم بالله عز وجل شرف مرجو ، وهو
رشد لمن عمل به ، ويهذى إلى الحق . وينسب العقل للعلم بقوله : العلم
عنوان العقل والجهل فساد كل أمر .

ويقول رضى الله عنه :

وفى الجهل قبل الموت موت لأهله وأجسادهم قبل القبور قبور
وإن امرأ لم يحى بالعلم ميت وليس له حين النشور نشور

ما الفضل إلا لأهل العلم لأنهم على الهدى لمن استهدى أدلاء

فقم بعلم ولا تطلب به بدلا فالناس موقى وأهل العلم أحياء

* * *

العلم زين فكن للعلم مكتسباً وكن له طالباً ما عشت مقتبساً
اركن إليه وثق بالله واغن به وكن حليماً رزين العقل محترساً

ويقول الإمام أيضاً: العقل يوجب الحذر، والجهل يوجب الغرر،
العقل حيث كان لآل مألوف، وينبوع الخير، وصلاح كل أمر،
وشجرة ثمرها الحياء والسخاء، الجهل يفسد المعاد، والهوى ضد العقل
يعدوه، والغفلة ضد الحزم، اللهو والحقد من ثمار الجهل، واليقظة
ستبصار ونور، والغفلة غرور وأضرّ الأعداء. العاقل يطلب الكمال،
الجاهل يطلب المال: الظفر بالحزم، والحزم بالتجارب وإباجالة الرأي،
التجارب لا تنقضي والعاقل منها في زيادة. العاقل من اتعظ بسواه وأمات
سهوته، والقوى من قمع لذته، والجاهل من انخدع بهواه. ولذا يقول:
علم ينجيك والجهل يرديك. ويعمل ذلك بأن العقل مركبه والتواضع
رته والفهم آيته.

وفي هذا يقول رضى الله عنه :

فضل قسم الله للمرء عقله
أأكل الرحمن للمرء عقله
ليس من الخيرات شيء يقاربه
فقد كملت أخلاقه ومآربه
على العقل يجرى علمه وتجاربه
بش الفتى في الناس بالعقل إنه

فمن كان غلاباً بعقل ونجدة فذو الجذ في أمر المعيشة غالبه
يزين الفتى في الناس صحة عقله وإن كان محظوراً عليه مكاسبه
يشين الفتى في الناس قلة عقله وإن كرمته أعراقه ومناصبه

ويرى الإمام رضى الله عنه أن العلم لقاح المعرفة وإحدى الحياتين ،
العالم حى وإن كان ميتاً ، والجاهل ميت وإن كان حياً ، العلم حياة
وشفاء ، والجهل موت وذاء ، الحلم حلية العلم وعلة السلم . العالم ينظر
بقلبه وخاطره ، والجاهل ينظر بعينه وناظره .

وعن العمل يقول الإمام رضى الله عنه : إنه عنوان الطوية وشعار المؤمن ،
وأكمل خلف ، ويربط الإمام العلم بالعمل ويقول : العلم بالعمل .
ويوضح فهمه للصلة بينهما بقوله : العلم بغير عمل وبال ، والعمل بغير
علم ضلال .

ويقول أيضاً إن العاقل من يعتمد على عمله والجاهل من يعتمد على
أمله ، والإخلاص أشرف نهاية وهو خير العمل ، والعمل بطاعة الله أربح ،
والرجاء لرحمة الله أنجح ، والعمل كله هباء إلا ما أخلص فيه ، والنية
الصالحة أحد العاملين ، والتوكل أفضل عمل ، والأعمال ثمار النيات ،
والعمل الجليل ينبئ عن علو الهمة ، والمواساة أفضل الأعمال ، والمداواة
أحمد الحلال ، والإيثار فضيلة ، والبر عمل مصلح ، والإحسان غنم ،
والعفو من الإحسان ، والحسن والعاقل من صدقت أقواله أفعاله ، والكيسر

من عرف نفسه وأخلص أعماله ، والصدقة أفضل القرب والحسنات ،
والكریم من بذل إحسانه ، واللّثیم من أكثر امتنانه ، والعاقل من بذل
نداه ، والحازم من كف أذاه ، والشكر ترجمان النية ولسان الطوية .

ويقول رضى الله عنه حائثاً على العمل :

وما طلبُ المعيشة بالتمنى ولكن ألقِ دلوک فی الدلاء
تجشک بمائها يوماً ويوماً تجشک بحمأة وقليل ماء

وعن العبادة يفهم من حديثه عنها أنها فوز ، أولها انتظار الفرج
بالصبر ، وأفضلها اليقين ، والإخلاص روحها وثمرتها وغايتها ، والفكر
عبادة ، والانفراد راحة المتعبدين ، والإيثار أفضل عبادة وأجل سيادة ،
والغريب من ليس له حبيب ، والمتعبد ليس غريباً ، والإشراك كفر ،
التوحيد حياة النفس . وهو ألا تتوهم ، والتسليم ألا تتهم ، والمتعبد سخي ،
البخل بالموجود سوء ظن بالمعبود ، والإحسان محبة ، والدنيا بالإنفاق ،
الآخرة بالاستحقاق ، والذكر جلاء البصائر ونور السرائر ، ومجالسة
لمحبوب ، وهداية العقول ، وتبصرة النفوس ، ولذة المحبين ، وهو نور
شرح الصدر ، وأهل القرآن والذكر هم أهل الله وخاصته .

ويناجي ، رضى الله عنه ، الله سبحانه وتعالى فيقول :

يك لبيك أنت مولاه فارحم عبيداً إليك ملجاه
ذا المعالى إليك معتمدى طوبى لمن كنت أنت مولاه

يشكو إلى ذى الجلال بلواه
أكثر من حبه لمولاه
أجابه الله ثم لبّاه
وكل ما قلت قد سمعناه
فذنّبك الآن قد غفرناه
طوباه طوباه ثم طوباه
ولا تخف إننى أنسا الله

طوبى لمن كان نادماً أرقماً
وما به علة ولا سقَمٌ
إذا خلا فى الظلام مبتهلاً
سألت عبدى وأنت فى كنفى
صوتك تشاقه ملائكتى
فى جنة الخلد ما تمناه
سلنى بلا خشية ولا رهب

وبستمر رضى الله عنه مناجياً فيقول

تباركت تعطى من تشاء وتمنع
إليك لدى الإعسار واليسر أقرع
فعفوك عن ذنبى أجل وأوسع
فها أنا فى أرض الندامة أرتع
وأنت مناجاتى الحفية تسمع
فؤادى فى سيب جودك مطمع
فمن ذا الذى أرجو ومن ذا أشفع
أسيرٌ ذليلٌ حائفٌ لك أخضع
إذا كان لى فى القبر مثنوى ومفجع
فحبلى رجائى منك لا يتقطع
بنون ولا مال هنالك ينفع

لك الحمد يا ذا الجود والمجد والعلأ
إلهى وخلاقى وحرزى وموئلى
إلهى لئن جلت وجمت خطيئى
إلهى لئن أعطيت نفسى سؤلها
إلهى ترى حالى وفكرى وفاقى
إلهى فلا تقطع رجائى ولا ترغ
إلهى لئن خيبتنى أو طردتني
إلهى أجزنى من عذابك إننى
إلهى فأنسنى بتلقين حجى
إلهى فإن عذبتنى ألف حجة
إلهى أذقنى طعم عفوك يوم لا

وإن كنت ترعاني فلست أضيع
 فن لمسىء بالهوى يتمتع
 فيها أنا إثر العفو أقفو وأتبع
 وصفحك عن ذنبي أجل وأرفع
 فلاني مقرر خائف متضرع
 فلست سوى أبواب دارك أقرع
 فما حيلتي يا رب أم كيف أصنع
 لرحمتك العظمى وفي الخلد يطمع
 وقبح خطيئاتي على يشنع
 وإلا فبالذنب المدبر أصرع
 وحرمة أبرار هم لك خشع
 تقياً نقياً قانتاً لك أخشع
 شفاعته الكبرى فذاك المشفع
 وناداك أخيار بيبابك ركع

إلهي إذا لم ترعني كنت ضائعاً
 إلهي إذا لم تعف عن غير محسن
 إلهي لئن فرطت في طلب التقي
 إلهي ذنوبي بذت الطود واعتلت
 إلهي أقلني عثرتي وامح حوبتي
 إلهي أنلني منك روحاً ورحمة
 إلهي لئن أقصيتني أو طردتني
 وكلهم يرجو نوالك راجياً
 إلهي يمنني رجائي سلامة
 إلهي فإن تغفو فعفوك منقذني
 إلهي بحق الهاشمي وآله
 إلهي فانشرفني على دين أحمد
 لا تحرمني يا إلهي وسيدني
 يصل عليه ما دعاك موحد

ويفهم من حديثه عن اليقين أن اليقين جلابب الأكياس ، وأفضل
 ور ، وزهادة التوكل من قوته ، وهو يثمر الزهد ، والمغبوط من قوى يقينه .
 الشاك لا يقين له ، إذ الشك يطفىء نور القلب ، واليقين يرفع الشك .
 الريبة توجب الظنة ، والارتباب يوجب الشرك . والثقة بالله أقوى عمل .
 لتوكل كفاية لمن اعتمد ، وحصن الحكمة ، وأفضل عمل . والطاعة

تطفئ غضب الرب ، والعمل رفيق الموقنين ، والصدق أشرف خلائقه ،
(وللوصول إلى اليقين يجب حق الحق) .

ويفهم من حديثه عن الحق أن الحق أحق أن يتبع ، وهو سيف
قاطع ، وأفضل وأوضح سبيل وأقوى ظهير ، (إذ الباطل أضعف نصير)
والخضوع لغير الحق ذنابة ، والتعاون على إقامة الحق أمانة وديانة ،
المغلوب به غالب ، والمحارب له محروب ! والعقل رسول الحق ، والصدق
لسانه ، وهو سيف على أهل الباطل ، القول به خير من العي والصمت ،
والعزلة حسن التقوى ، والعز إدراك الانتصار بالحق ، والحق يزيل
الباطل .

وله رضى الله عنه في وصف العزيز بالحق والمحبة له :

ومحترس من نفسه خوف ذلة	تكون عليه حجة هي ماها
فجانب أسباب السفاهة والحناء	عفافاً وتنزيهاً فأصبح عالياً
وصان عن الفحشاء نفساً كريماً	أبى همه إلا العلا والمعالي
نراه إذا ما طاش ذو الجهل والصبأ	حليماً وقوراً صائن النفس هادياً
له حلم كهل في صرامة حازم	وفي العين إن أبصرت أبصرت ساهياً
يروق صفاء الماء منه بوجهه	فأصبح منه الماء في الوجه صافياً
ألم تره يرعى ذماماً لجاره	ويحفظ منه العهد إذ ظل راعياً
صبوراً على صرف الليالى دريئة	كنوماً لأسرار الضمير مدارياً
له همه تعلو على كل همه	كما قد علا البدر النجوم الدراري

ثم لنستمع إليه رضى الله عنه وهو ينصح ابنه الحسين ، رضى الله عنه :
 أبني إن الذكر فيه مواعظ فن الذى بعظاته يتأدب
 فاقراً كتاب الله جهداً واتله فيمن يقوم هناك أو من ينصب
 بتفكر وتخشع وتقرب إن المقرب عنده المتقرب
 واعبد إلهك ذا المعارك مخلصاً وانصت إلى الأمثال فيما تضرب
 وإذا مررت بآية مخشية تصف العذاب فقف ودمعك يسكب
 يا من يعذب من يشاء بعدله لا تجعلني في الذين تعذب
 إني أبوء بعثرتي وخطيئتي هرباً وهل إلا إليك المهرب
 وإذا مررت بآية في ذكرها وصف الوسيلة والنعيم المعجب
 فاسأل إلهك بالإجابة مخلصاً دار الخلود سؤال من يتقرب
 لتنال عيشاً لا انقطاع لوقته وتنال ملك كرامة لا تسلب
 بادرهواك إذا هممت بصالح خوف الغوالب إذ تجيء وتغلب
 وإذا هممت بسيئ فاغمض له وتجنب الأمر الذى يتجنب
 ومن حديثه عن العدل يفهم أن العدل أقوى أساس ، وأشرف سجية ،
 وهو ملاك ، والجور هلاك . ويصفه بأنه إنصاف وراحة ، وعنوان النبل ،
 أفضل الشيم ، وأنه فوز ومكانة وحياة (إذ الجور ممات) ، وأنه حياة
 لأحكام ، وقوام الرعية ، إذ به تصلح البرية ، وهو فضيلة السلطان .
 يصف الظلم بأنه عقاب يسلب ويزيل ويطرده النعم .

ولنتنظر إلى كتابه الذى أرسله إلى مصقلة بن هيرة الشيباني وهو عامله

على « أردشير خرة » ، ومن هذا الكتاب نرى كيف كان الإمام يعدل في الرعية ، ويقسم بالسوية ، قال : « بلغنى عنك أمر إن كنت فعلته فقد أسخطت إلهك وأغضبت إمامك ، أنك تقسم في المسلمين الذى حازته رماحهم وخيولهم ، وأريقت عليه دماؤهم ، فيمن اعتملك من أعراب قومك ، فوالذى فلق الحبة وبرأ النسمة لئن كان ذلك حقاً لتجدن بك على هواناً ، ولتخفن عندى ميزاناً ، فلا تستهن بحق ربك ، ولا تصلح دنياك بمحق دينك ، فتكون من الأخسرين أعمالاً .

ألا وإن حق من قبلك وقبلنا من المسلمين فى قسمه هذا سواء يردون عندى عليه ويصدرون عنه .

وهذا كتاب آخر يوجهه إلى بعض عماله تجد فيه ما يجب أن يتصف به العامل المسئول من شدة ولين حسباً تقتضيه الظروف ، وأن يسير بالعدل فى الرعية بدون تحيز : « أما بعد فإنك ممن استظهر به على إقامة الدين ، وأقمع به نخوة الأئيم ، وأشد به لهأة الثغر المخوف ، فاستعن بالله على ما أهمك ، واخلط الشدة بضغث من اللين ، وارفق ما كان الرفق أرفق ، واعتزم بالشدة حين لا يغنى عنك إلا الشدة ، أخفض للرعية جناحك ، وأن لهم جانبك ، وآس بينهم فى اللحظة والنظرة والإشارة والتحية حتى لا يطمع العظماء فى حيفك ولا ييأس الضعفاء من عدلك ، والسلام » .

وصاياہ

من وصية له عليه السلام يوجهها لعسكره قبل لقاء العدو بصفتين قال : « لا تقاتلوهم حتى يبدءوكم ، فإنكم بحمد الله على حجة ، وترككم إياهم حتى يبدءوكم حجة أخرى لكم عليهم ، فإذا كانت الهزيمة بإذن الله فلا تقتلوا مدبراً ، ولا تصيبوا معوراً ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تهيجوا النساء بأذى ، وإن شتمن أعراضكم وسبين أمراءكم ، فإنهن ضعيفات القوى والأنفس والعقول ، إن كنا لنؤمر بالكف عنهن وإنهن شركات ، وإن كان الرجل ليتناول المرأة في الجاهلية بالنهر أو الهراوة سيئاً ، فبها وعقبه من بعده » .

وهذه وصية أخرى وصى بها جيشاً بعثه إلى العدو فقال : « فإذا نزلتم بعدو ، أو نزل بكم ، فليكن معسكركم في قبيل الأشراف . سفاح الجبال أو أثناء الأنهار كما يكون لكم ردعاً ودونكم مرداً ، نكن مقاتلتكم من وجه واحد أو اثنين ، واجعلوا لكم رقباء في صياصي لبال ومناكب المضاب ، لئلا يأتيكم العدو من مكان مخافة أو مأمن ، علموا أن مقدمة القوم عيونهم ، وعيون المقدمة طلائعهم ، وإياكم نفرق ، فإذا نزلتم فانزلوا جميعاً ، وإذا ارتحلتم فارتحلوا جميعاً ، ذا غشيتكم الليل فاجعلوا الرماح كفةً ، ولا تذوقوا الذوم إلا غراراً أو بمضه . . . » .

ومنها قوله للولاء : « إني سيرت جنوداً هي مارة بكم إن شاء الله ، وقد أوصيتهم بما يجب لله عليهم من كف الأذى وصرف الشذى ، وأنا أبرأ إليكم وإلى ذمتكم من معرة الجيش إلا من جوعة المضطر لا يجد عنها مذنباً إلى شيعة فنكلوا بمن تناول منهم شيئاً ظلماً عن ظلمهم ، وكفوا أيدي سفهائكم عن مضاربتهم والتعرض لهم . . . » .

ومن وصيته عليه السلام لمعقل بن قيس الرياح حين أنفذه إلى الشام في ثلاثة آلاف مقدمة له قال :

« اتق الله الذي لا بد لك من لقائه ، ولا منتهى لك دونه ، ولا تقاتلن إلا من قاتلك ، وسر البردين - أي الغداة والعشي - وغور بالناس ، ورفه بالسير ، ولا تسر أول الليل ، فإن الله جعله سكناً وقدره مقاماً لا ظعنًا ، فأرح فيه بدنك ، وروح ظهرك ، فإذا وقفت حين يتبطح السحر ، أو حين ينفجر الفجر ، فسير على بركة الله ، فإذا لقيت العدو فقف من أصحابك وسطاً ، ولا تدن من القوم دنو من يريد أن ينشب الحرب ، ولا تباعد منهم تباعد من يهاب البأس حتى يأتيك أمرى ، ولا يحملنكم شنائهم على قتالهم قبل دعائهم والاعتذار إليهم » .

ومن وصيته عليه السلام يوصي بها من يستعمله على الصدقات ، وتعدّ هذه الوصية المثل الأعلى في العدالة في الإسلام :

« انطلق على تقوى الله وحده لا شريك له ، ولا تروعن مسلماً

ولا تجتازنَّ عليه كارهاً ، ولا تأخذن منه أكثر من حق الله في ماله ، فإذا قدمت على الحى فانزل بمائتهم من غير أن تحالط أبياتهم ، ثم امض إليهم بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم ، ولا تخرج بالتحية لهم ، ثم تقول : عباد الله أرسلنى إليكم ولىّ الله وخليفته لآخذ منكم حق الله في أموالكم ، فهل لله في أموالكم من حق فتؤدوه إلى وليّه ، فإن قال قائل : لا ، فلا تراجع ، وإن أنعم لك منعم فانطلق معه من غير أن تخيفه يتوعده أو تعسفه أو ترهقه ، فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة ، فإن كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها إلا بإذنه ، فإن أكثرها له ، فإذا نيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ولا عنيف به ، ولا تُنفرنَ بيمة ولا تفرعنّها ، ولا تسوئنَ صاحبها فيها ، واصدع المال صدعين ، خسيره ، فإذا اختار فلا تعرض لما اختاره ، ثم اصدع الباقي صدعين ثم برّه ، فإذا اختار فلا تعرض لما اختاره ، فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه لحق الله في ماله ، فاقبض حق الله منه ، فإن استقالك فأقلبه ، ثم لطمهما ، ثم اصنع مثل الذى صنعت أولاً حتى تأخذ حق الله في ماله ، تأخذن عوداً ولا هَرَمَةً ولا مكسورة ولا مهلوسة ولا ذات عوار ، تأمنن عليها إلا من تثق بدينه رافقاً بمال المسلمين حتى يوصله إلى م ، فيقسمه بينهم ، ولا توكل بها إلا ناصحاً شفيقاً وأميناً حفيظاً مُعْنِف ولا مجحف ولا مغلب ولا متعب ، ثم احذر إلينا ما اجتمع لك نُصَيِّرَه حيث أمر الله ، فإذا أخذها أمينك فأوعز إليه ألا يحول

بين ناقة وبين فصيلها ، ولا يُمَصَّر لبنها فيضر ذلك بولدها ، ولا يجهدنها ركوباً ، ولا يعدل بين صواحباتها في ذلك وبينها ، ولا يرفه على اللائع ، وليستأن بالنقب والظالع ، وليوردها ما تمر به من الغدر ، ولا يعدل بها عن نبت الأرض إلى جواد الطرق ، ولا يروحها في الساعات ، وليمهلها عند النطاف والأعشاب حتى تأتينا بإذن الله بُدناً مُنْقِيَات غير متعبات ولا مجهودات ، لنقسمها على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله ، فإن ذلك أعظم لأجرك وأقرب لرشدك إن شاء الله .

وعهده إلى مالك الأشتر فيه من الوصايا والحكم ما لم يحوه عهد قبله أو بعده . يقول الإمام رضى الله عنه : « وارد إلى الله ورسوله ما يضعك من الخطوات ، ويشتهب عليك من الأمور ، فقد قال الله تعالى لقوم أحب إرشادهم : (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول) - فالرد إلى الله الأخذ بمحكم كتابه ، والرد إلى الرسول الأخذ بسنته الجامعة غير المفرقة .

ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيته في نفسك ممن لا تضيق به الأمور ولا تمحكه الخصوم ، ولا يتأدى في الزلة ولا يَحْصُرُ من النى إلى الحق إذا عرفه ، ولا تُشرف نفسه على طمع ، ولا يكتفى بأدنى فهم دون أقصاه ، وأوقفهم في الشبهات ، وآخذهم بالحجج ، وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصم . وأصبرهم على تكشف الأمور ، وأصرمهم عند اقتضا الحكم ممن لا يزدنيه إطراء ولا يستميله إغراء ، وأولئك قليل . ثم أكتة

تعاهد قضائه وأفسح له في البذل ما يزيل علقته وتقل معه حاجته إلى الناس . وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ليأمن بذلك اغتياص الرجال له عندك ، فانظر في ذلك نظراً بليغاً ، فإن هذا الدين قد كان أسيراً في أيدي الأشرار يُعمل فيه بالهوى وتُطلب به الدنيا .

ويقول سلام الله عليه : « ولا تنقض سنة صالحة عمل بها صدور هذه الأمة . واجتمعت بها الألفة . وصلاح عليها الرعية ، ولا تُحدثن سنةً تضر بشيء من ماضي تلك السنن فيكون الأجر لمن سنّها ، والوزر عليك بما نقضت منها . . . »

وأكثر مدارس العلماء ومناقشة الحكماء في تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك وإقامة ما استقام به الناس قبلك . . .

واعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض ، ولا غنى ببعضها عن بعض . فمنها جنود الله ، ومنها كتّاب العامة والخاصة ، ومنها قضاة لعدل . ومنها عمّال الإنصاف والرفق ، ومنها أهل الجزية والخراج من هل الذمة ومسلمة الناس ، ومنها التجار وأهل الصناعات ، ومنها الطبقة السفلى من ذوى الحاجة والمسكنة . وكلا قد سمي الله سهمه ، ووضع على حده فريضة في كتابه أو سنة نبيه صلى الله عليه وآله عهداً منه عندنا نفوظاً .

فالجنود حصون الرعية . وزين الوُلاة ، وعز الدين ، وسبل الأمن . الإمام على

وليس تقوم الرعية إلا بهم - ثم لا قوام للجنود إلا بما يخرج الله لهم من الخراج الذى يقومون به فى جهاد عدوهم ويعتمدون عليه فيما يصلحهم ويكون من وراء حاجتهم ، ثم لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتّاب لما يحكمون من المعاهد ويجمعون من المنافع ويؤمنون عليه من خواصّ الأمور وعوامّها ، ولا قوام لهم جميعاً إلا بالتجار وذوى الصناعات فيما يجتمعون عليه من مرافقهم . ويقيمونه من أسواقهم ، ويكفونهم من الترفق بأيديهم ما لا يبلغه رفيق غيرهم . ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحقّ رِفْدُهم ومعونتهم وفى الله لكل سعة ، ولكل على الوالى حقّ بقدر ما يصلحه ، وليس يخرج الوالى من حقبة ما ألزمه الله من ذلك إلا بالاهتمام والاستعانة بالله وتوطئ نفسه على لزوم الحق والصبر عليه فيما خفّ عليه أو ثقل . فولّ من جنودك أنصحهم فى نفسك لله ولرسوله وإمامك ، وأنقاهم جيئاً . وأفضلهم حلمًا ممن يبطل عن الغضب ، ويستريح إلى العذر ، ويرأف بالضعفاء ، وينبو على الأقوياء ، ويمن لا يثيره العف ، ولا يقعد به الضعف .

ثم الصق بدوى الأحساب وأهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة . ثم أهل النجاة والشجاعة والسماحة ، فإنهم جماع من الكرم وشعب من العرف ، ثم تفقد من أمورهم ما يتفقد الوالدان من ولدهما ، ولا يتفاقم فى نفسك شيء قويتهم به ، ولا تحقرن لطفًا تعاهدتهم به وإن قل .

فإنه داعية لهم إلى بذل النصيحة لك وحسن الظن بك ، ولا تدع تفقد لطيف أمورهم اتكالا على جسيمها ، فإن للسير من لطفك موضعاً ينتفعون به ، وللجسيم موقعاً لا يستغنون عنه . . .

وليكن أثر رؤوس جنودك عندك من واساهم في معونته ، وأفضل عليهم من جدته بما يسعهم ويسع من وراءهم من خلوف أهليهم حتى يكون همّهم همّاً واحداً في جهاد العدو ، فإن عطفك عليهم يعطف قلوبهم عليك ، وإن أفضل قرة عين الولاة استقامة العدل في البلاد ، وظهور مودة الرعية ، وإنه لا تظهر مودتهم إلا بسلامة صدورهم ولا تصح نصيحهم إلا بحيطتهم على ولاة الأمور وقلة استئثار دولهم وترك استبطاء انقطاع مدتهم ، فأفسح في آمالهم ، وواصل في حسن الشاء عليهم وتعديد ما أبلى ذوو البلاء منهم ، فإن كثرة الذكر لحسن أفعالهم تهز الشجاع وتحرض الناكل إن شاء الله .

ثم اعرف لكل امرئ منهم ما أبلى ، ولا تضيفن بلاء امرئ إلى غيره ، ولا تقصرن به دون غاية بلائه ، ولا يدعونك شرف امرئ إلى أن تعظم من بلائه ما كان صغيراً ، ولا ضعّة امرئ إلى أن تستصغر من بلائه ما كان عظيماً » .

الإمام يصف أهل البيت

يقول الإمام عليّ رضي الله عنه في وصف أهل البيت :
هم عيش العلم وموت الجهل ، يخبركم حلمهم عن علمهم ،
وصمتهم عن حِكَمِهم منطقهم ، لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه . هم
دعائم الإسلام ، وولائج الاعتصام ، بهم عاد الحق في نصابه ، وانزاح
الباطل عن مُقامه وانقطع لسانه عن منبته ، عقلوا الدين عقل وعاية
لا عقل سماع ورواية ، فإن رواة العلم كثير ورعاه قليل .

لا يقاس بآل محمد صلى الله عليه وسلم وآله من هذه الأمة أحد ،
ولا يُسوى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً . هم أساس الدين وعماد
اليقين ، إليهم يقىء الغالى وبهم يلحق التالى ، ولهم خصائص حق
الولاية وفيهم الوصية والوراثة - الآن إذ رجع الحق إلى أهله ونقل إلى
منتقله . . .

ومن كلامه أيضاً في وصفهم :

« فأين يتاه بكم ، بل كيف تعمهون وبينكم عترة نبيكم وهم أزمّة
الحق وأعلام الدين والسنة الصديق ، فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن وردوهم
ورود الهيم العطاش . . . »

« انظروا أهل بيت نبيكم فالزموا سمتهم واتبعوا أثرهم ، فلن يُخرجوكم من هُدى ، ولن يُعيدوكم في ردى ، فإن لبدوا فالبدوا ، وإن نهضوا فانهضوا ، ولا تسبقوهم فتضلوا ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا . . . »

ألا إن مثل آل محمد صلى الله عليه وسلم مثل مثل نجوم السماء إذا خوى نجم طلع نجم ، فكأنكم قد تكاملت من الله فيكم المصنائع وأراكم ما كنتم تأملون .

ولم يخطر ببال الإمام رضى الله عنه تحية أهل البيت . وقد جاء ذلك في كتاب له عليه السلام إلى أهل مصر مع مالك الأشتر لما ولاه إمارتها قال : « أمّا بعد ، فإن الله سبحانه وتعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم نذيراً للعالمين ومهيئاً على المرسلين . فلما مضى صلى الله عليه وسلم تنازع المسلمون الأمر من بعده ، فوالله ما كان يُلقي في روعى ، ولا يخطر ببالى أن العرب تزعج هذا الأمر من بعده صلى الله عليه وسلم عن أهل بيته ، ولا أنهم نحوه غنى من بعده ، فما راعنى إلا انشغال الناس عن فلان يبايعونه ، فأمسكت يدى حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمد صلى الله عليه وسلم ، فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به على أعظم من قوت ولايتكم التى إنما هى متاع أيام فلائيل يزول منها ما كان كما يزول السراب أو كما يتفشى السحاب ، فنهضت فى تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهى واطمأن الدين وتنهنه . »

الإمام عل

من كلمات البليغة

- اللهم كما صنت وجهى عن السجود^(١) لغيرك ، فصن وجهى عن مسألة غيرك .
- أربع القليل منهم كثير : النار والعداوة والمرض والفقر .
- إياك وصاحب سوء فإنه كالسيف المسلول يروق منظره ويقبح أثره .
- الذليل عندى عزيز حتى آخذ الحق له ، والقوى عندى ضعيف حتى آخذ الحق منه .
- العامل بغير علم كسائر فى غير طريق فلا يز يده بُعدَه عن الطريق إلا بعداً عن حاجته .
- أرجح الناس عقلاً وأكملهم فضلاً من صحب أيامه بالموادعة وإخوانه بالمسألة وقبل من الزمان عفره .

(١) كما بينت : ولد الإمام داخل الكعبة ، وكرم الله وجهه عن السجود لأصنامها .
وفى شرح ابن أبى الحديد عن الإمام : « أسلم على يديه - يقصد الرسول صلى الله عليه وسلم -
قبل أن يمس قلبه عقيدة سابقة ، أو يخاطب عقله شوب من شرك موروث » ، وإذا كان
لم يعرف عن الإمام عبادته للأصنام كذلك فإن أمه فاطمة بنت أسد أيضاً لم تسجد لصنم .

- لا تطلب الحياة لتأكل بل اطلب الأكل لتحييا .
- من حسدك لم يشكرك على إحسانك إليه .
- الحاسد المبطن للحسد كالنمل يمج الدواء ويبطن الداء .
- الحاسد يرى زوال نعمتك نعمةً عليه .
- رحم الله امرأ سمع حكماً فوعى ، ودعى إلى رشاد فدنا ، وأخذ بحجزة هاد فنجا .
- أوثق سبب أخذت به سبب بينك وبين الله سبحانه وتعالى .
- ما شككت في الحق مذ رأيت .
- لا يدرك الحق إلا بالجد .
- احترس من ذكر العلم عند من لا يرغب فيه ، ومن ذكر قديم الشرف عند من لا قديم له . فإن ذلك مما يحقدهما عليك .
- العامل بالعلم كسائر على الطريق الواضح فلينظر أسائر هو أم راجع .
- الأدبُ عند الأحمق كالماء العذب في أصول الحنظل كلما ازداد ريثاً ازداد مرارة .
- عقل الكاتب في قلمه .
- لا تسبني إبليس في العلانية وأنت صديقه في السر .

- أعم الأشياء نفعاً موت الأشرار .
- ليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه .
- لا يغرّكنكم ما أصبح فيه أهل الغرور فإنما هو ظل ممدود إلى أجل معدود .
- ليكن سرورك بما قدمت : وأسفك على ما خلفت ، وهمك فيما بعد الموت .
- احذر كل عمل إذا سئل عنه صاحبه أنكره أو اعتذر عنه .
- إن عمت بينك وبين عدوك عقدة أو ألبسته منك ذمة فحط عهدك بالوفاء ، وارع ذمتك بالأمانة . واجعل نفسك جنّة دون ما أعطيت .
- بادروا آجالكم بأعمالكم ، فإنكم مرتنون بما أسلفتم ومدينون بما قدمتم .
- لا تضيعوا من رفعتة التقوى ، ولا ترفعوا من رفعتة الدنيا .
- لا يكن أفضل ما نلت في نفسك من دنياك بلوغ لذة أو شفاء غيظ . ولكن إطفاء باطل أو إحياء حق .
- الجاهل يعرف بست خصال : الغضب من غير شيء ، والكلام في غير نفع ، والعطية في غير موضعها : وألا يعرف صديقه من عدوه . وإفشاء السر . والثقة بكل أحد .

- لا يكوننَّ المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء ؛ فإن في ذلك ترهيداً لأهل الإحسان في الإحسان ، وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة .
- أشرف الأشياء العلم . والله تعالى عالمٌ يُحِبُّ كل عالم .
- اختر أن تكون مغلوباً وأنت منصف ولا تختَر أن تكون غالباً وأنت ظالم .
- ليس شيء أحسن من عقل زانه علم . ومن علم زانه صدق . ومن صدق زانه رفيق ، ومن رفيق زانه تقوى .
- إلهي . كفاني فخراً أن تكون لي ربّاً ، وكفاني عزّاً أن أكون لك عبداً ، أنت كما أريد ، فاجعلني كما تريد .

المراجع

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - تفسير محمد بن علي بن محمد الشركاني .
- ٣ - تفسير الطبري والقرطبي وابن كثير والنسفي والبيضاوي .
- ٤ - سيرة النبي : عبد الملك بن هشام .
- ٥ - أعيان الشيعة : السيد محسن الأمين .
- ٦ - شرح نهج البلاغة : ابن أبي الحديد .
- ٧ - نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار : الشيخ سيد الشبلنجي .
- ٨ - الفتنة الكبرى : الدكتور طه حسين .
- ٩ - عبقرية الإمام : الأستاذ عباس محمود العقاد .
- ١٠ - ينابيع المودة : الشيخ سليمان الحسني البلخي القندوزي .
- ١١ - الكامل : ابن الأثير .
- ١٢ - حياة أمير المؤمنين في عهد النبي : الأستاذ محمد صادق الصدر .
- ١٣ - حلية الأولياء : أبو نعيم الأصفهاني .

- ١٤ — البداية والنهاية : ابن كثير .
- ١٥ — الإمام على : الأستاذ جورج جرداق .
- ١٦ — الإمامة والسياسة : ابن قتيبة .
- ١٧ — اليقين في إمرة أمير المؤمنين : ابن طاووس .
- ١٨ — خصائص أمير المؤمنين : الشريف الرضى .
- ١٩ — الشرف المؤبد لآل محمد : يوسف النبهاني .
- ٢٠ — معاوية في الميزان : الأستاذ عباس العقاد .
- ٢١ — ملخص تاريخ الخوارج : الشيخ محمد شريف سليم .
- ٢٢ — الخلفاء أمراء المؤمنين : السيوطي .
- ٢٣ — الرياض النضرة : محب الدين الطبري .
- ٢٤ — الإرشاد : الشيخ المقيد .
- ٢٥ — عائشة والسياسة : الأستاذ سعيد الأفغاني .
- ٢٦ — حرب الجمل وحرب صفين : السيد محسن الأمين .
- ٢٧ — البيان والتبيين : الجاحظ .
- ٢٨ — طبقات ابن سعد : ابن سعد .
- ٢٩ — نظرية الإمامة : الدكتور أحمد صبحي .
- ٣٠ — الأغاني : أبو الفرج الأصفهاني .

- ٣١ - الاستيعاب : ابن عبد البر .
- ٣٢ - تاريخ الطبرى .
- ٣٣ - تاريخ ابن الأثير .
- ٣٤ - مولد أمير المؤمنين فى الكعبة : الشيخ محمد على الأور دبادى .
- ٣٥ - النص والاجتهاد : السيد عبد الحسين شرف الدين .
- ٣٦ - قضاء أمير المؤمنين على بن أبى طالب : الشيخ محمد تقى التستري .
- ٣٧ - المجالس السنية فى مناقب ومصائب العتره النبويه : السيد محسن الأمين الحسينى العالمى .
- ٣٨ - الإمام على بن أبى طالب : الأستاذ عبد الفتاح عبد المقصود .
- ٣٩ - الفتنة ووقعة الجمل : سيف بن عمر الضبى الأسدى .
- ٤٠ - كشف الغمة : الشيخ عبد الوهاب الشعرانى .

الفهرس

صفحة

٧	المقدمة .
٩	الإمام على بن أبي طالب .
٩	مولده
١٣	أمه
١٦	زوجاته
١٧	أولاده
٢٤	على ولد مسلماً
٣٦	خصائص الإمام على :
٣٦	اختصاصه بلقب الإمام
٤٠	نشأته في حجر رسول الله
٤١	سبقه إلى الإسلام
٤٢	استجابته لدعوة الرسول
٤٣	مبيته في فراش الرسول ليلة الهجرة
٤٣	المواخاة بينه وبين الرسول
٤٣	حامل لواء الرسول في كل زحف

صفحة

٤٤	اجتهاده
٤٤	شجاعته .
٤٧	جهاده في سبيل الله
٤٨	تورعه عن البغي
٤٩	حلمه وصفحه
٥٠	علمه وبلاغته
٥٢	أشعر الصحابة
٥٤	معرفته القضاء والفرائض
٥٦	زهده
٥٨	عدله
٦١	القرآن الكريم والإمام علي .
٦٦	أحاديث الرسول عن الإمام
٦٨	النظر إلى وجه الإمام عبادة
٦٩	فصاحته ودرايته .
٧١	شعور النبي بإخاء الإمام
٧٢	حب الرسول للإمام
٧٥	اهتمام الرسول بالإمام وكفالاته وتدريبه
٧٧	موقف الإمام بعد وفاة الرسول

٨٩	بيعة الإمام
٩٤	بعد البيعة
٩٨	حروب الإمام
٩٨	المأساة الأولى :
٩٨	حرب الجمل .
١٠٩	أول شهادة زور في الإسلام .
١٢٩	نهاية معركة الجمل
١٣٣	مع الإمام بعد المعركة
١٣٥	عدد قتلى المعركة
١٣٥	الإمام في مسجد البصرة
١٣٩	إمام والسيدة عائشة
١٤٢	عودة أم المؤمنين .
١٤٣	ذا خرجت أم المؤمنين ؟
١٧١	أساة الثانية :
١٧١	إمام ومعاوية
١٨٠	رسول الإمام إلى معاوية

صفحة

١٨٣	الإمام يرفض ويردّ
١٨٦	الحرب .
١٨٧	رسالة الإمام إلى عماله .
١٨٩	القتال على الماء
١٩٣	الإمام يرأسل معاوية بصفين .
١٩٧	القتال
٢٠٦	— اشتداد القتال والمبارزة .
٢٠٨	عمار بن ياسر .
٢١٣	معاوية يفاوض ابن عباس
٢١٥	ليلة الهرير وانتهاء المعركة
٢١٧	— نتيجة وقعة الهرير وحيلة رفع المصاحف
٢١٨	اختلاف أصحاب الإمام
٢٢٠	ماذا قال الإمام عند رفع المصاحف ؟
٢٢٢	اختيار الحكمين
٢٢٢	الإمام يوشح ابن عباس
٢٢٥	— كتاب الصلح .
٢٢٨	اجتماع الحكمين بدومة الجندل

١٩٨٦ / ٥٠٦١	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧-٠٢-١٧٨٥-٩	الترقيم الدولي

١ / ٨٦ / ٣٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)